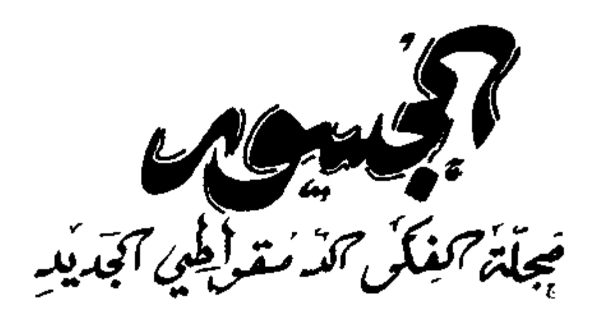


مجلة شهرية تصدر مؤقتا أربع مرات في السنة

العدد الأول السنة الاولى 1981

المدير المسؤول : **عبد الحميد عقـار**

عنـوان المراسلـة : عبـد الحميـد عـقـار

3 زنقة طانطا رقـم 19 ـ الربـاط ـ المغـرب

الغلاف من انجاز الفنان القاسمي محمد

* المقالات تعبـر عـن رأي أصحابهـا
* لا ترد المقالات نشرت أ ملم تنشر.

الاشتراكـات :

الاشتراك العـادي 30 درهم

اشتراك التشجيع غير محدود

« **ما هي الخدمات التي تنتظرها البروليتاريا من المثقفيـــن ؟ :**

أن يفككوا الايديولوجية البرجوازية .

أن يدرسوا الايديولوجية التي تحرك العالم .

أن يعملوا على تطوير النظرية .

وبـــاخـــتـــصـــار :

كلما كان عليك أن تقوم حدثا ضع نفسك مباشـــرة وبصراحـــة

في موقع طبقتك .

وفي كل مسألة اتخذ موقفـــا . »

برتولد برشت

المـوضـوعـات :

كـلـمـة الـعـدد

تصدر مجلة الجسور في مرحلة متميزة من تاريخ نضال الشعب المغربي، انها مرحلة التحولات النوعية لمجمل التراكمات الكمية التي تختزن تجارب سنوات عديدة ، لم يكن الصراع فيها دائما ايجابيا ، ولم يكن الاخفاق والفشل كذلك دليا يؤدي الى اليأس والهزيمة : فالمشروع السياسي والثقافي والايديولوجي لفصائل الحركة الوطنية ذات الاتجاه التقدمي والديموقراطي ، اذا كان لم يصل الى فرض الشروط الموضوعية والذاتية لانجاز الثورة الوطنية الديموقراطية ، واذا كان هذا المشروع قد تعرض في كثير من المرات للخيبة والفشل ، فانه مع ذلك ، وانطلاقا من تراكماته الكمية وتناقضاته العديدة ، ساهم في ايجاد امكانيات موضوعية لمزيد من التبلور في الوعي الطبقي لمختلف الطبقات الاجتماعية . ولعل أول مظهر لهذا التبلور الذي تشهده المرحلة الراهنة هو الاحساس بضرورة القطيعة ليس على المستوى الفكري فقط بل في المستوى الاجتماعي والسياسي ، واساسا ، مع التراكمات الفاشلة وغير القابلة للتقدم والتغير النوعي . واذا كان تحقيق القطيعة دفعة واحدة امرا مستحيلا ، فان تحليل ومراجعة خصائص تلك التراكمات وتسييرها واستخلاص قوانين صيرورتها يمثل الخطوة الاولى على طريق انجازها .

تصدر مجلة الجسور كذلك في مرحلة يتميز الصراع فيها بالنضال من أجل المطالب الديموقراطية وبالنضال ضد اشكال الاستغلال والقهر الطبقيين باعتبارهما السبيلة الاساسية في المشروع السياسي التقدمي الديموقراطي . لذلك فان فكر هذه المرحلة يستمد هو الاخر خصائصه ومميزاته من مضمون واساليب ومستوى ذلك الصراع انه فكر الديموقراطية الجديدة ، يرتهن ويشترط في طبيعته وتواصله بالتحولات الراهنة في صفوف الحركة الجماهيرية . ومن هذه التحولات يستقي مميزاته ومهامه الاساسية :

انه فكر وطني متفتح يعادي الصهيونية والامبريالية وعملاءها .

انه فكر ديموقراطي ملتزم بقضايا ونضالات الجماهير الكادحة ، ومومن بضرورة الصراع الايديولوجي النظري ، ويطور الجوانب المشرقة من التراث القومي والمحلي .

انه فكر علمي يرتكز على التحليل الملموس للواقع الملموس ، ويتصدى للايديولوجية السائدة ويكشف طابعها التضليلي الغيبي والاستعماري ، هذه الايديولوجية التي تحارب الفكر العلمي والتقدمي تحت شعارات مختلفة ، « الحفاظ على الاصالة » ، « محاربة الفكر المستورد » ...

والجسور اذ تصدر ضمن هذه الشروط تطمح الى أن تسهم في نشر وتعميم هذا الفكر ، وذلك بتعميق الاستيعاب العلمي لتراكمات الحركة

التاريخية بالمغرب وتجارب الشعوب المناهضة للاستغلال والاستعمار ، ومن خلال طرح الاشكالات النظرية والسياسية المرتبطة بتلك التراكمات .

والجسور اذا كانت لا تدعي لنفسها احتكار ملكية « الحقيقة الموضوعية » فهي مع ذلك لا تخفي طموحها في الاجتهاد ، وفي أن تكون بوتقة لفكر ديموقراطي جديد أساسه الحوار والنقاش والصراع الايجابي الى جانب جدلية المعرفة العلمية وصيرورة الواقع الحي الملموس .

فماذا في العدد الاول من هذا الطموح ؟ .

دون أن ننوب عن القارىء في تقديم هذا العدد نقول : انه مجرد خطوة أولى.

« الجسور »



بصدد البرجوازيـة الكمبرادوريـة : ملاحظـات أوليـة :

) في تحديد ونشأة البرجوازية الكمبرادورية بالمغرب :

ان مجموعة من الأسباب ، بعضها عرضي وظرفي ، والبعض الآخر يكتسي صبغة نظرية عامة ، هي التي شكلت الدافع الرئيسي لطرح هـذه الملاحظات الأولية والجزئية حول البرجوازية الكمبرادورية في المجتمع المغربي المعاصر . يمكن حصر هذه الأسباب في النقط التاليـة .

أ ــ ان التحولات الهامة التي شهدتها الساحة الوطنية على مستـوى الصراع / التحالفات الطبقية منذ سنة 1973 قد أدت الـى صياغـة جديـدة للتحالفات الطبقية على صعيد المجتمع المغربي . هذه التحولات التـي تجـد تفسيرها في صيرورة الصراع الطبقي الذي تميز بـه مجتمعنـا في السنـوات الأخيرة من عقد الستينات وبداية عقد السبعينات من جهـة ، وفي التغييرات الاجتماعية ــ الاقتصادية التي طرأت على البرجوازيـة المغربيـة بمختلف مكوناتها منذ مطلع الستينات من جهة أخرى .

ولئن كانت الاحداث التي عاشها التحالف الطبقـي السائـد وانفجـار تناقضاته ، بشكل دموي ، تفسر جزئيا تغيير بعض ممارساتـه السياسيـة وسعيه الحثيث الى توسيع قاعدة الطبقات المساندة بهدف التصدي للحركـة الجماهيرية ؛ فان تفسير الاسباب الاقتصادية ــ الاجتماعيةالتي دفعت حزب الاستقلال الى نهج سياسة جديدة وتخليه عن « المعارضة » بتطلب ــ ما دمنا نرفض التفسير المثالي والذاتي الذي يرد سياسة « التعادليين » الى غيـاب الأستاذ علال الفاسي ، أو الى رغبة قادة الحزب في الحصول على مقاعد وزارية واستوزارهم من أجلها (x) ! ــ بحثا لسنا بصدده . وستتركز هذه الملاحظات على رصد التحولات التي عرفتها البرجوازية الكمبرادورية التي تشكل طرفـا في التحالفات الجديدة التي يشهدها مجتمعنا فضلا عن كونها جزءا لا يتجزأ من التحالف الطبقي السائـد .

ب ــ « حمى » الائتلاف ، بمختلف تلاوينه ؛ هذه « الحمى » التي لا تلغي التناقضات الطبقية القائمة بين أطراف التحالف التي تسعى الى طمسهـا أو التقليل من أهميتها ؛ هذه « الحمى » أصابت كل القوى السياسية التي تعبـر على صعيد موازين القوى الطبقية في مجتمعنا . ففي حين حقـق « بعضهـا امنيته » وساهم في الائتلاف الحكومي ليتميز بتحمـل مسؤوليـة القـرارات اللاشعبية (التعليم ، السكن ..) ، بقي البعض الآخر خارج الائتلاف وتمسك بنهج طريق « المعارضة الايجابية » أو « البناءة » موجها نيران نقده لخصمه السياسي التاريخي . ان هذه « الحمى » تطرح مجددا ، وبشكـل ملحـاح ، ضرورة البحث والتحديد العلمي للطبيعة الطبقية للاحزاب السياسية التي امت

بها هذه « الحمى » ، وبذات الوقت تجعل مهمة البحث في طبيعة التحالف الطبقي تستند ضرورية : لربما تغيرت طبيعته الطبقية ولم يدرك ذلك الا « الراسخون في العلم » !

ان ملاحظتنا ستعمل على تبيان ان **الطبيعة الطبقية** لاحدى المكونات الاساسية للتحالف الطبقي السائد : **البرجوازية الكمبرادورية لم يطرأ عليها اي تغيير** ، وذلك خلافا لما ذهب اليه البعض لتبرير تكتيكات سياسية خاطئة وقصيرة النظر ...

ج ـ كثرة الحديث عن « البرجوازية المغربية » (2) دون تحديد طبيعتها وشرائحها المختلفة الامر الذي يوحي ان « برجوازيتنا » تشكل كتلة منسجمة المصالح والاهداف وانها لا تعرف التناقض أولا . وان « الخطاب » حول البرجوازية ببلادنا يصاحبه رفض مفهوم البرجوازية الكمبرادورية . وهذا الرفض لا يرجع الى تداول ذلك المفهوم في الادبيات الماركسية ولا الى الاصرار على « الاصالة » و « نحت المفاهيم النظرية الملائمة » لواقع مجتمعنا فضلا عن كونه بعيدا كل البعد عن « التحليل الملموس للواقع الملموس » : ان هذا التحاشي يصاحب موجة « مراجعة » الماركسية و « تجاوزها » علاوة على كونه يخفي وراء رداء « العلم » مدلولا سياسيا ـ طبقيا سنأتي على كشفه ثانيا .

د ـ ان الادبيات البرجوازية والبرجوازية الصغيرة ، بمختلف تلاوينها ، تروج لمجموعة من الافكار الخاطئة والتي لا تخلوا نتائجها العملية ـ السياسية من منزلقات ومتاهات ؛ ومفاد هذه الاطروحات ان الطبقة السائدة في مجتمعنا ليست طبقة بالمعنى « العلمي » لهذا المفهوم . وتقدم الطبقة السائدة على انها خليط من الأشخاص أو « كمشة » أو « فئة » وأحيانا « مجموعة من الفئات » ... وأشياء أخرى : لكنها لا تشكل على أية حال طبقة اجتماعية . ويدعي اصحاب هذه التحف النظرية أن « الحاكمين » او « المستفيدين من الاوضاع » والفئات السائدة في مجتمعنا وليدة عهد الاستعمار الجديد وانها تفتقر لاي قاعدة اجتماعية وانها « مهزوزة » الى غير ذلك . وتتوخى هذه الملاحظات السريعة ابراز خطأ هذه الدعاوي التي تلبس أحيانا ثوبا ايديولوجيا براقا (3) غير انها ، في الحقيقة ، لا تتعدى كونها افرازات ذاتية لا تمت للواقع بصلة .

هـ ـ وأخير وليس آخرا ، ان البحث في موضوع الطبقات الاجتماعية القائمة في المجتمع المغربي المعاصر ، ووضع الحد الفاصل بين الطبقات الاجتماعية السائدة (4) المستفيدة قسرا من الاوضاع القائمة وذات المصلحة في الابقاء عليها ، والطبقات المسودة المضطهدة والمستغلة بدرجات متفاوتة وذات المصلحة في التغيير الجذري للهياكل والبنى الاجتماعية السائدة ؛ ان هذا البحث ليس مجرد ترف فكري أو محض اهتمام مثقفي بل انه يكتسي صبغة أولوية تفرضها مهام النضال من أجل التغيير الجذري بمجتمعنا المعاصر .

ذلك ان **التحديد العلمي والدقيق** ـ بعيدا عن المتاهات الذاتية والاسقاط

الميكانيكيٌ والدغمائي لتجارب شعوب أخرى (5) لا مندوحة لنا من الاستفادة من تجاربها النضالية الغنية ، على واقع مجتمعنا المتميز ـ **لمعسكر أعداء التغيير والتقدم الاجتماعي من جهة ، ومعسكر أصحاب المصلحة الاكيدة والمصلحة في تغيير الاوضاع وفي التقدم الاجتماعي وحلفائهم من جهة ثانية مسألة بالغة الاهمية** (6) . وليس من الغريب في شيء ان يكون أحد الاسباب الاساسية لفشل الحركات التقدمية ، التي برزت في الساحة الوطنية ، منذ نهاية عهد الاستعمار المباشر ، كون هذه الحركات لم تحدد عمليا وبشكل واضح معسكر الأعداء ومعسكر الحلفاء ، بل ذهب بعضها الى حد التحالف المكشوف تارة والخفي تارة أخرى مع أعداء التغيير والتقدم لضرب حلفائها الطبيعيين (7) .

ولئن كانت الطبقات السائدة ، تعمل مجندة لذلك الامكانيات المادية والفكرية (8) الهائلة التي تمتلكها ، على تعتيم وعي الجماهير الكادحة وطمس الأساس المادي ـ الدنيوي لسيطرتها بغطاء سميك من البخور اللاهوتي ؛ فان رسم اللوحة الطبقية لمجتمعنا المعاصر واستجلاء مواقع ومواقف مختلف الطبقات الاجتماعية مهمة تغدو حيوية بالنسبة لمعسكر التغيير والتقدم الاجتماعي الذي تبقى امكانياته الراهنة محدودة ومجهوداته هزيلة في هذا الميدان.

ان هذه الملاحظات السريعة تطمح الى المساهمة في كشف الأساس المادي ـ الدنيوي لسيطرة احدى المكونات الأساسية للتحالف الطبقي السائد وهي البرجوازية الكمبرادورية . وتنطلق هذه الملاحظات من القناعة بان « البرجوازية المغربية » (9) لا تشكل كتلة متراصة الاطراف ، بل انها مكونة من عدة طبقات قائمة الذات ومتميزة على صعيد معالمها وخصائصها ودورها في مسلسل الانتاج الاجتماعي ، فضلا عن كونها متناقضة .

I ـ في تحديد البرجوازية الكمبرادورية :

1 ـ 1 ـ تأتي صعوبة تحديد البرجوازية الكمبرادورية ، في المجتمع المغربي المعاصر ، من تعدد واختلاف وتمويه أشكال السيطرة والاستغلال التي تمارسها الامبريالية على مجتمعنا في كل الميادين، وعلى الصعيد الاقتصادي بشكل خاص ، كما تأتي الصعوبة من تفنن الامبريالية ، ونجاحها في كثير من الأحيان ، في الباس أشكال وأساليب سيطرتها واستغلالها لبلادنا ثوبا محليا يدعي « الوطنية » مخفيا بذلك حقيقة المصالح التي يخدمها .

1 ـ 2 ـ ولئن كانت السيطرة الاقتصادية للامبريالية على السوق الوطنية تتم ، أساسا ، عن طريق الرأسمال المالي والمصرفي اللذين يحكمان قبضتهما على أهم المرافق الاقتصادية في بلادنا اما بشكل مباشر أو بواسطة الشبكة الاقتصادية الواسعة و « الاخطبوطية » التابعة لهما ؛ فان هذه السيطرة تتخذ كذلك شكل « المساعدات » المالية وغيرها و « التعاون » الثقافي والتقني ، هذه الأشكال التي يراد لها أن تساهم وبكيفية حاسمة في تعيين اتجاهات الانماء

الاقتصادي ووتيرته وحجمه الخ .. والتي تؤدي في آخر المطاف ، الى تركيز السيطرة الامبريالية على المقدرات المادية والبشرية لبلادنا والى تعميق تبعيتها لمراكز التقرير الامبريالية على كافة الاصعدة .

1 ـ 3 ـ ان التداخل (10) الكبير والمتعدد الأشكال والصيغ القانونية والاقتصادية بين الرسمال « المحلي » (11) الكمبرادوري والرأسمال « الاجنبي » الامبريالي يطمس الطبيعة الحقيقية للرأسماليين ، الأمر الذي يؤدي الى تمويه استغلال وسيطرة الامبريالية ،مدعمة في ذلك من طرف حلفائها المحليين ، لخيرات وشعب بلادنا . وبذات الوقت يزيد هذا التداخل مسألة تحديد البرجوازية الكمبرادورية تعقيدا .

1 ـ ان عملية المغربة التي أقدم عليها التحالف الطبقي السائد ، منذ مارس 1973 والتي قدمت على انها استكمال للاستقلال الاقتصادي (12) وعلى انها « مرحلة جديدة في التاريخ الاقتصادي والاجتمعي » لبلادنا ، لم تؤد في الحقيقة الا الى تعميق روابط تبعية الاقتصاد المغربي للامبريالية ومضاعفة اندماج الرأسمال الكمبرادوري بالراسمال الامبريالي : ان المغربة صياغة قانونية ـ سياسية جديدة للترابط العضوي القائم بين الرأسمال الكمبرادوري والرأسمال الامبريالي . وخلافا لما يدعيه البعض ، فان هذه العملية لم يرافقها التخفيف من قبضة الرأسمال الامبريالي على الاقتصاد المغربي بقدر ما رافقها التخفيف من التكاليف المالية لهيمنة الامبريالية على اقتصاديات بلادنا .

صحيح ان الامبريالية قد تخلت ، بموجب عملية المغربة ـ التي أثار التحالف الطبقي السائد ضجة اعلامية كبرى حولها ـ بعض المصالح الثانوية والهامشية ؛ لكن المغربة ، في مختلف مراحلها ، لم ينتج عنها المساس بالمصالح الأساسية والجوهرية (المعادن ، الصناعة ...) للامبريالية ببلادنا . واذا كان التحالف الطبقي السائد ، والبرجوازية الكمبرادورية ، تحديدا يحاول الرفع من حصته في الأرباح الخيالية التي يجنيها الرأسمال الامبريالي من استغلال الاقتصاد المغربي ، فانه ـ أي التحالف الطبقي السائد ـ يحاول استغلال هذه العملية « الأنانية » للبروز بمظهر المدافع الغيور عن المصالح الوطنية واتبرير تصعيد استغلاله ونهبه للجماهير الكادحة بدعوى « استكمال الاستقلال الاقتصادي » ...

ولئن كانت البرجوازية الكمبرادورية قد استأثرت بحصة الأسد في عملية المغربة (13) فان البرجوازية المتوسطة بل وحتى الصغيرة قد استفادت بشكل ثانوي من مغربة بعض القطاعات الاقتصادية الهامشية (14) . وبهذا الصدد يقول الأستاذ ن. العوفي : « في النهاية ، ان الفئات القوية من البرجوازية ؛ أي تلك التي تتمتع بدعم الدولة مثل البيروقراطية العاليا ، أو تلك التي تحتفظ بعلاقات وطيدة مع الرأسمال الدولي مثل الاوليغارشيا المالية؛

هي التي استفادت أساسا من المغربة . ولقد استفادت من المغربة وبشكل ثانوي ، البرجوازية المسماة « الوطنية » والمتوسطة في المواقع الثانوية للتراكم » . (15) وهكذا فان عملية المغربة عنصر جديد يدعم الالتحام القائم بين الامبريالية والبرجوازية الكمبرادورية وبذات الوقت يضفي صبغة « الوطنية » على المصالح التي تتحكم فيها الامبريالية ؛ وليس من شأن ذلك تسهيل مهمة حصر البرجوازية الكمبرادورية .

1 ــ 5 ــ ان البرجوازية الكمبرادورية ، في المرحلة الراهنة من السيطرة الامبريالية على بلادنا ، لم تبق مجرد سمسار أو وكيل تجاري (16) للبرجوازية الامبريالية . وبالرغم من استمرار ارتباط وتبعية البرجوازية الكمبرادورية للامبريالية ، فان أشكال هذه العلاقة ــ التبعية قد تغيرت ولكن باتجاه مزيد من التلاحم والارتباط العضوي بين الاولى والثانية . بيد أن هذه التغييرات على صعيد الأشكال والاساليب ، قد تمت تبعا للتحولات التي عرفتها بلادنا منذ اعلان استقلالها السياسي ، والتحولات التي طرأت على المجتمع الدولي والسوق الرأسمالية العالمية وليست وليدة الصدفة . وهكذا فان النشاط الاقتصادي الكمبرادوري لا يمكن حصره ــ قسرا ــ في الوكالة أو الوساطة التجارية بين الامبريالية والسوق الوطنية . ان الأنشطة الاقتصادية ذات الطبيعة الكمبرادورية قد تجاوزت اطارها « التقليدي » ؛ والذي يصفه لويس مييج بقوله : « لقد بدأت تتكون طبقة اجتماعية جديدة : طبقة من الوسطاء بين العالمين (العالم الاوروبي والعالم المغربي) . » (17) في مجرى حديثه عن « عوامل التأثير الاوروبي » في المجتمع المغربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ ولم تعد محصورة في الايراد والتصدير ، وانما امتدت لتشمل كل المرافق والقطاعات الاقتصادية .

1 ــ 6 ــ من الضروري التأكيد على ان تغيير وتطور أشكال النشاط الاقتصادي الكمبرادوري جاء وليد تغيير وتطور أشكال وأساليب سيطرة الامبريالية على مستعمراتها السابقة أو ما يسمى « العالم الثالث » حاليا وليس وليد **طبيعة تلك السيطرة** ؛ خصوصا بعد حصول المستعمرات على استقلالها السياسي واستبدال سيطرة الاستعمار المباشر (القديم والذي انكشف سره) بسيطرة أكثر ملاءمة « لروح العصر » عصر تحرر الشعوب من ربقة الاستعمار . هي سيطرة الاستعمار الجديد من جهة . ثم ان مجرى الصراعات الاجتماعية التي تشهدها بلدان « العالم الثالث » والازمات الاقتصادية التي يتخبط فيها الاقتصاد الرأسمالي العالمي ، والدور المنوط بالمستعمرات السابقة للاسهام في التخفيف من حدة أزمة الامبريالية ان لم يكن تجاوزها على حساب مصلحة شعوب « العالم الثالث » ، كلها عوامل ساهمت ، وبدرجات متفاوتة ، في تغيير أشكال النشاط الاقتصادي الكمبرادوري ، من جهة أخرى .

1 ـ 7 ـ ان الرأسمال الكمبرادوري (18) يتميز بكونه تابعا ، وبشكل مطلق ، للرأسمال الامبريالي . والرأسمال الكمبرادوري اما ان يكون امبريالي المصدر يخدمه ويرعاه وكلاء محليون (رجال أعمال مغاربة) واما أن يكـون محلي المصدر غير أنه مندمج ومرتبط بالرأسمـال المصـرفي أو المالـي او الصناعي الامبريالي وليس له من المغربية الا « الجنسية » .

وفي كلتا الحالتين ، يبقى الرأسمال الكمبرادوري دائما خاضعا لمراكـز التقرير الامبريالية التي تحدد أشكال وقطاعات توظيفه وفقا لمصالح رأسمالية « المراكز » . وفضلا عن ذلك ، ان وجود الرأسمال الكمبرادوري رهين بخدمة ورعاية مصالح الرأسمال الامبريالي .

واذا كانت البرجوازية الكمبرادورية طبقة طفيلية بطبيعتها علاوة على كونها تحجم عن توطين رأسمالها في المشاريع الطويلة الأمد والمرتفعة التكاليف، حيث تفضل التوظيفات المضمونة والتي تحقق اسرع الارباح وأكثرها ؛ (19) فان الرأسمال الكمبرادوري رأسمال مضارب بطبيعته ، وبفضل الامكانيات الهائلة التي تتيحها للبرجوازية الكمبرادورية ارتباطاتها بالرأسمال الامبريالي من جهة وبالبرجوازية البيروقراطية من جهة ثانية ، تمـارس البرجوازيـة الكمبرادورية شتى أنواع المضاربات وفي كل الميادين الاقتصادية ، وهي في مأمن من النتائج التي قد تترتب ، عادة عن مثل هـذه الممارسات ... أليست الدولة دولتها ؟ !

1 ـ 8 ـ ان النشاط الاقتصادي ذا الطبيعة الكمبرادورية يتميز بكونـه ملحقا بالنشاط الاقتصادي في المراكز الامبريالية ؛ وان خضوعه وتبعيته مطلقة لقسمة العمل الرأسمالية على الصعيد العالمي وللدور الذي تحدده الامبرياليـة لنشاطها الاقتصادي ولنشاط ركائزها الطبقية في الدول الخاضعة لسيطرتها . ويتم ذلك على ضوء مسار الصراع الطبقي الدائر في هذه الدول أولا ، وتمشيا مع الوضع العام لاقتصاديات الدول الامبريالية ثانيا .

وهذا الارتباط والتبعية يجعل النشاط الاقتصادي الكمبرادوري شديـد الحساسية والتأثر بالازمات التي يتعرض لها الاقتصاد الامبريالي على الصعيد العالمي ، وبذلك يكون اقتصاد الدول الخاضعة للأمبريالية هو الضحية الاولى لأزمات هذه الاخيرة ؛ ولا أدل على ذلك أكثر من الازامت المتتالية التي تعيشها بعض القطاعات الاقتصادية ببلادنا (20) نتيجة التقلبات التي تعرفها السوق الرأسمالية العالمية ، أو من جراء القرارات الحمائية التي تتخذها بعض الدول الامبريالية .

والنشاط الاقتصادي الامبريالي لا يحدد ، أساسا ، انطلاقا مـن واقـع ومستلزمات اقتصاديات البلدان الخاضعة للسيطرة والاستغلال الامبريالي ومن حاجيات سكان هذه البلدان ، وانما يحدد انطلاقا من الواقع الاقتصادي

والاجتماعي للبلدان الامبريالية ومن حاجياتها : وخير شاهد على ذلك النقل الحالي لبعض الصناعات الملوثة وذات التقنية المتخلفة ، والتي تتطلب نسبة عالية من ايد العاملة ، أي ذات تكوين عضوي ضعيف للرسمال الى بلدان ما يسمى « العالم الثالث » .

ان الضرورة الحيوية بالنسبة للامبريالية الى ابتزاز فائض القيمة ــ هذا الابتزاز الذي يقع الآن في عين المكان ــ وتحقيق أرباح خيالية وتصدير رساميل ــ محدودة ــ واستيراد المواد الاولية بل وحتى بعض المواد المصنعة (مثل النسيج ...) باثمان بخسة والهيمنة المطلقة على اسواق البلدان التابعة الخ ... لهي ، كذلك ، من العوامل الاساسية التي تحدد القطاعات الاقتصادية التي يتركز فيها النشاط الاقتصادي الكمبرادوري .

1 ــ 9 ــ واذا كانت البرجوازية الكمبرادورية مرتبطة بوشائج متعددة (اقتصادية ، سياسية ، ايديولوجية) بالامبريالية ، واذا كانت نشاطاتها الاساسية موجهة ، وبالدرجة الاولى لارضاء حاجيات السوق الامبريالية (21) ؛ فان هذا التوجه الاساسي للنشاط الاقتصادي الكمبرادوري لا يلغي سيطرة البرجوازية على المرافق الاقتصادية المرتبطة بارضاء حاجيات السوق الوطنية، شريطة ان لا يتجاوز هذا النشاط الاطار للرأسمال الكمبرادوري في قسمة العمل الرأسمالية على الصعيد العالمي وان يخدم مصلحة استمرار نهب واستغلال الامبريالية لمجموع الاقتصاد الوطني ...

ولئن كان هذا التوجه العام للرأسمال الكمبرادوري لا يتناقض ، بشكل مطلق ، مع توسيع دائرة الانتاج الرأسمالي بل يخدم ويستلزم هذا التوسيع، في اطار الحدود التي تضعها الامبريالية والشروط التي تمليها اقتصادياتها ومسار الصراعات الاجتماعية في الدول الخاضعة للامبريالية ؛ فان الرأسمالية التي تطورها وتسهر على نموها البرجوازية الكمبرادورية ذات طبيعة متميزة ــ لكنها مع ذلك ، وخلافا لما يدعيه البعض ، رأسمالية في جوهرها ــ . انها رأمسالية تبعية « ومشوهة » على حد تعبير فرغوبولوس (22) . واذا كانت الرأسمالية التبعية لا تنفي النمو الاقتصادي الذيلي والمحدود، فانها، وبمختلف تلاوينها المحلية ، تتنافى مطلقا مع تطوير رأسمالية وطنية مستقلة عن مراكز التقرير الامبريالي (23) ...

والبرجوازية الكمبرادورية ، بحكم مقدراتها الاقتصادية وسلطانها السياسي تسيطر على اقتصاد البلاد ، وتهيمن بشكل خاص على كل القطاعات الاقتصادية التي تدر أرباحا طائلة وسريعة ، وفي كل ذلك تعمل البرجوازية الكمبرادورية لحساب الامبريالية : **انها وكيلها الشرعي في أرض الوطن .**

2 ــ **مكونات البرجوازية الكمبرادورية في المجتمع المغربي المعاصر :**

2 ــ 1 ــ نعتبر ان البرجوازية البيروقراطية المدنية والسكرية ، بالرغم

من ارتباطاتها المتعددة (24) وعلاقاتها الاقتصادية والعائلية (25) لا تشكل فئة من فئات البرجوازية الكمبرادورية ؛ وذلك نتيجة الموقع المتميز ـ والمتخلف عن موقع البرجوازية الكمبرادورية ـ الذي تحتله في مسلسل الانتاج الاجتماعي، فضلا عن الطبيعة المختلفة لعلاقة كل من الطبقتين بملكية وسائل الانتاج (26).
بيد ان هذه الاختلافات التي تترتب عنها تمايزات هامة على الصعيدين الايديولوجي والسياسي بل وحتى خلافات مصلحية بين الطبقتين ـ هذه الخلافات / التناقضات التي تبقى دائما ثانوية في اطار التشكيلة الاجتماعية المغربية باعتبار التناقض الاساسي القائم بين مجموع مكونات التحالف الطبقي السائد من جهة ، وبين ، الجماهير الشعبية ، ككتلة محددة تاريخيا ، من جهة أخرى ـ ، ان هذه الاختلافات في نفس الوقت الذي تجعل من البرجوازية البيروقراطية المدنية والعسكرية طبقة اجتماعية قائمة الذات ، فانها لا تنفي الطبيعة الكمبرادورية للبيروقراطية العليا ، وكونها تسهر على خدمة وتنمية مصالح الامبريالية موظفة مؤسسات وأجهزة الدولة لذلك الغرض.

2 ـ 2 ـ ان الملاك العقاريين الكبار « العصريين » الذين ينتهجون أساليب انتاج رأسمالية ومتطورة في الفلاحة ، ويتخصصون في الفلاحة التصديرية ، لا يشكلون فئة من فئات البرجوازية الكمبرادورية ؛ وذلك نظرا لموقعهم المتميز في مسلسل الانتاج الاجتماعي . غير أن تخصصهم في الفلاحة التصديرية الرامية الى ارضاء حاجيات السوق الامبريالية (بواكر ، حوامض) يضعهم في موقع تبعي بالنسبة للامبريالية . وهذه الفئة من الملاك العقاريين الكبار شديدة التأثر بتقلبات السوق الامبريالية (27) فضلا عن كون ارتباطاتها تضفي على نشاطها الاقتصادي صبغة كمبرادورية ...

2 ـ 3 ـ ان البرجوازية الكمبرادورية المغربية تتكون أساسا ، وليس حصرا ، من الشرائح العليا للبرجوازية وتشمل في مجتمعنا المعاصر فئات مختلفة ترتبط بأهم القطاعات الاقتصادية : القطاعات المالية ، والمصرفية ، والصناعية ، والتجارية الخ ...

وتضم البرجوازية الكمبرادورية وكلاء وممثلي الشركات المتعددة الجنسية والشركات الامبريالية عموما ، والرأسماليين المغاربة المتخصصين في المقاولات الفرعية (28) ، ومن مدراء وأعضاء مجالس ادارة الشركات الامبريالية العالمية ببلادنا ومن الرأسماليين الذين يسيطرون على قطاع الايراد والتصدير ومن رجال الأعمال الذين يستثمرون في قطاعات الصناعة التحويلية والمعادن والصناعات التحويلية المختلفة ... وان مكونات هذه الطبقة الاجتماعية في نفس الوقت الذي تخضع فيه كلية للأمبريالية فانها تسيطر على المرافق الحيوية للاقتصاد الوطني .

2 ـ 4 ـ والبرجوازية الكمبرادورية طبقة اجتماعية « قزمية » ويشكل

ذلك أحد الأسباب الرئيسية التي تدفع البعض الى رفض اضفاء صفة الطبقة الاجتماعية على البرجوازية الكمبرادورية واعتبارها مجرد فئة ، ... وكان الأمر مشكل كمي (حجم الطبقة العددي) ولا يتعلق أساسا بالموقع الذي تحتله مجموعة من الناس في مسلسل الانتاج الاجتماعي ؛ انها ذات قاعدة اجتماعية محدودة (29) ، وبحكم طبيعتها الاحتكارية ، ونظرا للبنية الطبقية السائدة في مجتمعنا المعاصر ، فان البرجوازية الكمبرادورية لا تعرف نموا كميا يستحق الذكر . بيد أن انحصار توسعها الكمي لا يعني تقلص مصالحها الاقتصادية بل على العكس من ذلك ، ان البرجوازية الكمبرادورية تعرف ازدهارا نسبيا في ظل الأزمة العامة التي يعيشها المجتمع المغربي والتي تحمل وزرها الجماهير الكادحة نتيجة السياسة التي ينتهجها التحالف الطبقي السائد .

وان التأثير الذي تمارسه البرجوازية الكمبرادورية ـ انطلاقا من موازين القوى بين مختلف مكونات التحالف الطبقي السائد ـ على السياسات التي تطبقها الدولة يمكنها من السيطرة المطلقة على السوق الوطنية ومن اطلاق العنان لشرهها لنهب خيرات وجماهير الشعب المغربي . سيما وان قوانين المنافسة « الحرة » و « الشريفة » العزيزة على نفوس التعادليين الذين يحلمون بها في عصرنا ، منعدمة في مجتمعنا . وعلاوة على ذلك ان مقدراتها الاقتصادية ونفوذها السياسي يخول لها امكانية خلق شبكة واسعة من الزبائن (30) الذين ينتمون لطبقات اجتماعية أخرى والمرتبطين بها ايديولوجيا وسياسيا بل وحتى اقتصاديا (31) . ويشكل هؤلاء الزبائن الواقعين تحت هيمنة البرجوازية الكمبرادورية ، والذين يستفيدون استثنائيا من فتات موائدها ، احدى الدعائم الاجتماعية لسيطرة التحالف الطبقي السائد في مجتمعنا المعاصر ...

2 ـ 5 ـ ان تبعية البرجوازية الكمبرادورية وخضوعها للأمبريالية يحمل في طياته مجموعة من التناقضات ، ولا يلغي احتدامها وانفجارها بين الطرفين. غير ان احتدام هذه التناقضات رهين بتوفر شروط ملائمة على الصعيدين الداخلي والدولي . ومن أهم هذه الشروط قدرة البرجوازية الكمبرادورية على « لجم » التناقضات الاجتماعية ـ الطبقية الداخلية ، أي سيطرتها على الاوضاع وانعدام حركة اجتماعية تهدد سلطانها أولا ، وعلى الصعيد العالمي تعمق المشاكل التي تعاني منها الامبريالية وعدم توفرها على بدائل اجتماعية لسيطرة ركائزها الكمبرادورية أو انشغالها بقضايا تمس جوهر مصالحها العالمية تثنيها عن الاهتمام بقضايا « فرعية » تتعلق بسيطرتها الاقليمية ثانيا .

بيد ان هذه التناقضات تبقى دائما ثانوية باعتبار العدو الرئيسي المشترك لكل من الامبريالية والبرجوازية الكمبرادورية والمتمثل في الجماهير الشعبية؛ وفضلا عن ذلك فان هذه التناقضات، وبالرغم من ادعاءات الكمبرادور، لا تمس جوهر المصالح الاستراتيجية والاقتصادية للأمبريالية ؛ انها تناقضات

لا تضع محل تساؤل لا السيطرة والاستغلال الامبرياليين لبلدان « العالم الثالث » ولا القسمة الراسمالية للعمل على الصعيد العالمي ، هذه القسمة التي تحددها الامبريالية انطلاقا من مصالحها بالدرجة الاولى .

و « نضال » البرجوازية الكمبرادورية لا يستهدف سوى اعادة التفاوض ـ وفي ظروف يتعزز فيها جانبها ـ حول حصتها من فائض القيمة ومن الارباح الخيالية التي تجنيها الامبريالية ممثلة في الشركات المتعددة الجنسيات ، من استغلال ونهب خيرات وشعوب البلدان الخاضعة لسيطرتها : ان طموح البرجوازية الكمبرادورية « التحرري » لا يتعدى مضاعفة أرباحها علاوة على كونه يتناقض في جوهره مع حماية وصيانة المصالح الوطنية .

لكن البرجوازية الكمبرادورية لا تتردد ، ومن أجل بلوغ أهدافها « الأنانية » عن رفع شعارات « الوطنية والتحرر » و « استكمال الاستقلال الوطني » بل تذهب الى حد التشهير بجشع ونهب الامبريالية ! وكل ذلك قصد تضليل الجماهير الشعبية والبروز بمظهر المدافع الغيور عن « المصالح العليا للوطن » من جهة ، ولاضفاء طابع الشرعية وتبرير تصعيد استغلالها لشعوب بلدانها بـ « ضرورات » و « مستلزمات » النضال من أجل « التحرر »، ودعاوي ايديولوجية قد ينخدع بها البعض من جهة أخرى. وبالاضافة الى ذلك ، تحاول البرجوازية الكمبرادورية بدعايتها الوطنية والتحررية تعزيز مواقعها في التفاوض مع الامبريالية من أجل تقسيم غنائم النهب والاستغلال .

2 ـ 6 ـ وليست الضجة التي شهدها العالم في السنوات الأخيرة حول ما أسمي بـ « النظام الاقتصادي العالمي الجديد » وتسابق البرجوازيات الكمبرادورية السائدة في بلدان « العالم الثالث » ـ والمغرقة في الرجعية والعمالية للامبريالية ـ الى الرفع من أثمان المواد الأولية بل وحتى تصديرها لمصادر هذه المواد ودعوتها الى « التبادل المتكافىء » بين « الشمال والجنوب » الخ ... ليست تلك الضجة ضربة قاصمة وجهت للامبريالية ومن شأنها أن تقضي على هيمنتها واستغلالها لشعوب ومقدرات « العالم الثالث » كما تكهن بذلك البعض في بداية هذه الضجة .

ولئن كانت هذه التحولات ذات الأهمية البالغة ، لم تمس ، في اتجاهها الرئيسي ، جوهر المصالح الامبريالية ولم تؤد الى وضع حد للنهب والاستغلال الامبرياليين ، فليس من شأنها أن تحرر اقتصاديات الدول الخاضعة للسيطرة الامبريالية **ما دامت لا تعيد النظر في طبيعة العلاقات القائمة بين المراكز الامبريالية ودول « العالم الثالث »** . ان النتائج العملية التي أدت اليها هي : مراجعة أساليب وأشكال السيطرة الامبريالية والغاء مظاهرها الاكثر اجحافا بالنسبة للبرجوازية الكمبرادورية السائدة في البلدان الخاضعة للامبريالية ليس الا .

والحصيلة هي **ان التناقضات الطارئة وذات الطبيعة الثانوية** ، والتي تحتدم ظرفيا بين البرجوازية الكمبرادورية والامبريالية ، **تمتحور ، أساسا حول تحديد نصيب كل طرف من الارباح** التي يدرها نهب واستغلال خيرات وشعوب البلدان التابعة للامبريالية . وقد يكون موضوع هذه التناقضات أحيانا كيفية معالجة التناقضات الداخلية (مواجهة الحركة الجماهيرية ، تجميل وجه الأنظمة الديكتاتورية وأقامة مؤسسات ديموقراطية شكلية في اطار الحماية التبشيرية التي تقوم بها الامبريالية من أجل « حماية حقوق الانسان » الخ...) ان مجمل هذه التناقضات ـ بالرغم من أهميتها ـ **لا تغير من الطبيعة الطبقية للبرجوازية الكمبرادورية** ولا تحولها بقدرة قادر **من طبقة رجعية وعميلة الى طبقة تقدمية وطنية ومعادية للامبريالية** ، كما يذهب الى ذلك دعاة « نظرية العوالم الثلاثة » الذين يطمسون الصراعات الطبقية الداخلية ولا يترددون في مساندة لانظمة الاكثر رجعية بدعوى معاداتها للامبريالية « وتصديها لزحف » الاشتراكوامبريالية .

3 ـ في نشأة وتطور البرجوازية الكومبرادورية بالمغرب :

3 ـ 1 ـ خلافا لمايدعيه البعض من ان البرجوازية الكمبرادورية قد « تكونت في كنف العلاقات الرأسمالية التي أدخلها الاستعمار » (32) نعتبر أن هذه الطبقة الاجتماعية ليست وليدة فرض الحماية على بلادنا وزرع بذور نمط الانتاج الرأسمالي في مجتمعنا . والتأكيد على ان البرجوازية الكمبرادورية قد ارتبطت ولادتها بفرض الحل الاستعماري الجديد على بلادنا مسألة يفندها التاريخ الحديث والمعاصر للمغرب . ولئن كانت هذه الطروحات تنطلق من خلفيات سياسية وتحاول توظيف التاريخ ، أو بالأحرى اعادة كتابة التاريخ ، لتبيان ان البرجوازية الكمبرادورية كفئة أو كطبقة ليست لها أية جذور في بلادنا ؛ فان كل المعطيات التاريخية ، على علاتها ، تؤكد ، وبشكل لا يترك مجالا للشك **ان شكل البرجوازية الكمبرادورية قد تزامن وواكب البدايات الاولى للتغلغل الاجنبي ـ الاستعماري في بلادنا** . ان البرجوازية الكمبرادورية لم تبرز الى الوجود قبل فرض عقد الحماية على المغرب فحسب ، بل انها قد مهدت وعبدت الطريق لاستعمار البلاد من طرف فرنسا واسبانيا . بيد أن « أصالتها » التاريخية هذه لا تنفي البتة كونها كانت ، منذ ظهورها على خشبة تاريخ بلادنا ، طبقة عميلة للاستعمار تخدم وترعى مصالحه ضد أعلى مصلحة الوطن .

3 ـ 2 ـ لقد حاولت الدول الرأسمالية الاوروبية عموما وفرنسا وانجلترا واسبانيا بشكل خاص السيطرة على السوق المغربية منذ البدايات الاولى للقرن التاسع عشر ، سيما بعد احتلال القطر الجزائري من طرف فرنسا سنة 1830 . وذلك نظرا للموقع الاستراتيجي الهام الذي يحتله المغرب على بداية

بمضيق جبل طارق (33) أولا ، ومن أجل تصريف منتوجاتها المصنعة واستيراد المواد الاولية ثانيا . غير ان هذه الدول قد فشلت في تحقيق مآربها الاستعمارية نظرا لعداء الجماهير الشعبية لكل نفوذ أجنبي وتصديها لكل المحاولات الرامية الى اقامة مراكز تجارية (كنتوارات) أجنبية فوق التراب الوطني ، بل وحتى رفضها الاتفاقيات التي كان المخزن يتنازل بموجبها عن أجزاء من التراب الوطني لفائدة الدول الاجنبية (مناطق الريف وجبالة والجنوب ...) (34) من جهة ؛ كما ان الاحتكار الاقتصادي الذي كان يمارسه المخزن، وانفراده في بعض المراحل بالتجارة الخارجية بالاضافة الى تنافس الدول الاوروبية من أجل الهيمنة على المغرب من جهة ثانية ، كلها عوامل أدت الى تأجيل استعمار المغرب ...

3 ـ 3 ـ لكن بعد هزيمة عساكر المخزن من طرف فرنسا في معركة اسلي سنة 1844 وعقد اتفاقية « للا مغنية » المجحفة بالنسبة للمغرب (35) فضلا عن كونها غيرت من طبيعة العلاقات القائمة بين المخزن والدول الاوروبية ؛ وعلى اثر انكسار الجيوش المخزنية من جديد ، سنة 1960 ، أمام اسبانيا واحتلال هذه الاخيرة لمدينة تطون وفرضها تعويضا ماليا باهظا على خزينة المخزن (36)، ظهر بوضوح عجز المخزن عن التصدي للقوى الاجنبية التي تهدد استقلال البلاد ، وعدم قدرته على الصمود في وجه الضغوط والأطماع الاجنبية المدعمة « بسياسة الزوارق المسلحة » ...

لقد اضطر المخزن بعد هذه الكوارث العسكرية ، الى التخلي تدريجيا ووفقا لضغوط الدول الاستعمارية عن الاحتكار الذي كان يمارسه على صعيد التجارة الخارجية (37) أولا ، كما أنه رفع القيود التي كانت تعرقل نشاط الوكلاء التجاريين والسماسرة الاجانب ، وسهل اقامة مختلف البعثات الاجنبية فوق التراب الوطني مما فتح الباب على مصراعيه لتغلغل النفوذ الاوروبي ببلادنا ثانيا . وذهب المخزن الى حد استعمال فتاوي استصدرت في الماضي وكان الغرض منها اضفاء صبغة الحلال على هذا النشاط الاقتصادي « المسيحي » شريطة أن لا يتناقض مع حماية بلاد الاسلام (38) .

3 ـ 4 ـ لقد استغلت الدول الاستعمارية فرصة ضعف ووهن المخزن لفرض مجموعة من التنازلات ولكسب المزيد من الامتيازات لفائدتها وضدا على مصلحة المغرب وسيادته . وان الاتفاقيات غير المتكافئة التي عقدها المخزن مع الدول الاوروبية وخصوصا اتفاقيات 1856 و 1863 لتبين بجلاء حجم وأهمية الامتيازات ـ التي يشكل بعضها تخليا واضحا عن جزء من السيادة الوطنية ـ التي حصل عليها « الاوروبيون » ومدى تقهقر نفوذ وسلطة المخزن أمام تحديات الدول الاستعمارية .

وهكذا وفي اطار العمل على توسيع مصالحها وتوطيد نفوذها ، واعتمادا

على الاتفاقيات المبرمة مع المخزن ، **لم تعد الدول الاستعمارية تكتفي بالنشاط الاقتصادي الذي يقوم به مواطنوها لمقيمون بالمغرب ، بل التجأت الى وكلاء تجاريين وسماسرة من اصل مغربي** يسهرون على خدمة مصالحها الاقتصادية.. ولم لا أهدافها الاقتصادية ! .

ولئن فضلت الدول الاجنبية الاعتماد على هؤلاء المغاربة ، بدل الاكتفاء بالخدمات التي يقدمها لها مواطنوها ، فلاعتبارات اقتصادية وسياسية بذات الوقت . فعلى الصعيد الاقتصادي كان الوكلاء والسماسرة المغاربة أكثر دراية من الاجانب بالتقاليد الاقتصادية (في الملبس ، الأكل ...) للجماهير المغربية وعلى اطلاع كبير بالوضعية الاقتصادية لمجموع السوق الطونية ، وفضلا عن ذلك كانت لهم علاقات واسعة وارتباطات تجارية ممتدة في البلاد كانت تمكنهم من الاطلاع على الوضع الدقيق والحقيقي للأثمان والمحاصيل الزراعية في كل الأقاليم ؛ وكان بامكانهم التجول بحرية (39) في كل مناطق البلاد والتي كان أغلبها لا يزال محظورا على الجاليات الاجنبية لأسباب أمنية (40) ، وبالاضافة الى كل هذا كانت تكاليف تشغيل الوكلاء والسماسرة المغاربة زهيدة بالمقارنة مع تكاليف تشغيل الأجانب . اما على الصعيد السياسي ، فلقد كانت الدول الاستعمارية تؤمل في استعمال هؤلاء المغاربة المرتبطين بها اقتصاديا لبلوغ أهدافها السياسية في المغرب ، وحصل فعلا ما كانت الدول الاستعمارية تطمح اليه ، اذ أن الوكلاء والسماسرة المغاربة لم يكتفوا بالعمل على توسيع وتنمية المصالح الاقتصادية للدول التي يرتبطون بها ـ لأن مصلحتهم تكمن في ذلك حيث ان النسبة المؤية التي كانوا يتقاضونها مقابل خدماتهم ترتفع كلما ارتفعت قيمة المصالح التي يرعونها ـ بل كانوا يحاولون التأثير على القرارات السياسية التي يتخذها المخزن في اتجاه يخدم أغراض الدول التي يرتبطون بها ؛ ولقد اضطلعوا بدور « الدعاة » ليس فقط لبضائع الدول الاستعمارية وانما لاهدافها السياسية كذلك .

3 ـ 5 ـ وكان هؤلاء الوكلاء التجاريون والسماسرة المغاربة من البرجوازية اليهودية في بداية الأمر ، وكان المغاربة اليهود من المواطنين الأوائل الذين التجأوا الى الاحتماء بالدول الاجنبية بل وحتى التجنس (41) وأصبحوا بذلك لا يخضعون، عمليا، لسلطة المخزن الذي أصبح ملزما بمعاملتهم معاملة الأجانب ! .

ولقد شكل هؤلاء المغاربة اليهود الذين أصبحوا « وسطاء تجاريين » ضروريين « للمسلمين والاوروبيين » على حد سواء والذين كانوا « رجال أعمال المخزن والقواد » (42) ، والذين وضعوا أنفسهم في خدمة مصالح الدول الاستعمارية ، **النواة الاولى للبرجوازية الكمبرادورية ببلادنا** . وبرزت عائلات مغربية يهودية ، مثل كركوس ، وطوليدنو وأبيطبول وغيرها ، تخصصت في

قطاع التجارة (الأيراد والتصدير) وكانت تتمتع بحنكة تجارية عالية . ولم تقتصر البرجوازية المغربية اليهودية على القيام بذلك الدور ، بل عملت على « نشر عادات جديدة في الوسط المغربي : الشاي ، الشمع وقناديل الغاز ... » (43) ؛ وعملت على توسيع دائرة الاحتماء بالدول الاجنبية ، ولقد اضطلعت بهذا الدور عناصرها التي كانت تتكلف بالتمثيل القنصلي لبعض الدول مثل النمسا والبرتغال والولايات المتحدة الأمريكية . ومما زاد من تأثير هذه البرجوازية كونها كانت تحظى بثقة السلطان الذي كثيراً ما كان يكلفها بالسهر على مصالحه التجارية (تجار السلطان) ؛ وبحكم امكانياتها المالية كانت تستطيع التأثير على الأوساط المخزنية وعلى جميع مستوياتها .

لكن البرجوازية التجارية المغربية المسلمة ، وذات الأصل الفاسي أساسا ، سرعان ما سارت في ركاب مواطنيها اليهود ووضعت خبرتها التجارية وامكانياتها في خدمة المصالح الاستعمارية . وهكذا احتلت البرجوازية التجارية الفاسية ، التي لم تتردد هي كذلك ، في الاحتماء بالدول الاجنبية (44) موقعا بارزا في صفوف البرجوازية الكمبرادورية الناشئة .

3 ـ 6 ـ ولقد صاحب التغلغل الاقتصادي الاوروبي بداية تحويل مراكز ومحاور التجارة المغربية من المدن الداخلية ومن المحور الاساسي تافيلالت ـ طنجة ، الى المدن الواقعة على الساحل الاطلسي . واذا كان هذا التحول وضرب المراكز والمحاور التقليدية للتجارة ببلادنا سيتعمق مع سيطرة الامبريالية الفرنسية والاسبانية على بلادنا (45) ، فانه يشكل احد مؤشرات الحاق الاقتصاد الوطني بالسوق الامبريالية . وهكذا ، أصبحت مدن طنجة والعرائش والرباط وانفا الدار البيضاء وآسفي والصويرة بالخصوص وكذا فاس ومراكش وتطوان (46) تشكل محور النشاط الاقتصادي لهؤلاء السماسرة ومراكز تواجدهم . وكان الوكلاء والسماسرة في اتصال دائم مع مستخدميهم في طنجة ، التي كانت العاصمة الدبلوماسية للمغرب آنذاك ، ومنها كانت العلاقات تربط مع جبل طارق ومرسيليا ومنشستير ولندن وجينوفا وغيرها من العواصم التجارية الأوروبية . **اما النشاط التجاري لهؤلاء الوكلاء التجاريين** ، الذين أصبحوا وسيطا ضروريا بين الشركات الأجنبية والسوق الوطنية ، والذين شكلوا « بسرعة حاجزا بين التجمعات الاوروبية الصغيرة في الساحل والجماهير المغربية في الداخل » (47) ، والذين كونوا « طبقة اجتماعية جديدة ، طبقة من الوسطاء » (48) هي البرجوازية الكمبرادورية : **فقد كان يقتصر على القيام بدور الوساطة** بين الدول الاجنبية ، ممثلة في الشركات وبين السوق الوطنية . ويتلخص هذا الدور في :

أ ـ شراء المواد الأولية التي تحتاجها الاسواق الاوروبية وتجميعها في موانىء التصدير وذلك حسب متطلبات هذه الأسواق . ومن بين هذه المواد :

الصوف والجلود وزيت الزيتون والحبوب والأبقار بل وحتى القطن والقطنيات (49) . ومنذ ذلك الحين كان هؤلاء الوكلاء يحاولون توجيه الانتاج الزراعي حسب احتياجات الأسواق والصناعات الاوروبية .

ب ـ استقبال المواد التي تصدرها الدول الاوروبية الى المغرب مثل السكر والشاي والقهوة والاقمشة القطنية والحديد والصلب ومنتوجات مصنعة اخرى ، والسهر على توزيع وبيع هذه المواد في السوق الوطنيــة ... (50) ، ولقد أقامت البرجوازية الكمبرادورية الناشئة شبكة اقتصادية واسعة تمتد خيوطها لكل المناطق المغربية ، والفلاحية منها بشكل خاص ، وكانت هذه الشبكة مكلفة بالسهر على شراء المواد الفلاحية وعلى بيع المواد المستوردة .

ولئن كان الممسكون بخيوط هذه الشبكات التجارية يرعون المصالح التجارية للأجانب فانهم كانوا يستفيدون من فتات الارباح الهائلة التي كان الرأسماليون الأجانب يجنونها من هذا النشاط والمتميز بتبادل غير متكافىء ، بحكم التفاوت الكبير في التطور بين التشكيلة الاجتماعية المغربية الما قبل رأسمالية والمجتمعات الاوروبية السائرة في التحول الى تشكيلات اجتماعية امبريــاليــة ...

3 ـ 7 ـ لقد أدرك ميبيج لب مسألة الحماية حيث قال ان : « **الحمايــة** ، كما نظمتها اتفاقية 1863 ، **قد شكلت حجر زاوية المؤسســات الأوروبية** (...) **وتاريخها يوضح ... مشاكل انتشار المصالح الأوروبية** وتغييــر البنيــات القديمة للبلد ... » (51) . واذا كانت الحماية تشكل خرقــا سافـرا للسيــادة الوطنية يتمثل في عدم خضوع المحميين للمخزن وفي اعفائهم عمليا ، من أداء الضرائب وفي تبعيتهم لامحاكم القنصلية ، فان انتشارها الواسع قد صاحب تقهقر سلطة المخزن وتزامن مع الاضطرابات الاجتماعية التي كـان المغرب يعيشهــا .

ولئن كان « من الصعب تحديد عدد المحميين بدقة » (52) فذلك « راجع الى كون اللوائح الرسمية لا تسجل الا الحمايات الرسمية وهي قلة (53) ، في حين ان « حصة المحميين غير الرسميين المغاربة ضخمة » (54) . وان وجود نوعان من الحماية : حماية رسمية وحماية غير رسمية ليس وليد الصدفة ، اذ كانت الأولى تقتصر ، أساسا وليس حصرا ، على العناصر البرجوازية بينما تشمل الثانية فئات غير برجوازية من الشعب المغربي . وفضلا عن ذلك « كان المحميون يمنحون حمايتهم للمغاربة الذين يدخلون معهم في علاقات اعمال » (55) ويؤكد ميبيج ان بعض « رعاة الغنم والشركاء الفلاحيين كانوا يسمحون لأنفسهم بحماية « دواوير بكاملها » من الباطن » (56) . وكانت « هذه الحمايــة مـن الدرجة الثانية أو الثالثة تتبين جد ناجعة . اذ ان السلطات المغربية كثيرا ما كانت تتردد في الاقدام على متابعة الأشخاص الذين يتمتعون بها خوفا من ردود

الفعل العنيفة للقناصل الاوروبيين » (57) .

وكانت الدول الاوروبية لا تقتصر على حماية الشخص المرتبط بها وانما تشمل بحمايتها كل أفراد عائلته « حتى تضمن حرمة منزله » ؛ أما ممثلوا هذه الدول فقد اعتبروا « أنهم بمضاعفة عدد محمييهم سيضاعفون من نفوذهم في المغرب » (58) . وعلاوة على ذلك كانت الصراعات السياسية القائمه بين الدول الاستعمارية الاوروبية وتسابقها من أجل الفوز بالسيطرة على بلادنا تؤثر على وضعية الحماية ؛ وهكذا فان « التنافس الحاد بين السياسات الانجليزية والاسبانية بالمغرب بين 1860 و 1868 سيصاحبه سباق حقيقي في ميدان الحماية » (59) . ويعتبر مييج أن « ملف تعسفات الحماية لا يحصر عمليا (...) (ان الحماية) وسيلة ناجعة لعدم تأدية الضرائب وللافلات من نزع الملكية والمصادرات » (60) . وكان بعض الأوروبيين ، بما فيهم الممثلون الرسميون لبعض الدول الاوروبية ، لا يترددون في المتاجرة في شهادات الحماية (البصبور) وأقيمت « في بعض الموانىء ابتداء من 1865 ــ 1866 ، سوق حقيقية للحماية حسب التأثير المحتمل لهذا القنصل أو ذاك » (61) .

واذا كان ضعف المخزن يفسر ، جزئيا ، فرض اتفاقيات الحماية على المغرب ، فان هذا الوهن المخزني غير كاف لتفسير ظاهرة انتشار الاحتماء بالاجانب الى حد شمولها « ادواوير بكاملها » . ونميل الى اعتبار أن ضعف المخزن واحتياجه المتزايد الى المال الضروري لتسديد غروضه والاستجابة لمطالب الدول الاستعمارية ومحمييها قد ترتب عنه تصعيد استغلال الجماهير الشعبية في المدن والبوادي واثقال كاهلها بالضرائب . ولقد صاحب ذلك تصعيد عسف المخزن وبطشه بالمواطنين. (62)

لذا نعتبر ان التجاء بعض الفئات المحدودة من جماهير الشعب المغربي ــ ونستثني منها البرجوازية الكمبرادورية التي وضعت نفسها ، وبكل وعي ، في خدمة الاستعمار ــ الى لاحتماء بالاجانب ، لا يعود الى انحرافها أو ضعف حسها الوطني وانما مرده الى بطش وتعسفات المخزن وقواده في البوادي بشكل خاص . (63) وبديهي ان الفئات الشعبية التي اضطرت الى طلب حماية الاجنبي لتتقي شر ظلم المخزن ، لا تتشكل جزءا من البرجوازية الكمبرادورية . (64)

بيد ان هذا لا ينفي ان موقف عموم جماهير الشعب المغربي كان واضحا من الاحتماء بالاجنبي ومن المحميين : انه موقف رفض الحماية وادانة المحميين. وكان المحميون يثيرون اشمئزاز وتهكم الجماهير الشعبية التي كانت تعتبرهم عملاء للاستعمار وكفرة .

اما موقف العلماء من الحماية والمحميين فلقد كان يلتقي مع مواقف الرفض والاستنكار التي عبرت عنها الجماهير الشعبية . ويؤكد محمد المنوني :

« أن مقاومة هذه الحمايات كان موقفا اجماعيا من طرف علماء المغرب . وقد حملوا راية معارضتها بروح اسلامية قوية وحمية وطنية مثالية » (65) . ولقد عارض العلماء المغاربة الحماية «بالتأليف وبواسطة الخطب الجمعية» (66) وفي هذا الاطار ألف أبو حامد الحاج العربي علي المشرفي الحسني المعسكري ثم الفاسي » في الموضوع عجالة اسماها « الرسالة في أهل البصبور والحثالة » قال في اولها : الحمد لله ، وبعد ، فقد توجه سؤال لاهل العلم حفظهم الله بحفظ أهل السنة وحشرنا في زمرتهم آمين ، عن حادثة حدثت في قرننا هذا في حدود السبعين والمائتين والألف ، وهي دخول المسلمين تحت كلمة الكفر ـ أعاذنا الله منه ـ ويعبرون عنها بالحماية ، معتذرين بها عن تحصين ما لهم من ثقل المغارم ، مع أنهم يجعلون حظا وافرا لمن يحميهم باذلال وطيب نفس ، فهل يكون المحتمي بالحماية على هذه الحالة مسلما عاصيا ، أو خرج على دينه بالكلية ، وللامام أن يحكم فيه باجتهاده ؟ » (67) . كما أن لابي الحسن علان بن عبد الله الفاسي الفهري « عدة خطب ضد أصحاب الحمايات ، أشهر الخطبة المعنونة بـ « ايقاظ السكارى ، المحتمين بالنصارى » أو « الويل والثبور ، لمن احتمى بالبصور » خطب بها بمحضر السلطان المولى الحسن الأول في ابتداء دولته » ... (68) ، وألف محمد جعفر بن ادريس الكتاني الحسني « الدواهي المدهية ، للفرق المحمية » وذلك « جوابا على سؤال في الموضوع ، وبناه على خمس عشرة آية قرآنية ناطقة بتحريم موالاة الكفار والاحتماء بهم » (69) . ويقول الكتاني في مؤلفه : « ومن خالف الآن هذا التحريم (تحريم الاحتماء بالاجنبي) أو رام الخلاف ، فهو مارق من الدين ، ومنخرط في سلك الملحدين ، ومخالف لجماعة المسلمين ، ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم أبد الأبديين » (70)

ولئن كان انتشار الحماية ومغالاة المحميين تنعكس سلبا على المخزن ، فلكونها : « تنسف سلطة المخزن وتمس موارده . ان المغاربة الأكثر غنى لا يخضعون لمراقبة ضرائبه » (71) . وكانت سلطة المخزن وهيبته تداس يوميا من طرف المسيحيين الذين لم تعد مطالبهم تعرف حدودا . وقد صور السلطان الحسن الاول هذه الحالة أصدق تصوير لما قال للنائب محمد بركاش : « ان ادارتنا تكاد لا تجد في البلاد من هو باق تحت سلطانها ، من كثرة ما فتحته الدول الأجنبية من حمايات غير مشروعة » (72) . واذا كان استياء المخزن من الحماية كبيرا ، لأسباب اقتصادية وسياسية ، فان مقاومته لهذه الظاهرة قد بقيت ضعيفة ولم تتجاوز أبدا حد الاحتجاج ضد مبالغات المحميين وبعض حماتهم وليس ضد جوهر مسألة الحماية مع الانصياع لمطالب المحميين ... ! (73) .

لكن النتائج الاجتماعية والسياسية الوخيمة الحماية لا تقف عند هذا الحد حيث انه « من خلال الصراعات بين القبائل ... ، يلمس أحيانا تناقض

مصالح التجارة الأوروبية ، وهكذا فان ا لتنافس الكبير ، من أجل شراء الصوف، بين فريو وفرابيي ؛ ويعمل أحدهم في أراضي مديونة وأولاد حريز والآخر في زناتة وزيايدة ؛ ليس غريبا عن العداوة القائمه بين هذه القبائل . وكذلك الأمر بين أولاد حريز والمداكرة حيث يتصارع رعاة القطعان الانجليزية والفرنسية » (74) . وليس من الغريب في شيء أن تتذرع الدول الاستعمارية التي كانت تطمح الى الهيمنة على بلادنا ، وخصوصا الامبريالية الفرنسية ، « بالفوضى » والقلاقل الاجتماعية التي يعيشها المغرب ، والتي ساهمت الدول الاستعمارية في اثارتها ، لتطالب « بحقها » في استعمار المغرب من أجل احلال « الأمن » و « نشر الحضارة » (75) .

والحصيلة الثابتة هي ان البرجوازية الكمبرادورية الناشئة هي التي كانت المستفيد ، بمعية الدول الاستعمارية طبعا ، من ظهور انتشار ظاهرة الاحتماء بالاجنبي . ويورد مييج مراسلة قنصلية تقول : « ان بطاقات الحماية التي نسامها للأهليين ، وهم من الأغنياء في غالبيتهم ، الذين يسدون لنا بعض الخدمات ويستفيدون بشكل كبير من الدعم الذي نمدهم به » ، وتضيف المراسلة « ان الأهليين المرتبطين مباشرة بخدمة التجار (الاجانب) ... هم وحدهم الذين يعرفون الازدهار » (76) . وكانت كل فئة من فئات البرجوازيات الكمبرادورية تحاول التأثير على السياسة المخزنية ، في اتجاه يخدم مصالح الدولة التي ترتبط بها ومن أجل الحصول على المزيد من الامتيازات الاقتصادية والسياسية لفائدتها . وان التاريخ الحديث لبلادنا لخير شاهد على الصراعات الحادة التي جرت بين أنصار فرنسا وأنصار انجلترا من اجل توطيد سيطرة احدى الدولتين على المغرب .

ولئن كانت حماية موظفي المخزن ممنوعة قانونا ، فان بعض الكمبرادوريين كانوا يحتلون مواقع مرموقة داخل أجهزة المخزن مثل ابن دريس ، وبوسلهام وبن عبود الذين كانوا من كبار موظفي المخزن المساندين للنفوذ الفرنسي ، ومن الثابت كذلك ان السفير المغربي عبد القادر العشاش ، والذي كان يحظى بثقة المولى عبد الرحمان ، كان يعمل من أجل تدعيم النفوذ الفرنسي ببلادنا (77) وبديهي ان تواجد عناصر كمبرادورية في أعلى مناصب الدولة المخزنية لم يبق دون التأثير على السياسات التي كان المخزن ينتهجها..

3 ــ 3 ــ ويمكن اعتبار ان من الاسباب الأساسية لظهور البرجوازية الكمبرادورية هذه الطبقة الاجتماعية الطفيلية والخادم الأمين لمصالح الدول الاستعمارية :

أ ــ التوسع الاستعماري الاوروبي الذي جاء نتيجة تناقضات وتطور نمط الانتاج الرأسمالي والحاجة الماسة لهذه البلدان الى أسواق تصريف منتوجاتها الصناعية والى مصادر لاستيراد المواد الاولية الضرورية لصناعتها.

ب ـ ضعف الدولة المركزية المخزنية وعجزها ، بحكم طبيعتها الطبقية الاقطاعية عن التصدي للتغلغل الاقتصادي الاستعماري وعن حماية السوق الوطنية وتواطؤ بعض شرائح الطبقة السائدة آنذاك مع الدول الاستعمارية .

ج ـ ضعف البرجوازية التجارية المغربية وعدم قدرتها على الصمود أمام منافسة البرجوازية الاوروبية . وقد عمق احتلال القطر الجزائري وبعض أقطار افريقيا السوداء الازمة التي كانت « برجوازيتنا » التجارية تعيشها منذ تدهور محاور التجارة الصحراوية . ولم يكن من شأن الاحتكار الاقتصادي الذي كان السلطان وحاشيته يمارسونه ان يخفف من حدة أزمة البرجوازية التجارية التي ستتشكل بعض شرائحها الأنوية الاولى والاساسية للبرجوازية الكمبرادورية ببلادنا .

د ـ عدم التكافؤ بين تطور المجتمع المغربي والمجتمعات الاوروبية وانعكاس ذلك في العلاقات بين المغرب والدول الاوروبية في جميع المجالات ، وعلى الصعيد الاقتصادي بشكل خاص .

وقد ساهمت البرجوازية الكمبرادورية ليس فقط في التغلغل التجاري الامبريالي ببلادنا ، وانما كذلك في افساح المجال للأجانب للسيطرة على أجود الاراضي وأخصبها . وتمت تلك السيطرة عن طريق عقد « شركات » معهم ما دام شراء الاراضي المغربية ممنوعا على الأجانب ؛ وان « الشركة » التي عقدها عبد السلام شريف وزان مع أحد التجار الفرنسيين لخير شاهد على ذلك (78) وكانت هذه الأراضي تخصص لتربية المواشي أو لزراعة المنتوجات التي تحتاجها الأسواق الاوروبية . لكن هذه الظاهرة لم تعرف انتشارا كبيرا قبل عقد الحماية سنة 1912 ، ولقد ألغت هذه الأخيرة أسباب وجود هذه الظاهرة اذ أصبح من حق الأجانب التصرف في كل أنواع الاراضي المغربية ... وسلب المستعمرون ما طاب لهم من أراضي زراعية ومراعي .

ان البرجوازية الكمبرادورية قد مهدت للسيطرة الاقتصادية الامبريالية على السوق الوطنية ـ وشكلت الاداة والمرتكز الطبقي لهذه السيطرة ـ كمقدمة للهيمنة المطلقة للامبريالية على بلادنا . ومن المؤكد ان البرجوازية الكمبرادورية ، التي نمت وترعرعت في أحضان الامبريالية ، وأساسا ، الشرائح العليا من البرجوازية التجارية التي وقعت كمبردرتها خلال النصف الثاني من القرن 19 والتي كانت مرتبطة بالامبريالية الفرنسية ؛ قد اضطلعت بدور بارز في المسلسل الاقتصادي والسياسي الذي أدى الى فرض اتفاقية الحماية سنة 1912 (79) التي فتحت الباب على مصراعيه للهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية للبرجوازية الامبريالية الفرنسية على بلادنا .

3 ـ 9 ـ غير ان مرحلة الاستعمار المباشر ، وخصوصا بعد القضاء على المقاومة المسلحة للجماهير الريفية (80) ، لم تشكل مرحلة ازدهار وتوسع

اقتصادي هام بالنسبة لكل فئات البرجوازية الكمبرادورية . ذلك ان سيطرة الامبريالية على الارض والعباد في بلادنا قد أتاحت الفرصة للبرجوازية الفرنسية للسهر بشكل مباشر على مصالحها الاقتصادية وأهدافها السياسية . ولقد عبر موران عن رغبة البرجوازية الفرنسية في عدم البقاء سجينة الخدمات التي تقدمها البرجوازية الكمبرادورية بقوله : « سيكون من الخطأ الفادح الاعتماد أكثر من اللازم على تأثير الطبقة البرجوازية العليا لكسب عطف الشعب من الضروري دائما وفي كل مكان السيطرة عليها والحلول محلها ... » (81) وان المساعدات والامتيازات التي كانت الاقامة العامة تمنحها للبرجوازية الفرنسية (قروض ، اعفاء من بعض الضرائب والرسوم الجمركية ، تسهيلات للايراد والتصدير ...) وجعلها (أي الاقامة العامة) السوق المغربية ، بالرغم من اتفاقية الجزيرة الخضراء التي أقرت سياسة « الباب المفتوح » حكرا على البرجوازية والرأسمال الفرنسيين : ان كل هذه العوامل قد جعلت البرجوازية الفرنسية تستغني عن جزء هام من الخدمات التي كانت من اختصاص البرجوازية الكمبرادورية ببلادنا .

وهكذا فان هيمنة البرجوازية الامبريالية الفرنسية على كل فروع النشاط الاقتصادي (82) بما فيها الانشطة التجارية ، التي كانت مركز نشاط البرجوازية الكمبرادورية ، وفتح وكالات تجارية تابعة للشركات التجارية الفرنسية (مونوبري ، كاليري لافاييط) (83) . قد أدى الى تقليص النشاط الاقتصادي للكمبرادوريين . لكن البرجوازية الامبريالية الفرنسية لم تستغن كلية عن خدمات العناصر الكمبرادورية التي شكلت بوقا دعائيا للسياسة الاستعمارية وعاملا لنشر بعض مظاهر الحضارة الامبريالية : ان البرجوازية الكمبرادورية لم تتخل عن الاضطلاع بدورها « الطبيعي » ، دور العمالة للاستعمار ... مقابل التسهيلات والامتيازات الاقتصادية الهزيلة التي كانت الاقامة العامة تنعم بها عليها .

بيد ان البرجوازية الكمبرادورية قد عرفت بعض الانتعاش الاقتصادي خلال الحرب العالمية الثانية حيث تمكنت هذه الطبقة الاجتماعية من تحقيق أرباح خيالية بفضل عملياتها التجارية في السوق السوداء مستفيدة في ذلك من تفهم بل وحماية مصالح الاقامة العامة التي كانت تعول عليها لاستمرار ولاء المغاربة ، في المدن ، للدولة الحامية (84) .

وحاولت الامبريالية الفرنسية غداة الحرب العالمية الثانية ، اشراك بعض الرأسماليين المغاربة (الكمبرادوريين) في بعض المشاريع الاقتصادية. وكانت مشاريع الاصلاحات الاقتصادية التي تقدم بها المقيم العام اريك لابون تصب في نفس الاتجاه وتحاول توطيد الركائز الاقتصادية للوجود الفرنسي بالمغرب تحسبا لتطورات المستقبل غير ان استفادة البرجوازية الكمبرادورية

من هذه المشاريع الاقتصادية ـ السياسية بقيت جد محدودة بسبب عداء المعمرين الفرنسيين لكل اصلاح وحرصهم على احتكار كل الانشطة الاقتصادية المربحة . وان الحركة الوطنية التي كانت قد تجاوزت مرحلة المطالبة بالاصلاحات في اطار الحماية ورفعت شعار المطالبة بالاستقلا قد ساهمت في افشال هذه المشاريع الاصلاحية وذات الطابع الليبرالي في مظهرها والاستعمارية في جوهرها .

وبموازاة سياسة الاقامة العامة كان « رجال الاعمال الفرنسيون أو الاوروبيون أو الامريكيون الذين يشتركون مع مغربي أو عدة مغاربة يخضعون لنفس الانشغال وهو تأمين المستقبل » (85) . ويورد أندري آدم في مؤلفه حول الدار البيضاء لائحة مجموعة من الشركات التي انشأها الاوروبيون مع المغاربة كما يشير الى وجود بعض المغاربة في مجالس ادارة عدد من الشركات الاجنبية (المقري ، الجلاوي ...) وهكذا كانت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية مرحلة انتعاش اقتصادي جزئي بالنسبة للبرجوازية الكمبرادورية ببلادنا ...

لكن ، كيف تعاملت البرجوازية الكمبرادورية مع مختلف أجنحة الحركة الوطنية ؟ وما هي التطورات التي عرفتها هذه الطبقة الاجتماعية بعد رحيل الاستعمار المباشر عن بلادنا ؟ .

الهوامش :

(1) اننا لا نلغي امكانية وجود هذه الرغبة ، غير انها تبقى ثانوية ما دام العامل الاساسي في تفسير الاحداث السياسية ، مهما كانت طبيعتها ، ليس هو الفكر ورغبات الاشخاص ـ ولو كانوا زعماء ـ وانما المصالح الطبقية التي تحرك هؤلاء الاشخاص انفسهم والظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية التي تجري فيها الصراعات الطبقية المحددة تاريخيا ، والتي ـ ينخرط فيها الاشخاص : هنا زعماء الاحزاب المعبرين عن مصالح طبقة او فئة طبقية معينة .

(2) نفكر بالاساس في كتابات الاساتذة : المالكي ، ولعلو ...

(3) ان هذه « التنظيرات » اليسارية في مظهرها ، يصاحبها في الغالب نهج سياسات مغرقة في اليمينية ، ولنا في التاريخ المعاصر لبلادنا اكثر من مثال على ذلك .

(4) في بعض المراحل التاريخية تكون هناك عدة طبقات اجتماعية « تتقاسم » السيادة داخل المجتمع وتمارس ديكتاتوريتها على باقي الطبقات الاجتماعية الاخرى . بيد ان ذلك لا ينفي بل يستلزم دائما هيمنة احدى هذه الطبقات السائدة داخل التحالف الطبقي السائد ، كما هو شأن البروليتاريا في مرحلة « الديموقراطية الجديدة » : انها الطبقة المهيمنة في اطار التحالف الشعبي ـ بمعناه التاريخي ـ السائد .

(5) ان النموذج المضحك ـ المبكي للتعامل الدغمائي مع تجارب الشعوب الثورية نجده في تعامل بعض « الماركسيين » مع تراث الثورة الصينية وفي اسقاط تحاليل ماوتسي تونغ على واقع مجتمعنا : والامثلة لا تحصى في هذا المجال .

(6) « ... من هم اعداؤنا ؟ ومن هم اصدقاؤنا ؟ هذه المسألة في الدرجة الاولى من الاهمية بالنسبة لنا . والسبب الاساسي في ان جميع النضالات الثورية الماضية لم تحقق الا نجاحات ضئيلة جدا ، يعود الى ان الذين قاموا بتلك النضالات لم يستطيعوا الاتحاد مع الاصدقاء الحقيقيين ليهاجموا الاعداء الحقيقيين ... » :

(« تحليل لطبقات المجتمع الصيني » مارس 1926 ص 10 الجزء الاول من المؤلفات المختارة لماوتسي تونغ ـ بكين 1951) .

(7) يتعلق الامر بتحالف بعض القوى التقدمية ، غداة رحيل الاستعمار ، مع القوى الاكثر رجعية لتصفية المقاومة وجيش التحرير التي كانت تقض مضجع الاستعمار وعملائه ببلادنا . وما كان ليتسنى لهؤلاء القضاء على المقاومة وجيش التحرير لولا الخدمات الجليلة التي قدمها لهم « حلفاء » المقاومة وجيش التحرير ... وان عملية تجميل وجه تاريخ ـ حاضر بعض القوى السياسية لا يغير من الواقع شيئا ما دامت الوقائع « جحودة » : ان اعادة كتابة تاريخ المقاومة وجيش التحرير ومحاولة الاستئثار بتراثها النضالي **لا يمكنها ان تمحو** بجرة قلم الاخطاء التي ارتكبتها الحركة التقدمية ببلادنا في نهاية عقد الخمسينات . وبديهي ان الاسهام في تصفية المقاومة وجيش التحرير قد عجل بحسم مسألة السلطة لصالح القوى الاكثر رجعية وتبعية للاستعمار من جهة ، كما انه عجل بتصفية الجناح التقدمي للحركة الوطنية من الحكومة في نفس الوقت الذي تركه اعزلا وعاجزا عن التصدي للقمع الذي أطلق عنانه التحالف الطبقي السائد : ان الهجوم المكثف للرجعية على القوى التقدمية في مطلع الستينات يجد جزئيا تفسيره هنا ، من جهة أخرى.

وعلاوة على ذلك ان تغليب التناقض الثانوي على التناقض الرئيسي واعتبار بعض القوى البرجوازية التقدمية بمثابة العدو الرئيسي انحراف لا يخلو من مخاطر بالنسبة للحركة التقدمية ، والتاريخ المعاصر لبلادنا خير شاهد على ذلك ... ان الصراع الايديولوجي والسياسي شيء واعتبار **الخصم** السياسي ، الذي يمكنه ان يكون حليفا في بعض المراحل ، عدوا رئيسيا ... شيء آخر .

(8) « ان الطبقة التي تشكل القوة **المادية** السائدة في المجتمع هي كذلك القوة السائدة **روحيا** . والطبقة التي تتصرف في وسائل الانتاج المادي تتصرف ، بذات الوقت ، في وسائل الانتاج الفكري » (**كارل ماركس** ، **فريدريك انجلس** : الايديولوجية الالمانية ـ الجزء الاول حول فيورباخ ص 75 ، المنشورات الاجتماعية . باريس 1968) . التشديدات من عند المؤلفين .

(9) ان المجال لا يتسع لطرق هذا الموضوع الهام ، ونكتفي بالاشارة الى ان البرجوازية في بلادناتنقسم الى ثلاث طبقات : البرجوازية الكبرى ، الكمبرادورية في اتجاهها الرئيسي ،

والبرجوازية المتوسطة ، التي ليست وطنية في كل المراحل التاريخية ، والبرجوازية الصغيرة .

(10) ان المرحلة الامبريالية تتميز ، منذ بدايتها ، بتداخل الرساميل وتدويلها ؛ انظر : لنين « الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية » فصل : الابناك ودورها الجديد . ص 42 – 72 ، المنشورات الاجتماعية ، باريس ، وكرستيان بالوى : « الاقتصاد العالمي والشركات المتعددة الجنسيات » . نشر ماسبيرو – باريس 1975 .

(11) بالرغم من كوننا لسنا بصدد تحديد البرجوازية الوطنية نورد ، لاهميته ، ما قاله فرنسيس دوشاسي في الموضوع : « لا يمكن تحديد البرجوازية الوطنية دون الرجوع الى المقاييس السياسية والايديولوجية لتحديدها البنيوي كطبقة (...) ان البرجوازية الوطنية لا يمكن ادراكها كراسمال « محلي » جذريا عن الراسمال الامبريالي « الاجنبي » وبالرجوع فقط الى التناقضات الاقتصادية التي تفصلها عنه » (موريطانيا 1900 – 1975 . ص 65 منشورات انتروبوس . باريس 1978) .

(12) راجع الندوة الصحفية التي عقدها احمد عصمان الوزير الاول آنذاك بتاريخ 14 ماي 1973 والتي ورد فيها على الخصوص : « ... بهذا التقنين يدشن المغرب مرحلة جديدة ، مرحلة هامة من تاريخه الاقتصادي والاجتماعي لان (...) عددا من قطاعات النشاط (الاقتصادي) ستفتح لمـواطنينـا » .

(13) انظر افتتاحيات جريدتي « العلم » و « الرأي » خلال الشهور التي جرت فيها عمليات المغربة ، وتعبر عن انتقاد حزب الاستقلال وتبرمه من الكيفية التي تمت بها المغربة والتي لم يستفد منها الا « المحظوظون » و « ذووا النفوذ » ... بمعنى انها لم تتم بشكل تعادلي ! .

(14) بعض المحلات التجارية والمقاهي والحانات أساسا .

(15) نور الدين العوفي : « المغربة وتطور البرجوازية » ص 295 (اطروحة لنيل دبلـوم الدراسات العليا ، كلية الحقوق . بالرباط . ماي 1979 – غير منشورة)

(16) يدعي البعض ان المفهوم الاصلي الكمبرادوري هو الوكيل التجاري أو الـوسيط ، وبما ان وظيفة الطبقة التي كانت تضطلع بهذه المهمة (الوساطة التجارية) في بداية التغلغل الاستعماري قد تغيرت . فان مفهوم البرجوازية الكمبرادورية لم يعد صالحا : لقـد « تجـاوزه » الواقع ! . ونعتبر من جهتنا ان هذا المنطق التبسيطي لا ينفذ الى جوهر طبيعة البرجوازيـة الكمبرادورية وانما يكتفي بالظواهر السطحية : ان جوهر طبيعة البرجوازية الكمبرادورية هـو كونها تخدم مصالح الامبريالية وان وجودها رهين ومرتبط بخدمة هذه المصالح ؛ اما الشكـل الذي تتخذه هذه الخدمة والارتباط فقابل للتغيير حسب الظروف التاريخية ، فضلا عن كونه – أي الشل – ثانوي .

وان اعمال المنطق الاول قد يؤدي في نهاية المطاف الى التخلي (تجاوز) عن مجموع مفاهيم المادية التاريخية ما دام الواقع قد تغير ... وهكذا يعتبر اصحاب هذا « المنطق » ان مفهوم البروليتاريا قد « أكل عليه الدهر وشرب » ولم يبق له من معنى ما دامت مميزات بروليتاريا نهاية القرن العشرين ليست هي مميزات بروليتاريا القرن التاسع عشر . صحيح ان تغيرات هامة قد طرات على بنية البروليتاريا ، لكن ما يفوت اصحاب « التجاوز » هو ان البروليتاريـا لا زالت تضطلع بنفس الدور في مسلسل الانتاج الاجتماعي وانها لم تفقد أيا من محدداتها الاساسية : الانفصال عن ملكية وسائل الانتاج بيع قوة وانتاج فائض لقيمة ...

(17) جان لويس مييج : « المغرب واوروبا » – 1830 – 1894 – الجزء الثاني ص 560 . المنشورات الجامعية لفرنسا ، باريس 1961 .

(18) « ان التمييز بين البرجوازية الكمبرادورية والبرجوازية الوطنية لا يطابق (...) التمييز بين الراسمال الاحتكاري (الراسمال الكبير) والراسمال الغير احتكاري (المتوسط) يمكن ايجاد احتكارات كبرى تعمل كبرجوازيات وطنية وقطاعات من الراسمال المتوسط تابعة كلية للراسمال الاجنبي » . (نيكوس بولانزاس : الطبقا تالاجتماعية في راسمالية اليوم ص 70. منشورات لوسوي . باريس) . واذا كانت البرجوازية الكبرى ، عموما ، ذات طبيعة كمبرادورية في الدول التابعة للامبريالية ، فمن الخطا اقامة علاقة ميكانيكية بين حجم الراسمال وبين طبيعته : برجوازيه كبرى كمبرادورية وبرجوازية متوسطة وطنية . ان هذا الفهم الميكانيكي قد يؤدي الى نتائج سياسية لا تخلو من متاهات .

(19) ان المجالات المفضلة لتوظيف الرساميل الكمبرادورية هي ، اساسا ، الصناعات التحويلية والصناعات الخفيفة وقطاع الخدمات والتجارة الداخلية والخارجية والسياحة والعقارات بمختلف انواعها ...

(20) مثلا قطاع النسيج وصناعة الاقمشة والملابس خلال سنتين 1978 و 1979 على اثر الاجراءات التي اتخذتها بعض دول السوق الاوروبية المشتركة .

(21) وهكذا ، ففي الوقت الذي تعاني فيه بلادنا من عجز غذائي مزمن وخطير ، فان اجود الاراضي تخصص لانتاج المواد التي تحتاجها الاسواق الامبريالية .

(22) كوستناس فرغوبولوس : « الراسمالية المشهوهة والمسالة الزراعية الجديدة : نموذج اليونان » نشر ماسبيرو ـ باريس 1977 .

(23) ان تجربة الانظمة « العسكرتارية » البرجوازية في العالم العربي ، تبين بجلاء وهم « الطريق الغير راسمالي » الذي لا يؤدي الا الى راسمالية الدولة المرتبطة ، في آخر المطاف ، بالسوق الراسمالية العالمية .

(24) ان البرجوازية البيروقراطية المدنية والعسكرية تتداخل مع البرجوازية الكمبرادورية « تداخل انياب الكلب » على حد تعبير ماوتسي تونغ .

(25) ان زواج المصالح هو « العلاقة الزوجية » السائدة في اوسط هذه « الطبقات الراقية » حيث يعتبر المال والثروة مقياس كل شيء بما في ذلك الحب !

(26) يعتبر شارل بلتهايم ، وفي سياق آخر ، ان البرجوازية البيروقراطية : « بورجوازية من نوع جديد حيث انها **لا تتمتع بالملكية الخاصة القانونية** ، الامر الذي لا يلغي كونها تتصرف **في الواقع** في وسائل الانتاج . لكن ما **يعتبر هو الوقائع وليس المقولات القانونية** » التشديدات لبتلهايم ـ (الصراع الطبقي في الاتحاد السوفييتي ـ المرحلة الثانية 23 ـ 1930 الجزء الثاني، ص 498 ـ منشورات لوسوي ـ ماسبيرو ، باريس 1977) .

(27) ازمة مركز المطيشة سنة 1979 وازمة المطيشة هذه السنة خير دليل على ذلك التاثر وتلك الحساسية !

(28) يكتسي التصنيع الفرعي احدى الاشكال الرئيسية لارتباط وتبعية الراسمال الكمبرادوري للراسمال الامبريالي في المرحلة الراهنة : انظر دراسة كلود بونوميي وآن هانو : التصنيع الفرعي الدولي ـ حالة المغرب . مركز التنمية في منظمة التعاون والتنمية الاوروبية . نونمبر 1977 . باريس .

(29) نعتبر ان البنية الطبقية السائدة في المجتمع المغربي وان كانت لا تتسم بصفات نظام الفئات المغلقة . فان الحركة الاجتماعية جد محدودة بحكم المميزات الاقتصادية ـ الاجتماعية للبنية الطبقية السائدة وبحكم سياسة التحالف الطبقي السائد ودور الدولة في اعادة انتاج هذه البنية . بيد ان ذلك لا يتناقض وتحقيق بعض « النجاحات » الاجتماعية الفردية ما دام العنصر الاساسي في تلك « النجاحات » ليس هو الجدارة أو الاستحقاق بمعناها البرجوازي وانما مقاييس اخرى .

(30) يكون ذلك ممكنا في ظل تخلف الوعي السياسي ـ الطبقي لدى اوسع الجماهير الكادحة والقروية منها بشكل خاص ، وفي ظل سيادة الولاءات « القبلية » والاقليمية وطمسها للولاء ـ الانتماء الطبقي في العديد من الحالات . غير ان هذا لا يعني ان الصراع الطبقي ليس هو المحرك الرئيسي للصراع الاجتماعي ببلادنا ولا ان طغيان ولاءات اخرى غير طبقية في بعض المراحل لا يحتمل هو كذلك تفسيرا طبقيا .

(31) ان استفادة « الزبون » اقتصاديا ليست شرطا ضروريا لقيام علاقات زبونية ، ويكفي لقيامها توفر بعض العناصر مثل الجاه ، او ، السلطة ، أو ، العلاقة العائلية ...

(32) نور الدين العوفي : المصدر المذكور . ص 270 .

(33) ان احد الاسباب الرئيسية لجعل طنجة منطقة دولية هو اصرار انجلترا على ان لا تحتل فرنسا الطرف المواجه لقلعة جبل طارق من جهة ، وحرص كل الدول الامبريالية على ان لا تتحكم انجلترا اما مباشرة او بواسطة اسبانيا في طرفي مضيق جبل طارق نظرا للاهمية الاستراتيجية التي يكتسيها من جهة ثانية .

(34) مهاجمة قبائل أنجرة للتحصينات التي كان الاسبان يقيمونها حول سبتة وتصديهم لمحاولة توسيع مساحة المدينة ؛ مهاجمة القبائل الريفية لأعمال مدخط قطار منجمي في منطقة قصاية ...

(35) عقدت هذه الاتفاقية في ماي 1945 وكانت اتفاقية طنجة في شتنبر قد فرضت التزام السلطان بعدم مساندة الامير عبد القادر الجزائري ، وأقرت الاتفاقية « حق المتابعة » بالنسبة للطرفين . وحددت الاتفاقية بشكل غامض الحدود بين المغرب والقطر الجزائري المستعمر . ولقد شريطه أن تستعمل مداخيلها لشراء الاسلحة الضروريه لحماية الاسلام . وقد استعملت هذه الفتوى تخلى المخزن عن القيود المفروضة على اقامه الاجانب في الموانيء والمدن المغربية فضلا عن كونه بدأ ينصاع لطلبات الدول الاجنبية . وبصدد الحرب المغربية الفرنسية يقول مييج : « ان الحرب الفرنسية ـ المغربية ، بالرغم من قصر مدتها (...) قد شكلت نقطة تحول في العلاقات الديبلوماسية للمغرب . ان ما انهار في ايسلي هو أكثر من فيلق : انه السمعة العسكرية للمغرب. اذ منذ أزيد من قرنين منيت كل التدخلات العسكرية الاوروبية بالهزيمة » (مييج . المصدر المذكور . ص 203) .

(36) كان مبلغ التعويض هو 20 مليون دوريوس ( ) ، ويقدره عياش بـ عشرين مليار فرنك لسنة 1956 . انظر (البير عياش : « المغرب ـ حصيلة استعمار » ـ المنشورات الاجتماعيـة باريس 1956) .

(37) انظر : مييج المصدر المذكور .

(38) يذكر مييج فتوى صادرة سنة 1766 حول حلال تصدير الحبوب للبلدان المسيحية شريطه ان تستعمل مداخيلها لشراء الاسلحة الضرورية لحماية الاسلام . وقد استعملت هذه الفتوى حسب الظروف السياسية والمحاصيل الزراعية . (المصدر المذكور ص 30 . الهامش الرابع).

(39) لقد كانت هذه الحرية نسبية ولا تتعدى « بلاد المخزن » التي تتسع مساحتها او تتقلص حسب سلطة الدولة المركزية .

(40) كان المخزن يتخوف من مهاجمة المواطنين المغاربة للأجانب ، لان ذلك كان يكلفه دفع فدية للمهاجم تقدر بمبالغ هامة وكانت أهمية الفدية تتغير حسب أهمية الدولة التي ينتمي اليها وحجم الاضرار التي لحقت به . لذلك كان المخزن لا يسمح بتجول الاجانب في المناطق التي لم تكن سلطته نافذة فيها .

(41) يذكر مييج ان بعض المغاربة اليهود أخذوا الجنسية الانجليزية منذ سنة 1849 مثله « يهودي ليفي » (المصدر المذكور ص 574 ـ 575) .

(42) مييج : المصدر المذكور ص 560

(43) » » » » 579

(44) » » » » (المحميون ص 549 الى 560) .

(45) انظر : أطروحة حسن بنحليمة : « صفرو من تقاليد التدبير الى الدمج في الاقتصاد العصري » دراسة في الجغرافية الانسانية . جامعة بول فاليري . منبولييه 1977 .

(46) ان النشاط الاقتصادي لهذه المدن كان يزدهر أو يعيش مرحلة كساد حسب الظروف السياسية العامة وحسب علاقة السلطان بسكان هذه المدن .

(47) مييج : المصدر المذكور ص 560

(48) » » » » 560

(49) كانت هذه المادة مطلوبة في بعض الاسواق الاوروبية مثلا : القطنيات في اسبانيا ، والقطن في كل من انجلترا وفرنسا خلال الحرب الاهلية الامريكية ؛ أنظر مييـج المصـدر المـذكـور ص. 534 .

(50) مييج : المصدر المذكور ص 130 و 521

(51) مييج : المصدر المذكور ص 549 . التشديدات من عندنا

(52) » » » » 549

(53) » » » » 549

(54) « « « « 550

(55) « « « « 550

(56) « « « « 551 الحماية من الباطن على غرار الايجار من الباطن .

(57) ميبيج : المصدر المذكور ص 551

(58) « « « « 554

(59) « « « « 553

(60) « « « « 555

(61) « « « « 555

(62) يقول نائب قنصل فرنسا بالدار البيضاء : « ان تسليم الشهادة (شهادة الحماية) هي الوسيلة الوحيدة لوضع حد للتعسفات » ميبيج : المصدر المذكور ص 549 هامش 4 . ان هذه الشهادة الاستعمارية بالرغم من انحيازها ، ليست بدون قيمة .

(63) ان المرء كان لا يأمن على ماله أو عرضه . وكان القواد لا يترددون في استعمال أبشع الاساليب (حبس ، تعذيب ، اغتيال ...) من أجل بلوغ مآربهم ؛ وكثيرا ما كانت الجماهيـر تنتفض لتصفية القواد الطغاة ...

(64) كان هذا الجزء من الجماهير يتكون من الرعاة والحمالة وبعض مستخدمي القنصليات (بستانيين ، منظفين ...) وبعض الفلاحين الصغار أو « الكسابة » الصغار الذين ضاقوا من قهر القواد فالتجأوا الى طلب حماية النصارى مقابل مبالغ مالية هامة أو مقابل عقد شركة لا يدفع فيها الاجنبي الا شهادة الحماية ! .

(65) محمد المنوني : « مظاهر يقظة المغرب الحديث » ص 255 ـ مطبعـة الامنيـة الربـاط 1973 .

(66) نفس المصدر ص. 256

(67) « « « 256

(68) « « « 257

(69) « « « 257

(70) « « « 259

(71) « « « 558

(72) « « « 41

(73) « لقد اتخذ الاوروبيون شركاء لهم بين سكان البوادي . ومن هنا هاهم الآن يبعثون أتباعهم الذين لا ضمير لهم الى العمال ـ هؤلاء الناس ، الذين ، لا حس اسلامي لهم يتطاولون على العمال ، فيتهمونهم زورا بأعمال وهمية ، بل ان البعض يدعون ان العامل شتمهم أو شتم حتى القنصل الاجنبي الذي يحميهم . والكل يتلخص في تضخيم القضية بهدف خلق ضجة يستغلها القناصل للتدخل » . (دورية مبعوثة من سيدي محمد الى العمال بتاريخ 30 شتمبر 1867 . مثبتة في جرمان عياش : « مظاهر الازمة المالية بالمغرب بعد الحملة الاسبانية لسنة 1860 » ، المجلة التاريخية . اكتوبر دجنبر 1958 ص. 13) .

(74) ميبيج المصدر المذكور . ص 558 .

(75) ان الاسطوغرافيا الاستعمارية تسهب في الحديث عن « الفوضى » التي كان المغرب يعيشها قبل ان « تنعم » عليه فرنسا بحمايتها . وان ظاهرة الاضطرابات الاجتماعية التي عرفتها بلادنا خلال القرن التاسع عشر تتطلب دراسة علمية لتحديد أسباب ونتائج تلك الاضطرابات ولتقييم دور الدول الاستعمارية في اثارة بعضها .

(76) ميبيج : المصدر المذكور ص 558

(77) « « « « 205

(78) انظر : العقد الموقع من طرف السي عبد السلام ، شريف وزان وجول جاليزو مدير « مجلات الربيع الكبرى » والمحرر بطنجة في 24 يناير 1888 والمذكور في ميبيج : « المغـرب

واوروبـا » .

(79) ان حسم الصراعات القائمة بين الامبرياليات الالمانية والانجليزية والاسبانية مـن جهة والامبريالية الفرنسية من جهة اخرى ، بالتراضي : الاتفاقية انفرنسية ـ الانجليزية لسنة 1904 والمعاهدة الفرنسية الالمانية لسنة 1911 ... ان هذا الحسم السلمي قد عجل باستعمار بلادنـا واطلـق اليد لفرنسـا فيهـا .

(80) ان السلطات الاستعمارية ، والجنرال ليوطي خصوصا ، كنات تجامل البرجوازية المغربية (الأعيان) وتتقدم لها كل المساعدات لفصلها عن نضال الجماهير الريفية . ولقد نجحت السلطات الاستعمارية في مخططها .

(81) موران : « المجتمع المغربي » ص 18 نشر هنري بولان باريس 1913 .

(82) انظر : البير عياش : « المغرب ـ حصيلة استعمار » ـ الفصل الثالث « الانتـاج الاوروبي » ص 149 وما بعدها . المنشورات الاجتماعية ـ باريس 1956 .

(83) لقد ارتفع عدد التسجيلات الفردية في السجل التجاري كما يلي :

السنة	الشركات	المغاربة	الاوروبيون	المجموع
1927	707	231	4602	5.533
1938	3285	3285	14.471	17.756

البير عياش نفس المصدر .

(84) « ان الحكومة قد غضت الطرف لضمان الهدوء السياسي » . أندري آدم : « الدار البيضاء » الجزء الاول ص 366 . منشورات المركز الوطني للبحث العلمي باريس 1972 .

(85) أندري آدم : نفس المصدر ص 332 ـ 333 .

واقع الحركة الجماهيرية : تساؤلات وخلاصات

بقلم : عبد الحميد عقار

جاذبية الخطاب ؟ ؟ :

أصبحت لفظة الجماهير ذات جاذبية خاصة بحيث تستوعب أنواع الخطاب السياسي والاجتماعي والاقتصادي والايديولوجي السائد بالمغرب وعلى اختلاف منطلقه وموقعه . وهذا في حد ذاته شيء مهم ، ولكنه خطير : من جهة فيه ترسيم وتشريع للنقد وللاعتراف ـ ولو شكليا ـ ليس « بالازمة » بل بالعجز عن ايجاد منفذ للخروج منها ، وللاعتراف ـ ولو على مضض ـ بالوضع المتفاقم للجماهير ، لكن في هذا الترسيم بالذات كل الخطورة : احتواء الشعارات وتمييعها بافراغها من محتوياتها الفعلية ، التوظيف الايديولوجي للشعارات ، توظيفا للاستهلاك والتضليل وبمضمون قمعي فوق ذلك (استعمال الجيش عن الجماهير لضربها) (1) .

ومع ان تعرية مدلول ووظيفة « الجماهير » في هذا الخطاب ليست من اهداف هذا العرض ، فانها مع ذلك احدى بواعثه . اذ يصعب الادراك الحقيقي لواقع الحركة الجماهيرية بعيدا عن الادراك الحقيقي لواقع الطرف النقيض لهذه الحركة ولمختلف اساليب عمله ، علما بأن الواقع في هذا السياق لا ينحصر في الممارسة العملية وحدها بل يشمل أيضا ما هو تفكير أو نظر يوجه تلك الممارسة أو ينبثق عنها .

وليس الحديث عن الحركة الجماهيرية بعد ذلك محض اهتمام ثقافي ذاتي ، بل هو اسهام موضوعي بشكل ما في الصراع الايديولوجي والسياسي بصفة عامة . فليس المهم هو الوقوف على واقع هذه الحركة في حد ذاته ، بل هي الوصول الى استخلاص القوانين الاساسية أو الثوابت والمتغيرات التي تحكم صيرورة هذا الواقع سلبا وايجابا ، انطلاقا من أن ذلك الواقع هو نظام متواصل من التراكمات التي تختزن جوانب تجربة الحركة التاريخية للشعب المغربي ككل ، وهذه التراكمات في حاجة الى استيعاب وافراز وتجاوز نوعي .

والجماهير في هذا العرض هي مجموع الكتلة الشعبية التي تعاني ونو بشكل متفاوت من الاستغلال والقهر الطبقيين وهي في نفس الوقت تقاوم ذلك الواقع وتناضل باتجاه مطالبها الديموقراطية الكلية ، وذلك اما في ضوء انتمائها النقابي والسياسي واما في ضوء الوعي العام التلقائي بالظلم والتفاوت الطبقيين (كما هو الحال مثلا بالنسبة لنضالات الفلاحين وتلاميذ الثانويات ...) .

ودراسة واقع الحركة الجماهيرية يثير عدة محاور للبحث والتحليل (2)

غير اننا نركز هنا على محور واحد هو الاضراب كشكل نضالي ، كممارسة نقابية . وتحديدا الاضراب التاريخي أي الذي يمتلك بسبب عوامل عدة ، القدرة على التأثير في مجرى الاحداث وفي علاقات موازين القوى الطبقية والسياسية ، ودون أن يعني هذا التقليل من أهمية الاضرابات الاعتيادية (الاضرابات الموسمية ، اضراب القطاعات المعدودة ، الاضرابات المعزولة ...) ، ونعتقد ان السنتين الماضيتين (79 – 80) لهما من الغنى في هذا المجال ما يبرر التركيز عليهما للتساؤل عن واقع الحركة الجماهيرية بالمغرب ؟ ولاقتراح بعض الخلاصات الاولية :

نهوض نضالي قوي ودال :

شهدت الساحة الوطنية خلال السنتين تصاعدا مهما في نضال الجماهير المغربية وبالتحديد : العمال ، والمستخدمين والموظفين والفلاحين والطلاب والتلاميذ ، وذلك عبر سلسلة من الاضرابات النقابية العامة والمتسعة بالتدريج سواء من حيث عدد القطاعات التي تشملها أو من حيث الامتداد المكاني والزماني لها ، أو من حيث اللوائح المطلبية المؤطرة لهذا النهوض وكذا التجمعات النقابية من أجل تعبئة وتنظيم حركة الاضرابات . وباستقراء جدول هذه الاضرابات (3) نلمس الملاحظات التالية :

1) أهمية القطاعات التي شملها هذا النهوض ، وهي عموما القطاعات المنتجة بشكل مباشر أو غير مباشر وذات الوزن الاساسي في الحياة العامة للشعب المغربي : التعليم ، الصحة ، الفوسفاط ، النقل ، السكك الحديدية ، الاستثمار الفلاحي ، النسيج ، معامل انتاج السكر ، التبغ ، الصناعات الحديدية والبترولية والغذائية ، الابناك وشركات التامين ، المكاتب الوطنية ، الفلاحون ، الشبيبة الجامعية والمدرسية ، التجار الصغار .

2) أهمية اللوائح المطلبية التي تبرر الدعوة الى الاضراب ، وهي لوائح على الرغم من تباين محتوياتها التفصيلية فانها تلتقي كلها للمطالبة بضرورة التعجيل بتحسين أوضاع الشغيلة ماديا ومعنويا وباحترام واقرار الحقوق النقابية ويمكن تصنيف تلك المطالب كما يلي :

* الزيادة في الاجور وفي التعويضات المختلفة .
* احداث وتشريع القوانين الاساسية التنظيمية .
* الترسيم والترقية .
* تطبيق البروتوكولات الموقعة بين العمال والمستخدمين وبين مشغليهم .
* احترام الحق النقابي .
* توفير الظروف الانسانية والقانونية الضرورية للعمل .
* حق الاستفادة من صندوق التقاعد والضمان الاجتماعي .

* التضامن مع ضحايا الطرد والتنقيل والاحتجاج على الممارسات التعسفية . (4) (5)

3) وحدة النضالات وشموليتها وطول نفسها ، ففي شهر ابريل 1979 مثلا دخلت عدة قطاعات اقتصادية واجتماعية في نضال موحد :
2 ، 3 ، 4 ، 5 ابريل 79 اضراب عام في قطاع الفوسفاط بخريبكة .
9 ابريل اضراب عام في قطاع السكر .
9 ، 10 ابريل 79 اضراب البترول والغاز بالمحمدية .
10 ، 11 ابريل 79 اضراب الصحة والتعليم .

وبالاضافة الى الاضرابات المتكررة والتي تتجاوز مدتها 48 ساعة في الغالب هناك قطاعات استمر الاضراب فيها أسابيع عديدة (السكك الحديدية) الفوسفاط ، عمال انماء وتلفيف الحوامض « بروماغروم » ، صوماكا ، كوكاكولا ...)

4) كل هذه النضالات كانت تستتبع اشكالا من القمع والتعسف : الطرد ، التوقيف ، النقل ، المتابعة القضائية ، الاعتداء والاهانة ... ويكفي التذكير هنا باحياء السلطة لظهير « كل ما من شأنه » واعتماده مبررا لعديد من المحاكمات النقابية .

شروط موضوعية للاضراب :

واضراب السنتين الاخيرتين مثل أية حركة نضالية لها ما يبررها من الناحية الموضوعية : فالانخفاض المتواتر للقدرة الشرائية للمواطنين عامة ، وضآلة الاجور وجمودها بالقياس الى الأسعار ، وافلاس وعجز القطاعات الاجتماعية عن الاستجابة لطموحات الجماهير وبخاصة في التعليم والعدل والصحة والشغل والسكن ، مع عملية تنامي الوعي الطبقي نوعيا ، الى جانب التأثيرات البعيدة وغير المباشرة للشروط الدولية العامة وبالخصوص ما كان يجري في ايران (مرحلة نضال الشعب الايراني من أجل اسقاط نظام الشاه) وفي مناطق عديدة من افريقيا وأمريكا الوسطى ، هذه المعطيات تكون ظروفا موضوعية لتنامي السخط والاستياء .

وكان ميلاد الكونفدرالية الديموقراطية للشغل (ك. د. ش.) (6) امكانية موضوعية لخلق وضع نقابي جديد يقتضي بالضرورة حركة نضالية تبرر هذا الميلاد وتمكنها من التميز والتجذر ، وهذا الظرف يفرض على النقابات المركزية الأخرى وبخاصة الاتحاد المغربي للشغل (ا. م. ش.) نفس الشيء أي ضرورة الخروج النسبي والمحدود من الجمود والانتظارية وبتواز مع ظروف الاعداد للمؤتمر الوطني السادس والذي انعقد في الاسبوع الاخير من مارس 1979 . واذا كان الوعي بمفاسد البيروقراطية وبأخطار النقابية الضيقة وبالحواجز التي تكبل العمل النقابي وتضعف مردوديته من

بين العوامل التي شرطت ميلاد (ك. د. ش.) فان المضمون الحقيقي لهذا الميلاد يشرطه مدى القدرة على تجاوز تلك السلبيات عبر نضال نقابي متميز نوعيا ، ومن هذه الضرورة بالذات تتولد الامكانيـــة الموضوعيـــة لنهوض جماهيري جديـــد ..

مبررات طبقية للاضـــراب :

الملاحظ ان حصيلة الاضرابات خلال السنتين لم تكن وقفا على طلاب الجامعات او تلاميذ الثانويات ، وأكثر من ذلك لم تكن وقفا على عمال القطاع الخاص بل نسبتها الكبيرة أنجزها موظفون ومستخدمون مـن ذوي الدخـل المتوسط والقار ، وممن ينظم عملهم في الغالب قانون أساسي يضبط العلاقة بين المستخدم والمستخدم (دولة ، مؤسسة ، رب عمل) ، وهؤلاء يشكلون في أغلبيتهم شرائح البرجوازية الصغيرة ، وهذه البرجوازية لعبت دورا مهما عبر انتماءاتها الحزبية والنقابية في عملية الانتخابات الجماعية والبرلمانيـة خلال سنتي 76 ـ 1977 ، ثم كانت هي الضحية الاولى للعبـة الانتخابات ، وليس ذلك بالتزوير فحسب ، بل بمضاعفة استغلالهـا اقتصاديـا بسبـب الزيادات الحاصلة في بعض المواد التي تشكل جزءا مـن استهلاكهـا مثـل الزيادات في أثمان البنزين والسيارات وفوائد قروض التجهيـز والبنـاء ... هذا عدا الزيادات في المواد الاستهلاكية التي تمس بشكـل مباشـر عامـــة المواطنين . يضاف الى ذلك ان آمال البرجوازية الصغيـرة في أن تكـــون الانتخابات ونتائجها أداة لاحداث التوازن الضروري بينهـا وبين السلطـة وأرباب العمل ومدراء المؤسسات هذه الآمال سرعان ما انكشف زيفها وخواؤها أمام شلل المؤسسات الجماعية ومجلس الممثلين (البرلمان) وانعدام فعاليتها الا في اضفاء طابع الشرعية على سيادة تحالف طبقي في الوقت الذي أخذ فيه هذا التحالف يعاني من التأزمات والمصاعب الاقتصادية والسياسية ... وهكذا كرست الانتخابات استمرار أساليب المحسوبية والرشوة واستغلال النفوذ والاختلاسات والتظلمات الادارية مضافة الى الاعباء الاقتصاديـة أي انهـا أعادت انتاج مزيد من المتاعب والاثقال لهذه البرجوازية ...

والى جانب فئات العمال وشرائـح البرجوازيـة الصغيـرة ساهـم الفلاحون (7) وعبر عدة مناطق من البلاد في هذا النهوض . وكانت الارض هي محور الصراع بينهم وبين كبار الملاكين والاقطاعيين الجدد ، ولم يكن هـذا الصراع بأقل حدة أو عناء ، بل اتخذ أحيانا طابعا دمويا الى جانب الاعتقال والمتابعة القضائية وفرض حالة الحصار والتطويق على السكـان ، ومثـال فلاحي جماعة أولاد سعيد الواد بنواحي بني ملال شديـد الدلالـة في هـذا السيـاق ...

نضال ضد أطراف التحالف الطبقي السائد :

اذا كانت القاعدة الاجتماعية لحركة الاضرابات تفسر مبرراتها الطبقية، فان القطاعات المتعددة التي شملتها تؤكد ان النهوض الجماهيري استهدف بالدرجة الاولى النضال ضد :

1) البرجوازية الكمبرادورية المندمجة بالرأسمال الامبريالي وهي الطبقة التي تشكل الطرف الرئيسي في التحالف السائد والتي يتمحور نشاطها اساسا في ادارة فروع الشركات الامبريالية بالمغرب والسيطرة على قطاع الايراد والتصدير والاستثمارات في مجال السياحة والصناعة التحويلية والمعادن والقطاع الفلاحي الرأسمالي ثم النشاط المصرفي البنكي .

2) البرجوازية البيروقراطية والتي تتمركز في الاجهزة والمؤسسات الاقتصادية ولاجتماعية للدولة مثل مكتب التسويق والتصدير ، الفوسفاط ، المكتب الوطني للسكك الحديدية ، المكتب الوطني للسكر والشاي ...

3) الملاكون العقاريون الكبار والذين يشكلون القاعدة الاجتماعية للتحالف الطبقي السائد في البوادي . مثل ما هو الحال في نضالات الفلاحين بقرية حد كورت قرب وزان وجماعة أولاد سعيد الواد ناحية بني ملال .

4) الرأسمال الامبريالي المستثمر في عدة قطاعات مثل كوديبير ، جنرال تير ، كوكا كولا ، سيكوم ...

احتدام الصراع الاجتماعي :

حركة النهوض هذه ، بحكم طابعها الجماهيري وتأطيرها النقابي ومبرراتها الموضوعية والطبقية ، وبحكم القمع الذي ووجهت به ، انها ذات عمق سياسي وتترتب كحلقة من حلقات الصراع الاجتماعي الذي يضطلع به العمال والمستخدمون والموظفون والفلاحون والطلبة ضد أعدائهم الطبقيين والسياسيين . والدلالة السياسية العميقة لهذه المرحلة من الصراع هي الوقوف ضد السلم الاجتماعية سلم تكرس كل أشكال الاستغلال ، والنضال ضد الاستغلال الاقتصادي بافق تحسين شروط الحياة المعاشية ، وذلك عن خلال طرح مطالب من شأن تحقيقها أن يحدث توازنا نسبيا بين مستوى المعيشة الذي يزداد تفاقما بسبب الغلاء والاحتكارات والمضاربات وبين مستوى الاجور والقدرة الشرائية للمواطنين والتي لا تزداد الا ضعفا عن مسايرة النهب الرأسمالي .. وحركة النهوض الجماهيري هذه تسهم في اعادة ترتيب للعلاقات بين القوات والمواقف الطبقية والسياسية ، ومقياس هذا الترتيب يتحدد في ضوء الموقف من حركة الاضرابات وفي ضوء العلاقة مع السلطة التي هي للتجسيد الفعلي للتحالف السائد وليست فقط «وزيرا متعنتا» أو «حكومة جديدة ـ قديمة» (8) .

ومن هنا يأتي الدور التاريخي لاضرابات السنتين : فهي اذا كانت تؤكد القدرة النضالية التي تختزنها الجماهير فهي الى جانب ذلك كانت من عوامل

تفجير بعض تناقضات التحالف الطبقي السائد أولا ثم انها بمثابة مؤشر لقياس بعض التناقضات في صفوف الحركة النقابية والسياسية التي تدعم هذه النضالات :

القمع الموقوت والتنازل النسبي :

حركة الاضرابات أجبرت السلطة على نهج اسلوبين متكاملين : أسلوب الدعوة الى فتح المفاوضات مع النقابات المركزية حول بعض مطالبها في « ضوء أوضاع البلاد » (9) وأسلوب التصعيد من القمع ، الاسلوب الاول يعتمد المناورة والتضليل السياسي ويستهدف جر النقابات المركزية الى المساومة والاسلوب الثاني يستهدف الضغط المباشر على جماهير المضربين لالزامها بالتراجع عن نهوضها وللحد من تأثيرها في تحقيق المكاسب الاجتماعية والسياسية وبالتالي لشل العمل النقابي كواجهة للصراع ، والاسلوبان معا يلتقيان في الهدف وهو الاختراق المزدوج (السلمي / الحربي ، المساومة / القمع) للنهوض الجماهيري واقتلاع أسباب تجذره وتصلبه وتواصله . والدعوة الى التفاوض والتصعيد من القمع كلاهما ، اجراء سياسي موقوت اقتضى قدرا من التنازل النسبي خاصة في المستوى السياسي : فليس صدفة أن يتم تعديل حكومي في وقت وصلت فيه المفاوضات وهي في مرحلتها الاولى الى الباب المسدود . وليس صدفة أن يشهد المغرب في فترة المد الاجتماعي المتصاعد سلسلة من محاكمات الرشاوي والاختلاسات واستغلال النفوذ وعمليات التهريب والاتجار في المخدرات وهي محاكمات تمس بعض كبار المسؤولين في جهاز الدولة الحاكم (10) . وليس صدفة أيضا أن تتجه الصحف الرسمية وشبه الرسمية الى مناهضة ومعاداة حركة الاضرابات والتأكيد في نفس الوقت على « المطالبة برفع الاجور بصفة ملموسة تتناسب مع مستويات الاسعار مع الضرب على أيدي المحتكرين » !! (11) ... هذه المعطيات تكشف عن التأثير الايجابي لحركة الاضراب في اجبار أطراف التحالف الطبقي السائد على الاقرار بموضوعية المطالب وعلى الاقرار بعجز السلطة على الوفاء بالتزاماتها تجاه المطالب النقابية وتجبرها أخيرا على اللجوء الى القمع الموقوت والمقنن بظهير « كل ما من شأنه » ، وهكذا تسهم حركة الاضرابات في الكشف على الموقف والموقع العدائي للتحالف السائد من حركة نهوض الجماهير . وفي نفس الوقت انكشف بالملموس الموقع الذي صارت اليه بعض فصائل الحركة الوطنية بعد مساهمتهما في الحكم وهو موقع المواجهة الصريحة والقمعية لاضرابات بعض القطاعات وهي لذلك تصنف نفسها مرحليا ضمن أعداء النهوض الجماهيري : أولا بتناقضها في تبني اضرابات ومعاداة أخرى . وثانيا بحملات التضليل الاعلامي عبر صحفها ومواقع نفوذها في الحكومة بغاية اظهار الاضرابات وكأنها ضد مصالح

الشعب (12) وكأنما مصالح الشعب تقتضي تزكية الاستغلال والقمع والفساد.
وثالثا بكونها كرست عبر مسؤوليتها في وزارة التربية الوطنية وتكوين الأطر واقعا طالما ناضل رجال التعليم ضده وهو الحاق هذه الوزارة بوزارة الداخلية وفي هذا التكريس موقف سياسي جوهره استخدام جهاز الدولة من خلال موقع المسؤولية في ضرب نضالات الشعب المغربي وتزكية وترسيم المضمون القمعي للسلطة ...

الدعم المشروط :

والتقاء النقابتين المركزيتين (ك. د. ش.) و (ا، م، ش،) في تحريك العمال والمستخدمين والموظفين في سلسلة اضرابات متوالية ولو بدوافع مختلفة وأهدافا متباينة وبأساليب وعقليات متفاوتة ، كل ذلك يسمح باعتبار الحسابات الحزبية أيضا كشرط في توجيه الحركة الجماهيرية وتأطيرها ومساندتها وبالدرجة الاولى من طرف الفصائل المتقدمة من الحركة الوطنية الديموقراطية . ان التأطير والمساندة يظهران في الدعم الاعلامي وفي البيانات الحزبية التضامنية وفي التبني الرسمي لحركة الاضرابات (13) وهذا الدعم يؤكد سياسيا ان ما كان يعتبر منذ 1975 أداة فعالة في التحريك والاستقطاب لم يعد كافيا ومن هنا اتجهت تلك الفصائل الى رفع شعار « ضد العدوان الاقتصادي والاجتماعي الذي يتعرض له الشعب » . ان الاضرابات كشفت عن امكانية موضوعية للربط بين الممارسة النقابية للاضراب والممارسة السياسية للتضامن والدعم المشروطين . التضامن السياسي كان مشروطا بخط برجوازي صغير متناقض الامر الذي جعله محدود الافق لا يتجاوز بالفعل حدود التعبير عن الدعم .

وأخطر ما يميز هذا الخط هو النقابية الضيقة التي توظف الاضرابات التاريخية فقط من أجل تحقيق بعض المطالب المادية وبشكل مؤجل غالبا . فلهجة الاصرار على تاكيد الطابع المطلبي الصرف للاضرابات في افتتاحيات الصحف وفي البيانات الحزبية (14) والنقابية ، في وقت تصعد فيه الجماهير من نضاليتها ، وفي وقت تطرح فيه (ك. د. ش.) شعار محاربة نقابة الخبز وشعار ربط النضال النقابي الاجتماعي بالنضال الوطني السياسي ، في هذا الاصرار تناقض بين الشعار والممارسة العملية ، وفيه استمرار في تكريس العمل النقابي البرجوازي المعزول والمحدود التاثير ...

والخاصية الثانية لهذا الخط البرجوازي الصغير تتعلق باساليب العمل والتعبئة ، فهي أساليب تؤكد أيضا التلقائية والعفوية ، وهذا يفسر الدور الكبير الذي يلعبه الاعلام الصحفي في التعبئة بدلا من أن يكون هذا الدور يرتكز على الارتباط العضوي بين المضربين وبين التنظيم النقابي ، فلهجة الحماس في التعبئة والتاطير لم تكن تقترن عادة بالتحليل الموضوعي لموازين

للقوى الطبقية والسياسية ولا بتحليل المضاعفات الممكنة لنضال جماهيري له ايقاع جديد كالذي عرفته سنة 1979 ولا بالتفسير السياسي لموقف العداء الذي اتخذته أطراف التحالف السائد من نضال الجماهير . فالقمع الشرس الذي ووجهت به الاضرابات اعتبر من طرف الفصائل السياسية والنقابية ذات الاتجاه التقدمي الديموقراطي والتي تدعم الاضرابات تخليا من الدولة ووزارة الداخلية عن حيادها أو هو تعبير عن الحقد والكراهية الموجهة ضد النقابة أو الحزب (15) مثل هذا التفسير يولجه القمع كممارسة سياسية ملازمة للسلطة واحدى أدواتها الفعالة في حسم الصراع لمصلحتها ، ممارسة لها تبريرها الطبقي والقانوني . يواجه هذا كله بفهم أخلاقي نفسي . فما معنى الحديث عن حياد الدولة ووزارة الداخلية في اضرابات السنوات الماضية والتنويه بهذا الحياد وتسجيل الاطار التعاوني بين رجال التعليم من حيث تهييء الاضراب ورجال السلطة المحلية من حيث احترامه ؟؟ فأي تلقائية وعفوية أكثر من هذا التفسير ؟؟ في هذا التحليل تجاوز وطمس للمعطيات والظروف الفعلية التي تتحكم في الصراع وتحدد أشكال التعامل معه وأساليب حسمه : فالدولة ووزارة الداخلية لم تكن في الحياد خلال اضرابات السنوات الماضية ، انها كانت مشغولة بقمع آخر ، وتكفي الاشارة هنا الى الاعتقالات السياسية خلال سنتي 77 ـ 1978 والتي أصبحت بعد ذلك تعرف بقضية سجن مكناس . وكانت الدولة ووزارة الداخلية مشغولة بالانتخابات ، وتهييء لضمان مشاركة أوسع قاعدة ممكنة من البرجوازية الصغيرة ومن العمال في هذه الانتخابات ومن غير السياسة افساد اللعبة التي ستقنن وتعقلن ممارسة القمع ... واضرابات التعليم في السنوات الماضية كانت معزولة وموسمية في ظل حالة الجزر التي كانت الحركة الجماهيرية تجتازها بسبب مناخ سياسي ونقابي معين . ولم تكن موازين القوى النقابية قد عرفت تبلورا واضحا في صراعاتها وفي بناء أدواتها ... هذه بعض الظروف التي تفسر موقف الدولة ووزارة الداخلية من اضرابات السنوات الماضية ، ببساطة انّ هذا الموقف لم يكن حيادا بل هو نوع من ترتيب التناقضات وترتيب أساليب حلها .

تحالف موضوعي وصراع مطلبي :

تؤكد حركة الاضرابات خلال السنتين أهمية وموضوعية التحالف بين مختلف القوات الاجتماعية والسياسية المناهضة للاستغلال والقهر الطبقي وهو تحالف يبين ان الطبقات الاجتماعية الاساسية المرشحة في الظرف الراهن لتعميق النضال والصراع السياسي والايديولوجي ضد الاستغلال الطبقي ومن اجل تحقيق المطالب الديموقراطية هي الطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة بارتباط مع تضررهما الشديد من الاوضاع الحالية ، وبارتباط مع خلق الشروط الموضوعية لتحالف أعمق مع الفلاحين في البوادي .

وتبرز حركة الاضرابات هذه ان الخط البرجوازي الصغير هو الذي يوجه في المرحلة الراهنة الممارسة النضالية النقابية وسيادة هذا الخط تكشف عن عدم تبلور وانتشار الوعي البروليتاري في صفوف الطبقة العاملة بالقدر الذي يمكنها من انجاز مهامها الاساسية حاليا ، وسيادة هذا الخط يفسر ايضا غلبة الشكل الاقتصادي المطلبي على النهوض الاجتماعي .

ويمكن ان تكون حركة الاضرابات وامكانيات التضامن الاساسية التي اوجدتها مقياسا للتمييز بين مستوى التناقضات العدائيــة وبين مستــوى التناقضات في صفوف الحركة الجماهيرية ذاتها وهو تمييز يستلزم ادراكــا واعيا لأساليب التعامل مع نوعي التناقض : فاذا كانت المسألة المركزية في مواجهة التناقض العدائي راهنا هي الاسهام عبر النضال في تفجير مكوناته وانتزاع مزيد من التنازلات والمكاسب ، فالمسالة الجوهرية في التعامل مع الحلفاء ومع التناقضات في صفوفهم هــي مقاومــة الانحــراف الانتــهــازي والبيروقراطي سياسيا ونقابيا وتجاوز أساليب العمل والتفكير النابعة مــن الخط البرجوازي وتحويل الامكانية الموضوعية الى شرط ذاتي يسمح بالفعل تعميق استقلالية الاداة النضالية نقابية أو سياسيــة وذلك عبــر الصــراع الديموقراطي الايجــابــي .

الـهـوامـش :

(1) التاكيد هنا بصفة خاصة على مضمون الخطاب الاعلامي السائد ، الشبه رسمي والرسمي في المستوى الدعائي والاخباري والثقافي والسياسي والتاريخي ...

(2) يمكن دراسة واقع الحركة الجماهيرية من زاوية : الانتخابات ، التظاهرات التجمعات والاسابيع الثقافية ، اللوائح المطلبية ، اشكال التحالف ...

(3) اعتمدنا في صياغة هذا الجدول على المتابعة الشخصية وعلى ما تنشره الصحف الوطنية أساسا : جريدة المحرر ، الديموقراطية العمالية ، البيان ، انوال ، لامان كارد (بالفرنسية) وبعض نشرات الاتحاد المغربي للشغل . وبالتاكيد فان هذا الجدول لا يستوعب كل الاضرابات وعلى الرغم من طابعه الانتقائي نسبيا فهو كاف للدلالة على الواقع النضالي خلال السنتين .

(4) من التقاليد الايجابية التي كرستها (ك. د. ش.) تنظيم ايام وطنية للتضامن مع اضرابات طال نفسها او مع ضحايا خرق الحق النقابي ونذكر هنا فقط الايام المنظمة للتضامن مع نضالات عمال الفوسفاط ، ومطرودي رجال التعليم والصحة ولاسمير وسيكوم . هذا بالاضافة الى الايام الاضرابية التي يكون موضوعها هو التضامن وفي الجدول المرفق بعض الامثلة .

(5) هذه لائحة للمطالب بشكل جزئي كما يعرضها كل قطاع على حدة وخلال المفاوضات بين النقابات المركزية وبين الحكومة تمت صياغة عدة ارضيات مطلبية متكاملة ومع اختلاف الصياغات والاسبقيات اكدت المركزيتان (ك. د. ش.) و (ا. م. ش.) على ضرورة مراجعة نظام الاجور والتعويضات ومراجعة وتدوين وتبسيط قوانين الشغل .

(6) انعقد المؤتمر التأسيسي لـ (ك. د. ش.) بتاريخ 25 ، 26 نوفمبر 1978 وذلك بعد ندوة للتنسيق بين النقابات الوطنية في 15 يوليوز 1978 .

(7) لا يتعلق الامر بالعمال الزراعيين والفلاحيين بل بالذين تشكل الارض من خلال ملكية صغيرة أو متوسطة أو من خلال الايجار وسيلة انتاجهم الاساسية . وعلى العموم فالفلاحون في جدول النضالات يمس سكان القرى عامة .

(8) يرد هذا الوصف في ادبيات واعلاميات المنظمات السياسية والنقابية ذات الاتجاه التقدمي الديموقراطي .

(9) تمت المفاوضات على مرحلتين ، تم الاعلان عن المرحلة الاولى يوم الاثنين 26 ـ 2 ـ 79 بعد اجتماع وزاري مصغر خصص موضوعه لدراسة الوضعية الاجتماعية للبلاد على اثر اضراب بعض القطاعات . وقد تقرر في هذا الاجتماع : فتح مفاوضات مع النقابات المركزية حول مطالبها وفي ضوء أوضاع البلاد واحداث لجنة حكومية لمراقبة الاسعار والاحتكارات . وابتدا التفاوض يوم 27 ـ 2 ـ 79 ...

(10) نشير على سبيل المثال الى جلسات محكمة العدل الخاصة ابتداء من يوم 5 ـ 3 ـ 79 للنظر في تهم اختلاس أموال خصوصية والغدر والمشاركة المنسوبة لـ 19 متهما منهم ضباط سامون : عمداء الشرطة ومفتشون ...

(11) يراجع على سبيل المثال : افتتاحية جريدة الميثاق الوطني ليوم 11 ـ 4 ـ 79 وبيان المجلس الوطني للتجمع الوطني للاحرار المنشور بجريدة الميثاق الوطني يوم 17 ـ 4 ـ 79 وافتتاحيات صحيفة « لوماتان » خلال أيام الاضراب .

(12) يراجع على سبيل المثال : جريدة العلم والراي خلال تصاعد الاضرابات ، والبلاغات التي أصدرتها الجامعة الحرة للتعليم (الاتحاد العام للشغالين) الموازية لحزب الاستقلال .

(13) نفكر بالاساس في : الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية ، حزب التقدم والاشتراكية ، وجريدة انوال بعد صدورها في نوفمبر 1979 ...

(14) نقرأ مثلا افتتاحية المحرر ليوم 10 / 11 /79 بعنوان « حتى يتحمل كل واحد مسؤوليته » : « على ان الاضراب لم تكن له أهداف اخرى غير الهدف القانوني منه وهو الضغط على الطرف الاخر أي على من يقوم بالنسبة لرجال التعليم مقام صاحب المعمل بالنسبة لعمال المعامل » ونقرأ في بيان المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية بتاريخ 12 ـ 4 ـ 79 « لقد كان هذا الاضراب كسابقيه اضرابا نقابيا محضا جاء نتيجة تماطل الحكومة عن اعلان موقفها ومقترحاتها » .

(15) نقرأ في افتتاحية المحرر ليوم 10 / 4 / 79 المشار اليها ما يلي : « ... يجب التنويه أيضا بموقف الدولة وبالخصوص وزارة الداخلية في السنوات الماضية ، لقد حرصت الدولة من خلال وزرة الداخلية على التزام الحد الادنى من الحياد ، الشيء الذي ساعد فعلا على مرور اضرابات رجال التعليم وغير رجال التعليم في جو كله حياد ... فلقد كان هناك اطار طبيعي يمر فيه الاضراب اطار تعاوني بين رجال التعليم من حيث تهييء الاضراب ورجال السلطة المحلية من حيث احترامه » ونقرأ في بيان المكتب التنفيذي لـ (ك. د. ش.) بتاريخ 14 ـ 4 ـ 79 : « ... ان ما وقع من انتهاك لحرمة المؤسسات ، وخرق لحقوق الانسان وحقوق الشغل ليكشف عن مدى الحقد الدفين الذي يكنه بعض المسؤولين لمنظمتنا الكونفدرالية الديموقراطية للشغل وعن الكراهية الشديدة لشهود العصر ، ورثة الانبياء والقديسين : رجال التعليم والصحة ... »

جدول بأهم النضـــالات الجماهيريـــة خــلال سنتي 79 و 1980

القطاع او النقابة	تاريخ الاضراب	مكان الاضراب	المطالب ... ملاحظات
النقابة الوطنية للتعليم (ك. د. ش.)	5 ـ 6 ـ 7 بيراير 1979 21 ـ 22 ـ 23 ـ 24 بيارير 10 ـ 11 ابريل 1979	على الصعيد الوطني » « » » « »	تحقيق الملف المطلبي تحقيق الملف المطلبي ، اعتقال اعضاء من قيادة النقابة طرد وتوقيف ومحاكمة عدد كبير من المضربين . تم ارجاع المطرودين والموقوفين في يوليوز 1980
النقابة الوطنية للتعليم العالي	6 ـ 7 بيراير 1979 13 ـ 14 مارس 1979 11 ماي 1979	المدن الجامعية » « » تم تاجيله	عقدت النقابة الوطنية للتعليم العالي مؤتمرها الوطني بفاس في 17 ـ 3 ـ 79 وفيه اعلنت استقلالها عن النقابة المركزية (ا. م. ش.) .
النقابة الوطنية للصحة (ك. د. ش.)	7 مارس 1979 10 ـ 11 أبريل 1979	على الصعيد الوطني » « »	تعرض عدد من المضربين للطرد والتوقيف والمحاكمة تم ارجاع المطرودين والموقوفين في يوليوز 1980
النقابة الوطنية للبريد (ك. د. ش.)	15 بيراير 1979	على الصعيد الوطني	اوقف هذا الاضراب ببلاغ اذاعي اثر دخول الوزارة في حوار مع النقابة
النقابة الوطنية للتبغ (ك. د. ش.)	18 يناير 1980		تطبيق الزيادة المعلن عنها في ماي 79 ، انتخاب ممثلي العمال . تشغل شركة التبغ 2511 ، عدا العمال الموسميين
موظفو ومستخدموا الابناك (ا. م. ش.) الاتحاد الاسباني المغربي للابناك	13 ـ 14 بيراير 1979 20 ـ 22 بيراير 1979 28 بيراير 1 ، 2 مارس 1979 8 بيراير 1980 14 ـ 15 بيراير 1980 21 ـ 22 ـ بيراير 1980	على الصعيد الوطني » « »	الزيادة في الاجور 15 ٪ ، الترقية ، تقديم القروض للمستخدمين ، قرض السكن ، التامين على الحياة .

موظفوا ومستخدموا الابناك (ا. م. ش.)	4 يوليوز 80 (نصف يوم) 11 يوليوز 1980	على الصعيد الوطني	المطالبة بالتوقيت المستمر للعمل خلال الصيف ، ارجاع المطرودين
مستخدموا شركات التامين (ا. م. ش.)	13 مارس الى 10 ابريل 79		تعويض الكراء والنقل
» » »	24 ابريل 1980	الدار البيضاء	اداء الشهر الرابع عشر
» » » »	5 يونيو 1980	» »	
» » »	6 ـ 7 مارس 1979	» »	تشغل هذه المؤسسات حوالي 1300 مستخدما
عمال ومستخدموا ومهندسوا مكتب الابحاث والمساهمات المعدنية (ا.م.ش.)	9، 12 ، 18 يناير 1979 28 ، 29 يناير 1979 6 ، 7 ، 8 يبراير 1979		
عمال ومستخدمو مكتب التسويق والتصدير	8 مارس 1979	الدار البيضاء	
مستخدمو الارصاد والملاحة الجوية (ا. م. ش.)	18 ، 19 ، 20 يناير 1979 22 ، 23 ، 24 يبراير 1979 8 الى 12 مارس 1979	على الصعيد الوطني » » » » » »	تم تاجيل الاضراب اثر مقابلة المسؤولين في 17 ـ 1 ـ 79
النقابة الوطنية للتجار الصغار	1 ـ 2 ـ 3 ابريل 1980		الامتناع عن توزيع الحليب طوال هذه الايام بسبب نسبة الربح .
الاتحاد الوطني لطلبة المغرب	24 يناير 1980	كل الجامعات بالمغرب	يوم التضامن مع المعتقلين السياسيين بالمغرب
» » »	26 يناير 1980	كل الجامعات بالمغرب	التنديد بتطبيع العلاقات بين نظام مصر وبين اسرائيل
» » » »	1 ـ 2 ـ 1980	كلية الادب والعلوم ، الرباط	من اجل اطلاق سراح الطلبة المعتقلين على اثر اضرابات الجامعة في 24 و 26 يناير 1980
» » » »	يبراير 1980	مختلف المؤسسات الجامعية	اضرابات متقطعة للاحتجاج على محاكمة عدد من الطلاب والمطالبة باطلاق سراحهم .
» » » »	4 ـ 12 ـ 80	كل الجامعات بالمغرب	من اجل فرض الاستجابة للمطالب المادية والمعنوية

	23 يناير 1979	بعض المؤسسات الجامعية والليسيات	احتجاجا على وجود شاه ايران بالمغرب
طلبة المركز التربوي الجهوي بالرباط	4 يناير 1979	الرباط	تاخر المنح
» » » بوجدة	9 ـ 10 يناير 1979	وجدة	
» » » بالحي الحسني	15 يناير 1979 (اسبوع)	الدار البيضاء	
» » » بمراكش	16 يناير 1979	مراكش	
» » » بطنجة	18 يناير 1979	طنجة	
» » » »	29 يناير 1979	طنجة	فتح الداخلية واداء المنح
الطلبة المعلمون بمدرسة المعلمين	31 يناير 1979	وجدة	الاحتجاج على الاوضاع المتردية بالمدرسة
الطلبة المعلمون بمدرسة المعلمين	16 بيبراير 1979	تطوان	
الطلبة المعلمون بمدرسة المعلمين			

الاقتصار على اضرابات (ا. و. ط. م.) خلال سنة 1980 لا يعني أن سنوات حظر المنظمة لم تكن تعرف نضالات وطنية وقطاعية . وانما لاعتبارات منهجية اقتضاها مجال هذه الدراسة وقع الاكتفاء ببعض النضالات الطلابية خلال هذه السنة .

المكاتب الجهوية للاستثمار الفلاحي (ا. م. ش.)	27 يناير 1979	على الصعيد الوطني	
المكاتب الجهوية للاستثمار الفلاحي (ا. م. ش.)	27 ، 28 بيبراير 1979		
المكاتب الجهوية للاستثمار الفلاحي (ا. م. ش.)	6 ، 7 مارس 1979		
	13 ، 14 مارس 1979 22 يناير 1979		طرد 88 عاملا وعاملة ... وتم اعتقال 6 من المسؤولين النقابيين بسوق ثلاثاء الغرب
المكاتب الجهوية للاستثمار الفلاحي : المستخدمون ، العمال الفلاحيون ، العمال الزراعيون : ميديا ، صوجيط، كوماوكي، عمال انماء وتلفيف الحوامض بالمغرب (بروماغروم) ا. م. ش.	من 19 مارس الى 10 ابريل 79	الغرب، البيضاء، العرائش، بني ملال	
النقابة الوطنية للسكر والشاي (ك.د.ش)	9 ابريل 1979	معامل السكر على الصعيد	تضامنا مع ضحايا حوادث الشغل ومع عاملين مطرودين
عمال معمل كوزيمار (ك. د. ش.	27 يناير 1979	الدار البيضاء	
عمال معمل كوزيمار (ك. د. ش.	2 ابريل 1979	»	

عمال معمل كوزيمار (ك. د. ش.	1 يونيو 1979		
عمال معمل السكر بدكالة (ك. د. ش.)	11 يناير 1979		
» » » بزايو	6 بيراير 1979		
» » » »	6 ماي 1980		الزيادة في الاجور وفي تعويضات السكن،توفير وسائل النقل
» » » »	14 ، 15 ماي 1980		
عمال معمل السكر بسوق السبت اولاد النمة	13 ابريل 1980		الاحتجاج على التصرفات التعسفية لمدير المعمل في حق عاملين
عمال معمل السكر ببلقصيري	26 يونيو 1980	بالقصيري	
عمال المخابز العصرية والحلويات (ك. د. ش.)	30 ـ 9 ـ 79	الدار البيضاء	ارجاع المطرودين الى عملهم ، حق الضمان الاجتماعي ، تحديد ساعات العمل ، ضمان الحريات النقابية ... اعتقال حوالي 160 عاملا ومحاكمة 13 منهم بتطهير كلهامنشانه... المطالبة بتطبيق البروتوكول الموقع مع ارباب المخابز في يناير 1980 . يشغل هذا القطاع حوالي 3500 و 4000 عاملا . تاسس مكتب نقابي تابع لـ (ك. د. ش) بهذا القطاع في 16 ـ 4 ـ 79
عمال المخابز العصرية والحلويات (ك. د. ش.)	1 ـ 10 ـ 79	» »	
عمال المخابز العصرية والحلويات (ك. د. ش.)	9 يناير 1980	»	
عمال المخابز العصرية والحلويات (ك. د. ش.)	14 ابريل 1980		
النقابة الوطنية للفوسفاط (ك. د. ش.)	27 يناير 1979	خريبكة	
	24 مارس 1979	»	تضامنا مع عمال المنجم رقم 8
	2 ـ 5 ابريل 1979	»	
	19 ماي 1979	»	تضامنا مع المنجم رقم 10
	من 23 الى 26 ماي 1979	مناجم باطن الارض بخريبكة	
	27 ، 28 اكتوبر 1979	المصالح الاجتماعية بالمكتب الشريف للفوسفاط	
	79/11/26 (لا محدود)	مناجم 9 ، 10 ، 8 ، 7 ، خريبكة	
	1 / 12 / 1979	عمال الطاشة ، منجم 10 خريبكة	

	13 / 12 / 1979	عمال المطاشة ، منجم 10 خريبكة	
	21 ، 22 / 12 / 1979	عمال المطاشة ، منجم 10 خريبكة	
	28 ـ 29 / 12 / 1979	عمال المطاشة ، منجم 10 خريبكة	
	5 يناير 1980 9 الى 12 يناير 1980 14 الى 22 يناير 1980	مناجم الفوسفاط بالمغرب خريبكة خريبكة مناجم 2 ـ 7 ـ 8 ـ 9 ـ 10	تضامنا مع عمال منجم 2 ـ 10 تضامنا مع عمال المطاشة ومطالب مادية
عمال المكتب الشريف للفوسفاط (ك.د.ش)	26 يناير 1980 20 ، 21 ، 22 مارس 1980 20 / 12 / 1980	مناجم الفوسفاط بالمغرب خريبكة خريبكة ، بن جرير اليوسفية، اسفي، البيضاء	الترقية ، الزيادة في منحة العمال ، منحة الاقدمية ... احتجاجا على قرار ادارة المكتب بالغاء عطلة عيد الانتاج
السكك الحديدية (ا. م. ش.) ك.د.ش « « النقابة الوطنية للسككيين (ك. د. ش.)	من 4 الى 19 يناير 1979 ايام 26 ، 28 ، 30 يوليوز 79 23/12/80 (72 ساعة)	على الصعيد الوطني الرباط على الصعيد الوطني	عدم احترام الادارة لاوقات العمل خلال رمضان معادلة اجور مستخدمي هذا المكتب باجور المكاتب الاخرى رفع الاجور ، المصادقة على القانون الاساسي
عمال شركة النقل المغربية ـ الخطوط الوطنية (ستيام)	3 ابريل 1980 4	على الصعيد الوطني	الانخراط في صندوق التقاعد التكميلي ، زيادة 15 ٪ في الاجور
عمال شركة النقل المغربية ـ الخطوط الوطنية (ستيام)	14 ـ 15 مايو 1980	« « «	اشراك جميع العمال في صندوق التقاعد ، الترسيم بعد سنة من الشغل ، توحيد الاجور حسب الاعمال ، الترقية الداخلية ...
عمال شركة النقل المغربية ـ الخطوط الوطنية (ستيام)	17 ـ 18 ـ 19 يونيو 1980	« « «	
عمال النقل الحضري (الحافلات) بالبيضاء « « « « «	11 الى 14 يناير 1979 10 مارس 80 (اربع ساعات)	الدار البيضاء الدار البيضاء	المطالبة بتنفيذ الاتفاق الموقع بين ممثلي العمال وبين وزارة الداخلية في 5 ـ 12 ـ 78

عمال النقل الحضري (الحافلات) بطنجة	21 يبراير 1980	طنجة	مطالب مادية : تنفيذ الزيادة المقررة سنة 77 وهي 10 ٪
» » » » »	12 ، 13 مارس 1980	»	تنفيذ اتفاقية 75 بين العمال ومدير الوكالة ووزارة الداخلية،
» » » » »	من 16 الى 19 مارس 1980	»	ارجاع المطرودين
عمال النقل الحضري (الحافلات) فاس	15 يناير 1979	فاس	
	27 يناير 79 (8 أيام)	فاس	
عمال النقل الحضري (الحافلات) الرباط (ا. م. ش.)	16 ماي 1980	الرباط	احترام الحق النقابي، الزيادة في الاجور ، ارجاع المطرودين تم اعتقال 10 عمال وتقديمهم للمحاكمة مع 16 عاملا آخر
عمال ومستخدموا المكتب المستقل للشحن والافراغ بميناء البيضاء	من 29 يناير الى 5 يبراير 1979	الدار البيضاء	
سائقوا الطاكسيات الصغيرة	من 11 الى 16 يناير 1980	الرباط	المطالبة بمراجعة تسعيرة النقل بعد الزيادة في البنزين ...
سائقوا الشاحنات	27 مارس 1980		
الطبقة العاملة المغربية بدعوة من ك. د. ش. ومنظمات نقابية وسياسية اخرى	30 مارس 1979	على الصعيد الوطني	يوم الارض تضامنا مع الثورة الفلسطينية واستنكارا لمعاهدة الاستسلام بين نظام السادات والنظام العنصري الصهيوني
عمال البلديات (ا. م. ش.)	16 ، 17 يناير 1979	على الصعيد الوطني	
عمال بلديات طنجة	9 بناير 1980	طنجة	تطبيق اتفاقية 2 يبراير 1979،زيادة التعويضات، الترسيم
عمال بلديات طنجة	17 يبراير 1980	طنجة	تطبيق اتفاقية 2 يبراير 1979،زيادة التعويضات، الترسيم
جزء من عمال بلدية البيضاء	22 يبراير 1980	الدار البيضاء	طلب تعويضات عن ساعات اضافية ، الترسيم
عمال بلدية الجماعة الحضرية لعين السق بالبيضاء : ن، و ع، ب، (ك. د. ش.)	4 يونيو 1980	الدار البيضاء	احترام الحريات النقابية ، الترسيم ، الترقية الداخلية المنحة عن الاوساخ ، تعويضات السكن والنقل ...
عمال ومستخدموا البلديات التابعين لكل الجماعات بالبيضاء (ك. د. ش.)	19 يوليوز 1980	الدار البيضاء	تضامنا مع عمال جماعة عين السبع
عمالة البلدية بجماعة عين السبع	17 يوليوز 1980	الدار البيضاء	
عمال البلدية بمدينة القنيطرة (ك.د.ش.)	28 يونيو 1980	القنيطرة	التعويض عن الاوساخ ، عن الساعات الاضافية ، الترسيم لباس العمل ، توفير السكن للعمال
عمال بلدية ايموزار كندر	يونيو 1980	ايموزار	
النقابة الوطنية للبترول والغاز(ك.د.ش.)	9 ، 10 ، 11 ابريل 1979	لاسمير بالمحمدية	تأسست هذه النقابة في 18 أكتوبر 1978

« « « « « «	30 يونيو 1980 (96 ساعة)	لاسمير بالمحمدية	تطبيق الفصل 7 من القانون الداخلي ، تخفيض ساعات العمل ، اشراك ممثلي العمال في الترتيب المهني وتسيير الشؤون الاجتماعية والمجلس الاداري والتكوين المهني
« « « « « «	11 يوليوز 1980 (168 ساعة)	لاسمير بالمحمدية	
« « « « « «	25 يوليوز 1980	« «	
« « « « « «	18 ، 19 ، 20 يناير 1980	شركة سنيب بالمحمدية	تماطل الادراة في تلبية مطالب العمال
« « « « « «	1 بيراير 1980 (6 أيام)	شركة سنيب بالمحمدية	تمديد الاضراب الى يوم 12 ـ 2 ـ 1980
« « « « « «	7 ـ 8 مارس 1979	شركة سنيب بالمحمدية	تماطل الادارة في تلبية مطالب العمال : اقرار قانون اساسي ، الزيادة في الاجور ، ضمان وسائل الوقاية
عمال ومستخدموا مؤسسة سبليما (ك. د. ش.)	ابريل 1980 (يومان)	المحمدية	مطالب مادية
	11 يونيو 1980 (يومان)	«	شركة ايطالية وهي المتعهد الرسمي ببناء وتركيب المعمل الحراري للطاقة الكهربائية بالمحمدية . تشغل حوالي 1200 عاملا . تعرض العمال للضرب والاعتداء والاعتقال من طرف السلطات المحلية وقدم للمحاكمة 36 معتقلا . صدرت الاحكام يوم 20 ـ 11 ـ 80 . اتخذ المكتب التنفيذي لـ (ك. د. ش.) يوم 9 ، 11 ، 80 يوما وطنيا للتضامن مع عمال مؤسسة سيكوم .
	20 يونيو 1980 (72 ساعة)	«	
عمال سيكوم (ك. د. ش.)	9 ، 10 اكتوبر 1980	«	
« « «	من 15 الى 28 اكتوبر 1980	«	
عمال برليبي (ا. م. ش.)	25 ـ 1 ـ 1979		مطالب مادية . تضامن مع توقيف ممثليهم
عمال الكونطوار دي مين (شركة الناجم)	8 ـ 2 ـ 1979	الدار البيضاء	
« « (9 أيام)	16 ـ 1 ـ 1980	« «	
عمال معمل صوماكا	17 ـ 2 ـ 1979	« «	
« « «	21 ـ 2 ـ 1979 (لا محدود)	« «	
« « «	6 ـ 5 ـ 1979	« «	

» » »	3 ـ 6 ـ 1980	« «	ضد توقيف عضوين من المكتب النقابي ، الاستجابة للملف المطلبي .
الشركة المغربية للمشتقات الصناعية من الذرة (صوماديم)	من 24 يونيو 1980 الى 21 يوليوز 1980		الزيادة في الاجور بنسبة 30٪ ، الزيادة في التعويض عن الكراء ، ترسيم العمال المؤقتين
عمال مؤسسة البناء والتجهيز الصناعي	8 مارس 1980 (لا محدود)		تشغل هذه المؤسسة حوالي 360 عاملا
عمال معمل كليصون للحديد	13 يبراير 1980		الزيادة في الاجور بنسبة 80 ٪ ، تعويضات النقل ، السكن ، القفة .
عمال شركة البنايات المعدنية والصناعات الميكانيكية (كميم) (ك. د. ش.)	13 يونيو 1980 (لا محدود)	المحمدية	احتجاجا على طرد مجموعة من العمال المطالبة بفتح حوار
مؤسسات : سيتروين ، صوماكا ، كلينصون كروسو ، الشركة الجديدة للاوراش	18 يونيو 1980		ساهم في هذا الاضراب حوالي 7000 عاملا ضد الطرد وضد انكار الحق النقابي .
عمال مؤسسة فيلروك للنسج	12 أبريل 1979 (لا محدود)	الرباط	تم اعتقال عضوين من المكتب النقابي .
معمل كينك ماي لصنع النسيج	13 نونبر 1979 (لا محدود)	المعارف ـ الدار البيضاء	عدم توفر المعمل على الشروط الضرورية الصحية .
عمال معمل النسيج بمعمل روبان	21 يوليوز 79		
عمال معمل كوطيف للنسيج بفاس	17 يونيو 1979 (48 ساعة)	فاس	دعم الملف المطلبي .
عمال معمل كوطيف للنسيج بفاس	20 يونيو 1979 (48 ساعة)	»	تحول الاضراب الى لا محدود بعد طرد 37 عاملا .
عمال معمل كوطيف للنسيج بفاس	2 يوليوز 1979	»	دعم الملف المطلبي .
عمال معمل بيدامو للنسيج	6 مارس 1980	الدار البيضاء	تحسين الاجور ، الانخراط في صندوق التعاضدية
عمال معمل فيلان للنسيج (صبغ الخيوط والثوب)	21 مايو 1980 (لا محدود)	الدار البيضاء	على اثر حملات الطرد والتوقيف . تاسس هذا المعمل سنة 1972 ويشغل 250 عاملا وعاملة اضافة الى اداريين .
عمال ايكوما للنسيج	19 مارس 1980	المحمدية	
عمال مجموعة الغزل بقصبة تادلة ووادي زم (ايكوز) (ك. د. ش.)	24 يناير 1980 (48 ساعة)		تماطل في تلبية المطالب وفي تطبيق بروتوكول 10 مارس 78 و 3 ابريل 79 . يشغل هذا المركب حوالي 300 عامل.
»	31 يناير 1980 (3 ايام)		
»	4 يبراير 1980 (3 أيام)		
»	27 دجنبر 1980 (24 ساعة)		
عمال مؤسسة ليكسو طيكس	11 يبراير 1980 (لا محدود)		بعد حملات الطرد التي شملت حوالي 171 عاملا .
عمال مؤسسة صفدي اخوان	3 ابريل 1980 (لا محدود)		الانخراط في صندوق التقاعد ، تعويضات السكنى والقفة

			والنقل ، تطبيق الزيادة الحكومية . يتكون هذا المركب من ثلاث معامل تشغل حوالي 400 عامل .
معمل الألمنيوم	27 يونيو 1979 (48 ساعة)	الرباط، المحمدية، البيضاء	الملف المطلبي
« «	3 يوليوز 1979 (72 ساعة)	الرباط، المحمدية، البيضاء	الاحتجاج على الطرد الجماعي للعمال (90 عاملا مطرودا)
المعامل المغربية	5 يوليوز 1979	الرباط	ضد طرد المسؤول النقابي (ك. د. ش.)
« «	12 يوليوز 1979 (لا محدود)	الرباط	تنفيذ الزيادة الاخيرة ، اداء الشهر 13 ، ترسيم المؤقتين رفع تعويض النقل والكراء رفع منحة التمدرس ...
« «	استمرار الاضراب الى 23/7/79		المطالب المحققة : الاعتراف بالشهر 13، تنفيذ الزيادة الأخيرة
عمال شركة كوكاكولا « « «	21 يناير 1980 (لا محدود) 5 مارس 1980 استمرار الاضراب	البيضاء ـ سلا	الترقية ، منحة الاقدمية ، تعويض عن العمل الاضافي ، تحسين ظروف العمل ...
فلاحو قرية حد كورت	نوفمبر 1979	قرب مدينة وزان	مواجهة الفلاحين لممثل برلماني اثر محاولته الاستيلاء على قطع من ارض الجماعة وللمخازنية الذين تدخلوا لمساندة الممثل البرلماني . تعرض عدد من الفلاحين للاعتقال والسجن بين شهر وثلاثة أشهر .
فلاحو جماعة اولاد سعيد الواد	دجنبر 1979	ناحية بني ملال	واجه الفلاحون جماعة من اقطاعيي المنطقة اثر احتلال هذه الجماعة لمساحات شاسعة من الاراضي وتحويلها الى مراعي لماشيتها . تعرض الفلاحون لانواع القمع من طرف القوات المساعدة والدرك : اقتحام المنازل ، الضرب ، الاعتقال ثم محاكمة 29 فلاحا بين 6 اشهر وثلاث سنوات ...
فلاحو قبيلة الاوداية	مارس 1980	تمارة ـ الرباط	انتزاع جزء من اراضي كيش الاوداية .
فلاحو قبائل الاوداية	يوليوز 1980	احواز مراكش	اعتصم الفلاحون بشكل جماعي بضريح مولاي علي الشريف اثر تحويل مياه مناطقهم ...

تختلف نضالات الفلاحين وسكان القرى عموما في طابعها الرئيسي عن شكل الاضراب . هناك مثلا : تنظيم مسيرات جماعية لمقرات السلطات المحلية او الاقليمية أو المركزية احيانا ، رسائل وعرائض جماعية موقعة بالبصمات ، الاعتصام والمواجهة بالهراوات والعصى ، ويشترك في هذه الصور النضالية السكان من مختلف الاعمار والمهن ... لهذا فاستعمال الاضراب هنا فيه نوع من التوسع والتجوز .

الاستعمار الاسباني بالمغرب : 1860 - 1956

رويدو ايبريكو باريس 1973 المؤلف : ميكيل مرتين
ترجمه الى العربية : محمد الشاوني

تقديم :

ان كتاب ميكيل مرتين «الاستعمار الاسباني بالمغرب» يتناول بالدرس مرحلة حاسمة من التاريخ الحديث لبلادنا . وفضلا عن ذلك فانه يسد ثغرة هامة عندما يركز على التأريخ للاستعمار الاسباني في شمال المغرب . ومما يزيد من أهمية هذا الكتيب كونه يتطرق لتجربة المقاومة الشعبية المسلحة للتدخل الاستعماري الاسباني في شمال وطننا وتصدي الجماهير الريفية لاحتلال سبتة ومليلية والجزر الجعفرية . وتحظى تجربة البطل الوطني محمد بن عبد الكريم باهتمام خاص من طرف الكاتب نظرا لدورها الطلائعي في مقاومة الاستعمار في بداية العشرينات ، واعتبارا للانعكاسات التي كانت لها في اسبانيا ... وعلاوة عن ذلك ، يبرز الكاتب عدة جوانب من تاريخ بلادنا ما زالت ، ولاسباب سياسية واضحة ، في طي الكتمان .

وبعيدا عن الايديولوجية الاستعمارية ، ومن منطلق تقدمي يحلل الكاتب العلاقات المغربية الاسبانية على امتداد مرحلة غير قصيرة . وبالرغم من انتمائه للحزب الشيوعي الاسباني ، ينتقد ميكيل مرتين ــ وبشكل لاذع ــ ممارسات ومواقف اليسار الاسباني عموما والحزب الشيوعي خصوصا ، ازاء المسألة الاستعمارية . ويحاول الكاتب ، من زاوية غير تبريرية تفسير أسباب انغماس اليسار الاسباني ــ بعد عقد العشرينات ــ في سياسة استعمارية شوفينية لا تختلف في الكثير من جوانبها عن السياسة الامبريالية للبرجوازية الاسبانية . وفي نفس الوقت الذي يحلل فيه الكاتب بعض الخصائص المميزة للامبريالية الاسبانية « القزمة » ، يحاول ربط هذه الممارسات وتفسيرها على ضوء الاوضاع السياسية الاسبانية وبارتباط مع السياسة الامبريالية للدول الكبرى . وبالرغم من الاخطاء التاريخية التي يتضمنها الكتاب ــ والتي سنحاول تصحيحها قدر المستطاع ، خلال ترجمتنا للكتاب ، وبالرغم من التفسيرات والمواقف الخاطئة ، والمثالية في كثير من الاحيان التي يطرحها الكاتب الاسباني : نعتبر من المفيد وضع هذه الترجمة بين يدي القارىء المغربي حتى يتمكن من الاطلاع على جوانب التراث النضالي لشعبنا ...

« المترجم »

« الاستعمار الاسباني بالمغرب »

1860 ـ 1956 ميكيل مرتين

مقدمة :

لم يجد الاستعمار الاسباني مؤرخه بعد . والمدهش ان البحوث التاريخية تركت جانبا الممارسات الاستعمارية ، وتركزت على الاثار التي خلفتها في شبه الجزيرة حداث المستعمرات : 1898 في كوبا ، 1921 في المغرب ... ففي أقصى الأحوال تخصص فقرة أو فصل للاشارة بشكل عابر لمميزات الامبريالية الاسبانية . والاستثناءات النادرة التي تثبت قاعدة الصمت لا تتعدى الحوظات سريعة حول المشكل الكوبي . لعل الارتجاج الذي أحدثه فقدان كوبا في أوساط المثقفين يفسر هذا الاهتمام الضئيل ومع ذلك ما زال المغرب في قعر دور الارشيف رغم انه لعب في التاريخ الحديث لبلادنا ، دورا حاسما أكثر من البلد الانتيلي .

«ليس ثمة دراسة واحدة تتطرق للاستعمار الاسباني في منطقة شمال المغرب . فمن منظور استعماري توجد مواد مطبوعة تفتقر لكل دقة وتنحصر في التغني « بالمآثر الاستعمارية » ، وسرد المعارك بشكل يصبح معه أي شبه مع الواقع من قبيل الصدفة المحض . اما داخل المعسكر الماركسي فلا يوجد ولو منشور أو مقالة حتى من النوع الرديء . وذلك يفسر جزئيا كبح ولبس اليسار ازاء المسالة الاستعمارية . لان « ما العمل » ظل بدون أساس ولا جواب ما دامت المسالة الاستعمارية غير مهضومة نظريا .

ان الصفحات التالية لا تدعي أكثر من كونها محاولة اعادة جمع للمعطيات تفكر في اشكالية الاستعمار الاسباني في المغرب . في خمسة أجزاء : **التقسيم** ، **الاحتلال** ، **التهدئة** (1 و 2) ثم **الجلاء** ، نحاول وصف الميكانيزم العسكري والسياسي الذي استعملته اسبانيا لتبقي الشعب المغربي تحت نير الاضطهاد الاستعماري .

يمكن تلخيص المسالة على الشكل التالي : وجدت اسبانيا نفسها في مواجهة مجتمع منظم له حضارته الخاصة ويمتاز ـ رغم تخلف مستوى نموه ـ بحبه للحرية وتعلقه بالارض وانسجامه وحسه الوطني . وهي خصال ظلت راسخة على امتداد حرب الاحتلال ، هذا المجتمع الذي تعرضت أطره ونخبته القيمة للتصفية لتستبدل باقطاعات سلطوية مرتزقة ؛ وكان ، فضلا عن ذلك ، عرضة للتخريب الشامل والتفقير ، وعانى منذ الثلاثينات من محاولات التفتيت ، نجح في استرجاع استقلاله في خضم موجة تصفية الاستعمار التي اثارتها نتائج الحرب العالمية الثانية .

وبارتباط مع ذلك يتعلق الامر ببيان كيف ان الطبقة العاملة الاسبانية

التي كانت تعارض الاستعمار بحزم حينما كان آلاف الاسبانيين يسقطون في الريف ، لم تعرف كيف تقدر حق قدره ذلك الحليف القوي الذي كانت تمثلـه الحركة الوطنية المغربية ، والذي كان يرتبط عبره نضال الطبقـة العاملـة الاسبانية بحركة تحرير الشعوب العربية برمتها وبحركات شعوب مستعمرة اخرى . في ظل تأثير الايديولوجية الاستعمارية أدى سـوء الفهـم والمواقـف الخاطئة التي كانت تتبناها الطبقات الكادحة والاحزاب التي تمثلها ، الى عدم ادراك ضرورة وضع حد للمغامرة الاستعمارية ؛ ليس بدافـع الـواجـب الاخلاقي ـ الاممية البروليتارية ـ ازاء الشعوب المضطهدة من طرف الدولـة الاسبانية ، وانما فوق ذلك وبالخصوص لانـه السبيل الوحيد الملائم للمصالح الوطنية الاسبانية ، ولمصلحة التطور الديموقراطي ، لان الاستعمار ساهـم بقسط وافر في توليد القوى الفاشية المعادية للديموقراطية . وبعد سنة من اندلاع حربنا الاهلية كان السكان الموجودون تحت نظام فرانكو أكثر عـددا من السكان التابعين لحكومة مدريد مع تساوي عدد الجيوش تقريبا . ومن البديهي حتى من زاوية علم الاستراتيجية المتداول في المقاهي ، ان من يوجد سكان معادون خلف جيشه لا يمكنه الابقاء على جيشه في ميدان القتال الا اذا توفـر على جيش آخر لا يقل عددا عن الاول ، يقوم بحراسة المواصلات ويحول دون وقوع أعمال التخريب ويكافح حرب العصابات . لكن من الواضح انه لم تكن هناك أية حركة جماهيرية في مؤخرة جيش فرانكو . والمغرب هو الحالة الاكثر دلالة في هذا الشأن : لماذا لم تحدث أي انتفاضة في المغـرب ؟ ان الحقيقـة التي لا جدال فيها انه لم يبذل أدنى مجهود لاحداثها ، لان ذلك كان يعني تحويل الحرب ثوريا . ان اقناع المغاربة كان يقتضي استقلال المغرب . لكن ، وقعت التضحية بأحسن فرصة استراتيجية في الحرب لارضاء مصالح الدول العظمى ، وبدافع الأمل الوهمي في طمأنة الامبريالية الانجلو ـ فرنسية . رب معترض يعتقد أنه من سوء الذوق اثارة هذا الجانب من تاريخ البروليتاريا الاسبانية على أساس الظن ان هناك حقائق يجب أن تبقى ، ابدا ، في طي الكتمان . لكن أليس كارل ماركس القائل ان الحشمة شعور ثوري ؟ على كل حال ، ليس فـي الاحكام فضاضة بالنسبة لاحد . والرجال بنجاحاتهم وأخطائهم ماضون والوقائع باقية ومنها تغذي الشعوب تجربتها وترشد لمواجهة وحل مشاكلها بصعوبات اقـل .

وقد كان من الضروري الادلاء ببعض الاحصائيـات حـول مـا يسميـه المستعمرون « العمل التمديني الاسباني بالمغرب » ، لكـن ذلـك مستحيـل لانعدامها . وهي منعدمة لان اسبانيا لم تفعل شيئا . في سنة 1956 عند ما طرد الاستعمار الاسباني كانت نسبة الاميين أعلى منها في 1912 ، حيث فاقت 95 ٪ من السكان المسلمين . ولم تتجاوز آخر ميزانية للتعليم سنـة 1955 احـدى

[illegible] عشوة بسيطة . وكان عـدد الدراسيــن في صف الباكالوريا يبلغ 20 فقط من المغاربة ابناء الايسياد الاقطاعيين الذين يتواطئون مع مضطهدي شعبهم . ويكفي القول انه بعد مرور قرابـة نصف قـرن مـن الحماية ، لم يكن هناك أكثر من 28 طبيبا مغربيا في المنطقتين ، وكان يمكن عد المستشفيات في المنطقة الاسبانية على أصابع اليد الواحدة . وكانت تصدر 11 جريدة ثلاث منها في أقل من 10.000 نسخة والعشر الباقيــة لا تبلـغ الف نسخة . وتجسد المجهود الاكبر في اقامة 38 ميدانا رياضيا و 29 قاعة سينمائية و 60 كنيسة كاثوليكية وأربعين معبدا يهوديا . وحصيلة مجمل هذه الوضعية الاستعمارية ، وجود 16.869 مغربيا . اعمار 4.000 دون 18 سنة ، من مجموع 17.500 سجينا يقضون عقوبات في السجون الاسبانية . وأزيد من 5.000 عامل عربي كانوا ضحية قرابة 7.000 من حوادث الشغل السنوية . الامر الذي جعل المنظرين الاستعماريين يطرحون موضوعات عنصرية حول النزعة الاجرامية والعجز الفطري للسكان المحليين .

وكان من المناسب ايضا ، القيام بتحايل للوطنية المغربيــة يتطـرق لمختلف مراحل تطورها . انتفاضات فلاحيــة ، تحريــض وســط جماهيــر البرجوازية الصغيرة في المدن التقليدية العتيقة وتدخل الطبقة العاملة ، كـل هذا تمخض عن استقلال صوري محض ذي مضمون اقطاعي . وذلك لان المراحل الاخيرة من التحرير تم التوصل اليها بالتعامل مع المستعمريــن أكثـر مـن الانتصار عليهم . الا ان ذلك يتطلب عملا جديدا ، مخصصا للتعمق في تناقضات حركة التحرير الوطني المغربية . والمسألة معقدة بما فيه الكفاية وذات اهمية كبيرة بحيث لا يمكن تقديمها في بضع سطور . ومن هنا ياتي كوننا فضلنا كل لحظة ، اعطاء الخطوط العريضة التي توضح النشاط الاستعماري بدل تحليل اشكالية الاحزاب الوطنيــة .

وليس من الكلام الزائد ان ننبه القراء الى ان المحاولة مشحونة بنقـط الشك ، وان كثيرا من وجهات النظر قابلة لكثير من النقاش . بعض الصفحات فيها مجازفة بينما أخريات فيها خشية وتردد . لا يمكن اعادة ملء فراغ تاريخي بين عشية وضحاها . ان الظرف الحالي الذي تجتازه الحركة العمالية والثورية يتطلب باستعجال تسليط الاضواء على النقط المجهولة مثل الموضوع الـذي نحن بصدده ، وكذا على المظاهر المعروفة من التاريخ الحديث للبروليتاريــا الاسبانيــة .

عسى ان لا تكون هذه المساهمة أكثر من خطوة . الخطوة الاولى .

1) الـتـقـسـيـم :

« لقد ابرزت (الراسمالية) الآن حفنة (اقل مــن عشــر سكان العالم . وفي أبعد حالة من « التسامح » والمغالاة في التقدير

أقل من الخمس) من الدول في منتهى الغنى والقوة تنهب العالم كله » . **لينيــن** .

- في أواسط القرن 19 شرعت اسبانيا بتوسعها الاستعماري في افريقيا . عندما فقدت البرجوازية الاسبانية كل ممتلكاتها الاستعمارية باستثناء كوبا والفلبين ، وجهت أنظارها الى الحصون الاستعمارية التي كانت بلادنا متلكها منذ عهد الملوك الكاثوليكيين . وفي سنة 1848 بعد 18 سنة من احتلال فرنسا للجزائر احتلت القوات التي انطلقت من مالقة بقيادة الجنـرال سيرانــو ، الجزر الجعفرية . وذلك أصل تدهور علاقات اسبانيا مع المغرب لان رد المغرب كان الضغط على سبتة ومليلية . وحوالي 1851 اقترحت اسبانيا على كل من فرنسا وانجلترا عملا مشتركا ضد سواحل الريف ، لكن حرب الشـرق حولت اهتمام الامبريالية الانجلو ـ فرنسية . ومع ذلك ، ففي 1859 اتخذت مقاومة التعسفات الاسبانية من طرف سكان منطقة انجرة المجاورة لسبتة ، كذريعة من طرف أودونيل لغزو المملكة المغربية . وبرزت الاحداث التي طرأت في الليلة من العاشر الى الحادي عشر من غشت من سنة 1859 ، اعلان الحرب من طرف الكورتيس في 22 أكتوبر بموافقة كل الاحزاب السياسية . وقبل أيام من ذلك ، كان السفير الانجليزي قد تكلف بوضع حدود التحرك الاسباني في رسالة موجهة الحكومة الاسبانية ، وذلك بالعبارات التالية :

« يشرفني ان أحيط معاليكم علما بأنني توصلت بتعليمات مـن كـاتب الدولة الاول للملكة ، عاهلتي ، بان أطاب من حكومة صاحب الجلالة الكاثوليكية تصريحا مكتوبا يكون مفاده أنه اذا ما أدت الخلافات الحالية الى الحرب ، واذا ما كان لقوات صاحبة الجلالة الكاثوليكية ان تحتل طنجة نتيجة أعمال الحرب هذه ، فان احتلال الموقع المذكور سيكون مؤقتا ولن يستمر بعد المصادقة على معاهدة السلم بين المغرب واسبانيا . ان حكومة صاحبة الجلالة مضطـرة للمطالبة بهذا التصريح لان احتلال طنجة سيكون ، اذا ما تم ، مناقضا لأمـن جبل طارق البريطانية » .

وبالرغم من هذا التحذير من طرف الامبريالية الانجليزية ، قرر أودونيل السير قدما الى الأمام وهو على بينة من انه لن يحقق الغايـات التـي كـان يتوخاها . واجتاحت أركان البلاد من أقصاها الى اقصاها موجة من الدعايـة السياسية الشوفينية . وقد قورنت وقتها الملكة ايزابيل الثانيـة بايزابيـل المسماة الكاثوليكية ، وقيل انها ستحقق في افريقيا ارادة الملكـة العظيمـة ، ايزابيل الاولى . ودخلت الملكة نفسها في اللعبة حين أهدت جواهرها للمشروع مذكرة ان ايزابيل الاولى كانت قد أهدت ، هي الاخرى جواهرها من أجل سفر كولمبوس . بل نطقت بقولتها « التاريخية » : « لتبع جواهري ان كان ذلـك ضروريا لنجاح مشروع من القداسة بهذا المكان . ولتنفق ثروتي بدون أي

حرج . سانقص « نترفي ، ان وشاحا وضيعا سيلمع في عنقي احسن من عقود الماس ان كانت هذه العقود قادرة على الدفاع عن شرف اسبانيا » .

وكانت الحكومة تصرح بأن وازعها ليس رغبة مسبقة في التوسع الترابي ولا أية روح غزو ، وان الهدف الذي ترمي اليه هو غسل العار من شرف اسبانيا. وحولت الصحافة صبغة المسألة كلية ، وأعطت لهذه المغامرة الاستعمارية طابع حرب صليبية مقدسة . وكانت اناشيد التحميس القومي تقول :

الحرب ، الحرب على الافريقي الجسور
الحرب ، الحرب على المغربي الكافر
الذي أهان شرف اسبانيـا
فالحرب ، الحرب ، للنصر أو الموت .

ووصفت قصائد استعمارية المغربي على الشكل التالي :

همجي في مظهره
قبيحة وقذرة طلعتـه
كل شيء فيهـم غريب
مرعب ومثير للاشمازاز معا
وان دهش فلا يتـردد
يفزع ولا ينزعـج
يخيل أن الجندي الاسباني
يصارع شياطين وليس رجـالا .

لكن الحقيقة غير ذلك . فبعد احتلال فرنسا للجزائر ، اصبحت افريقيا أقرب وصارت تبدو خصوصا لفلاحي الاندلس وشرق اسبانيا ، وكأنها جنة . في سنة 1859 كان قد استوطن الجزائر خمسون مهاجر اسباني . لم لا يتحول المغرب الذي غزاه أودونيل الى الدورادو في متناول ايدي الفلاحين الاسبانيين البؤساء ؟ . وفي كتابه المتبجح بالنصر والمعنون **بوميـات شاهـد عيـان في افريقيا** حاول بيدرو أنطونيو ألركون محو هذه التساؤلات من ذهنـه حيـث يقول : « تحتل فرنسا الجزائر منذ ثلاثين سنة ، وتحكم الارض التي تطأها ولا تحظى بالطاعة الا حيث تمتشق حراب البنادق . وتخدم الارض وتستغلها وتحافظ هناك على جزء كبير من سكانها الموظفين في الحيوية ، وتفيدها الجزائر في الاخير ، كمنفذ لوفرة ما لديها من رجال وصناعات وانشطة معنوية . لكن هل نحن في نفس الحالة ؟ هل لنا فائض من السكان ؟ هل نبالغ في النشاط ؟ هل نحتاج مجالات لتشغيل هذه النشاطات ؟ هل وقع انجاز كـل شيء فـي بلادنا ؟ أليست سبراموربنا والمانتشاومنات المناطق الاخـرى مـن شبـه الجزيرة خالية من السكان وغير مزروعة ؟ عواصمنا ليس فيها ما ينجز ؟ هـل لدينا الى هذا الحد فائض في السكك الحديدية والسفن والمعامل وقنوات الري

والملاحة والمواني‌ء الصالحة والطرق للعربا تبل وحتى سبل صالحة للمرور؟...
«لكن اين ساتوقف ؟ مالنا وهذا كله ؟ **واجبي في** هذا الكتاب ليس المناقشة أو اصدر أحكام في في الأمور وانما تسجيل الانطباعات التي تبعثها في نفسي » .

في أوائل 1860 شرع الجيش الاسباني في مسيرته نحو جنوب سبتة . وبموازاة ذلك تابع الاسطول سيره عبر الابيض المتوسط مضطلعا بدور قاعدة التموين . ولم تقترب القوات من تطوان الا في الرابع من يبراير واستولت عليها بعد يومين من هذا التاريخ . ومن القرارات الاولى التي اتخذها الغزاة ، تحويل المسجد الرئيسي الى معبد كاثوليكي ، واضعينه تحت حماية سيدتنا قديسة الانتصارات . وبعد شهر ونصف واثر انهزام المغاربة من جديد في وادراس احتل أودونيل موقع فندق عين الجديدة الهام . وبعدها أسـرع المسامـون للمطالبة بالسلم ، واتفق على الهدنة يوم 25 مارس . وتضمنت الاتفاقية التي وقع عليها فيما بعد ، توسيع مجالي سبتة ومايابة ، وضبط حراسة المساحات المتاخمة لسبتة والصخور ، كما تخلى المغرب عن ايفني (مع ان مفاوضينا ما كانوا يعلمون علم اليقين أين توجد) ، والتزم بدفع تعويض مـالي قـدره عشرون مليون ريال ، وظلت مدينة تطوان محتلة كضمانة لاداء التعويض . والحصيلة المزرية هذه ، جاءت نتيجة ضغط انجلترا التي لم تكن ترغب حينئذ ن يذهب الجيش الاسباني أبعد مما ذهب ، واتت بها الوحـدات العسكريـة الاسبانية نفسها التي بينت الكيفية التي بها لا يجب القيام بالحرب . وفـي مقال له لجريدة **نيويورك تايمز تربيون** ، عبر انجلس عن عدم فهمه كيف ان احتلال تطوان كان صعب المنال من طرف جيش مـن 40.000 رجـل ، يقـول انجلس : « أجل ، لم تكن هناك طرق جيدة ، لكن ، كيف تدبـر الفرنسيـون امرهم في الجزائر والانجليز في الهند ؟ . وفضلا عن ذلك ، فبغال وخيول الجر الاسبانية لم تتعود الطرق الجيدة في بلدها نفسها حتى ترفض الـدب علـى الارض المغربية » وفي تعليق صحفي آخر كتب انجلس : « لا يمكن تكـوين فكرة راقية عن هذا الجيش . واذا استمر اودونيل في النهج الذي سار عليه حتى الآن ، سيسقط شرفه بنفسه ، وسيرمي شهرة الجيش الاسباني بالعار رغـم اللهجة الرنانة لبلاغاته العسكرية . هناك شيء اكيد فقط : اذا دافع المغاربة عن أنفسهم خلال سنة ، فسيكون على الاسبان تعلم الكثير من الفن العسكري قبل ارغام المغرب على عقد الصلح » .

لقد حال تدخل انجلترا دون الانكشاف الفوري لقيمة الجيش الاسباني بوضوح ، وشل بذات الوقت مقاصد مدريد الاستعمارية . لكن التاريخ سيأخذ على عاتقه تبيان صحـة هـذا الحكـم لمستعمرينـا ، خصـوصـا ، حيـن وقعت سنة 1893 واحدة من حوادث الحدود العديدة في منطقة ماليليـة ، تلـك الحوادث التي أظهرت بجلاء تصميم المغاربة الدائم على مقاومة الاسبان . ففي

السنة المذكورة ، اصدر الجنرال مركاليو ، الحاكم العسكري لقلعة مليلية ، بأمر لتنطلق الاشغال لاقامة حصن سيدي عرياش ، وفي نفس اليوم حطم الريفيون الاشغال المنجزة وكرروا نفس العملية في اليوم التالي . وكانت نية الجنرال المذكور تستجيب للصلاحيات المعترف بها لاسبانيا في معاهدات مختلفة ، آخرها تلك التي أوقفت بموجبها حرب 1860 ، والتي عارض الشعب المغربي دوما وضعها حيز التنفيذ . ولم يكن بالامكان تنفيذ الاتفاقيات المفروضة على المغرب بالقوة ولو بعد 23 سنة . وكانت الحرب الجديدة صورة ساخرة لمأساة 1860 المجانية . وفي أواخر السنة ، وبفعل وجود عشرين ألف جندي اسباني اضطر الريفيون الى القاء السلاح ، ووقع السلطان ، مجبورا ، اتفاقية مراكش التي التزم بمقتضاها بمعاقبة مقترفي الاعتداءات ضد الاسبان . وفي نفس الوقت صدت قبائل ايفني بعنف محاولات استطلاع المنطقة . وأشرف القرن 19 على نهايته بينما ظل استعمارنا عاجزا عن تنفيذ الاتفاقيات المفروضة على السلطان . وبدأ القرن الجديد في ظل تعامل المغاربة والاسبان ، في حين يطرد الكوبيون والفيليبيون الاستعمار الاسباني . وشهد العقد الأخير من القرن 19 تزامن نضال هذه الشعوب المستعمرة الثلاثة ضد الامبريالية الاسبانية . وقد عبر خوسي مارتي الزعيم الثوري الكوبي عن تضامنه مع الريفيين في مقال نشر في جريدة **الوطن** بتاريخ 31 اكتوبر 1893 : « أبدا لا يذعن جنس مضطهد ، ابدا ، لا يستسلم شعب احتل الاجنبي الارض الممزوجة بعظام أبنائه . لقد عاد الريف الى الحرب ضد اسبانيا . وستعيش اسبانيا في الحرب مع الريف الى تخلي بلد الريفيين المقدس .

وبقدر ما كان كل قلب شريف اسباني النبض مع بلايو في كوفادونكة بقدر ما هو اليوم مغربي النبض مع الريف ضد الاحتلال غير العادل من طرف اسبانيا . ان اغراق شعب في بحر من الدماء أو اذلاله بالرذائل لا يشكل شهادة شرعية للامتلاك لا في الريف ولا في كوبا . هناك رحى الحرب دائرة ، وليكن النصر حليف صاحب الحق . واسبانيا متورطة حيث يدور صراع غير عادل . تخسر كل ما تملك بدون شرف ، وتتدخل للعمل الخاص دون وظيفة الجيش لابنائها الثواني غير النافعين وأوباشها الخبثاء ومجنديها الاشقياء . هل اسبانيا الجديدة هي تلك التي تغرق اليوم المغرب في الدم ، وتدعي غدا ، وأن بدون جدوى هذه المرة ، اغراق المطامح والثقافة العليا لكوبا في الدم ؟ ما دام الاسبانيين ما يعيشون به من الأكلة الجماعية للجيش ومن رخاء المستعمرات لن يكون هناك رد فعل في اسبانيا . فلنكن مغاربة : هكذا ، وكان الحق يوجد بالجانب الاسباني ، نحن الذين سنموت هذه المرة على ايدي اسبانيا ، سنكون اسبانيين . لكن فلنكن مغاربة ! » .

أدي فقدان آخر ما تبقى من امبراطوريتنا الاستعمارية في امريكا سنة

1898 الى وضع القضية المغربية في المقام الاول من التحرك الخارجي الاسباني ومن كل تلك الاتجاهات التي شبهها **كنيفيط** بدوراة الرياح ، لم يبق سوى الجنوب : التوسع عبر افريقيا . وفضلا عن هذا الواقع المتمثل في كون قضية المغرب تصدرت مشاكل الساحة محليا ، انضاف الواقع الاوروبي الذي ضغط على وتيرة الاحداث في المغرب ليؤدي الى وضع حد لنظام الاستقلال واطلاق العنان للجشع المندفع من أجل تقسيم هذا الشعب .

وكما هو منطقي ، كانت صاحبة المصلحة في التعجيل بسير الاحداث هي فرنسا التي كانت قد احتلت الجزائر وتونس ووصلت من هناك غربا الى حدود المغرب ، وتراءت لها منذئذ الامبراطورية الشمال ـ افريقية التي ستصبح بعد مدة واقعا قويا بفضل المجهود الاستعماري المتواصل . ومنذ 1901 أوقفت فرنسا أطماع ايطاليا في اتفاقية تخلت فرنسا بموجبها عن بلاد طرابلس كلية ، مقابل موقف مماثل لروما بخصوص المغرب . وفي العام التالي ، اقترحت فرنسا على اسبانيا اتفاقية تترك بموجبها الاولى لنفسها النفوذ على منطقة مراكش وتخول لاسبانيا السيادة على منطقة فاس وتازة وحوض سبو وشمال البلاد كله . ولم ترد اسبانيا قبول العرض الاستعماري الفرنسي المفيد بالنسبة لها ، بسبب تخوفها من الاقدام على التصرف في ظهر انجلترا . وقد أثار توغل انجلترا في مصر اهتمام فرنسا بالسودان وارسالها بعثة القائد **مرشان** الى منطقة النيل الأبيض ، تلك البعثة التي تحصنت فاشودة ، الا ان تدخل الجنرال الانجليزي **كتشنير** بسرعة جعل الفرنسيين ينسحبون . وبعد ست سنوات ، عقدت انجلترا وفرنسا اتفاقية سرية تعلن لندن بموجبها انها لا ترغب في تغيير الوضع السياسي المصري ، وتعترف أن الحفاظ على النظام في بلاد المغرب منوط بفرنسا ذات المستعمرات المتاخمة لهذا البلد على امتداد حدود عريضة . واعلنت باريس من جهتها انها لا تسعى لتغيير الوضع السياسي المغربي وانها لن تضع عراقيل لنشاط انجلترا في القاهرة . ونص البند الاخير على ان البلدين بدافع الشعور بصداقة مخلصة لاسبانيا ، يعيران اهتماما خاصا لمصالح هذا البلد الناتجة عن موقفها الجغرافي وعن ممتلكاته على الساحل المغربي في الابيض المتوسط ، وحث البند المذكور الحكومة الفرنسية على الوصول الى اتفاقية بهذا الشأن مع الحكومة الاسبانية .

لم تكن الحكومة البريطانية غير مكترثة بمن هي الدولة التي ستحتل مقابل جبل طارق ، ومنذئذ كانت تفضل أن تكون اسبانيا كأمة دون وزن ولا قوة اطلاقا . لكن الاتفاقية الفرنسية ـ الاسبانية المؤرخة بـ 13 أكتوبر 1904 تركت خارج المنطقة الاسبانية فاس وتازة وقلصت بذات الوقت منطقة نفوذ اسبانيا في جنوب المغرب ، ونصت الاتفاقية على ان توضع طنجة ومنطقتها تحت نظام خاص . ونص البند الثالث على ان الدولتين ستتدخلان في حالة عجز

النظام السياسي المغربي والحكومة الشريفة على الاستمرار في البقاء ، أو في حالة ضعف هذه الحكومة أو وهنها المستمر عن تثبيت الامن والنظام السياسي.

لكن لم يحسب لألمانيا القيصر حسابها بيد أنها كانت تريد نصيبها . وللمطالبة به تقدم **غليوم الثاني** شخصيا الى خليج طنجة على متن الباخرة **هوهينزلرن** ، ولقى أمام مبعوثي السلطان الخطاب التالي : « نأمل ان المغرب في ظل سيادة صاحب الجلالة الشريفة سيكون مفتوحا للتعايش السلمي بين جميع الدول بدون أي احتكار أو الحاق وعلى قدم المساواة المطلقة . ان هدف زيارتنا هو أن يعلم الجميع اننا مصممون على بذل كل ما أوتيت ايدينا من اجل صيانة مصالح المانيا في المغرب . وبما اننا نعتبر السلطان كامل السيادة والاستقلال ، فنحن نود التفاهم معه للحفاظ على هذه المصالح .

وسمع الصدى لتوه في اوروبا ولاح شبح الحرب الاوروبية ، ولتفادي الخطر أستدعي مؤتمر الجزيرة الخضراء . وكان الجدال حادا بين الامبرياليتين الألمانية والبريطانية من يناير الى ابريل 1902 . ولم ترض النتيجة أيا من هاتين القوتين . وكان الحل بين الاطروحتين المتعارضتين : تدويل المغرب أو تقسيم النفوذ بين اسبانيا وفرنسا ؛ وتدويل تلك المسائل التي تمس بالمصالح الاقتصادية العامة ، والاعتراف في المسائل الباقية بوضعية امتياز ، لفرنسا واسبانيا .

وبالرغم من أوفاق الجزيرة الخضراء هذه ، ظلت اسبانيا وفرنسا عازمتين على انتهاز كل الفرص المتأتية للاستمرار في التوسع بالمغرب . ففي 1907 احتل الاسبان العرائش والقصر الكبير والفرنسيون الدار البيضاء . ولما شعرت المانيا ان تقسيم المغرب يتم بسرعة قررت الاقدام على تظاهرة قوة على غرار ما فعلته سابقا بطنجة . وفي فاتح يوليوز 1911 أرست البارجة الالمانية **بنتير** في مياه اكدير ، وفي نفس اليوم سلم السفير الالماني بباريس مذكرة الى الحكومة الفرنسية يبرر فيها وجود الباخرة الحربية الالمانية في أكادير بنفس الاعتبارات التي كانت فرنسا قد بررت بها احتلال الدار البيضاء واسبانيا احتلال العرائش . ولكي يحصل الاستعمار الفرنكو ـ اسباني الذي كان يتاهب لغرس الموسى في بلاد المغرب على المهادنة من جانب المانيا تخلت فرنسا لألمانيا على جزء من الكنغو ـ الفرنسي 275.000 كيلومتر مربع بموجب اتفاقية 4 نوفمبر 1911 ، وذلك مقابل حرية التصرف في الاراضي المغربية . وبعد سنة وخمسة شهور بالتحديد فرضت فرنسا نظام الحماية على سلطان المغرب مولاي حفيظ وفي نوفمبر 1912 وقعت اسبانيا اتفاقية جديدة مع فرنسا ، ، وبموجبها صبغتا بالشرعية عملهما الاستعماري تحت اسم الحماية . ومقابل أراضي الكونغو التي اضطرت الامبريالية الفرنسية الى التخلي عنها لألمانيا ، خسر الاستعمار الاسباني الضفة اليسرى لوارغة

وقطعة صغيرة محاذية لملوية والاراضي الواقعة جنوب العرض 35 .

منذ نصف قرن مضى زاوج المغرب بين المقاومة المسلحة والديبلوماسية. ليس هدفنا هنا التأريخ للديبلوماسية المغربية هذه خلال مرحلة امتدت خمسين سنة ، بيد اننا سنبرز قدر الامكان طابع السياسة المغربية والجهود التي بذلت للدفاع عن الاستقلال . ان السمة التي طبع بها المغاربة سياستهم هي عدم ابداء أي تفضيل لأي من الدول في المغرب ، وتنظيم الدولة المغربية في اتجاه عصري . وبفضل ذلك ظل المغرب في منحى من العدوان الاجنبي والثورات الداخلية ، بالرغم من المحاولات التي قامت بها فرنسا واسبانيا لتثبيت أقدامهما في المغرب . وباستثناء اثيوبيا التي تعرض لحرب احتلال في الثلاثينات ، فان المغرب من البلدان غير الاوروبية النادرة التي ولجت القرن العشرين وهي تتمتع باستقلال تام . ان السياسة السديدة التي اتبعها المغرب ، دفعت الاجانب المتنافسين الى صراع جدارة شديد للفوز برضى الملك وبموافقته على بعض مطامعها ، واضطرت فرنسا ، الدولة الاكثر اصرارا على السطو على دولة المغرب وجعله يفقد استقلاله ، لبذل مجهودات جبارة لازاحة العراقيل التي تضعها الدول المنافسة في طريقها . وهكذا رأينا كيف اتفقت فرنسا سنة 1902 مع ايطاليا التي تخلت عن كل حق في المغرب مقابل تخلي فرنسا عن كل مطلب في طرابلس وليبيا . وبعد ذلك استطاعت فرنسا التوصل مع انجلترا الى اتفاقية 1904 الشهيرة ، التي بموجبها تطلق فرنسا يدي بريطانيا في وادي النيل مقابل اعتراف انجلترا بالمغرب كمنطقة نفوذ لفرنسا . وفي الأخير توجت فرنسا دسائسها بتقسيم البلا مع اسبانيا على أساس ان تستحوذ هذه الأخيرة على شمال المغرب لحماية شواطئها . ولما توفي مولاي الحسن كان قد خلفه مولاي عبد العزيز الذي ما انفك صبيا وقتئذ . وتابع الوزير أحمد ، الوصي ، تلك السياسة ، لكنه أوفى أجله بعد خمس سنوات . وبقي المغرب بين يدي سلطانه الشاب الذي نقصته الارادة لوضع حد لدسائس الانتهازيين الحاكمين بالقصر ، المتآمرين على الدولة والعاملين لمصلحة الاجانب ، لكن رغم كل شيء ظلت سياسة التوازن الدولي هي السياسة الخارجية للدولة حتى النهاية .

وكان من الطبيعي ان يتزايد جشع فرنسا بعد ما انضمت لصفوفها ثلاث دول طالما نافستها وعارضت مرارا تنفيذ مخططاتها . لكن ، ظلت هناك دولة رابعة ما انفكت تنتظر نصيبها ، هذه الدولة هي المانيا التي حاولت الحكومة المغربية الحصول على مساعدتها . غير ان المانيا تابعت سياسة غامضة لم تكن تهدف من ورائها لأكثر من الحصول على جزء من النفوذ الاقتصادي والسياسي في مكان ما ، ومن أجل ذلك تخلت في الاخير عن المغرب لصالح فرنسا مقابل جزء من الكونغو . ولم ينحصر الشعب المغربي في أمل العون

الذي قد تقدمه له الدول المتنافسة أو المتحالفة ، وانما بحث عن مخرج يحرره من جراف الاستعماريين ودسائس المتآمرين والخونة . وانطلقت في البلاد حركة وطنية بدأت تحت قيادة ماء العينين وانضمت لهذه المجموعة قبائل مختلفة وعدة قواد . وأملت هذه الحركة من مولاي عبد العزيز أن يفعل المستحيل لصد كل غزو أجنبي . وأنهى مؤتمر الجزيرة الخضراء كل المعاهدات السرية المبرمة بين فرنسا والدول الأخرى ، واعترف باستقلال وحرية المغرب ، لكنه وضع اسبانيا وفرنسا في حالة امتياز . عند تكليفهما بالقيام بعدد من الاصلاحات في الشرطة . بهذا القدر انتصرت الديبلوماسية المغربية والحركة الشعبية الى حد ما في نضالها ضد المؤامرات الفرنسية ، لان الدول ومن بينها فرنسا واسبانيا وانجلترا وايطاليا التزمت بصيانة وحدة المغرب وضمان استقلاله . وان على الامبرياليين موافقتهم على تلك المعاهدة ؛ وان قضت على خطر داهم ، خولت لاسبانيا وفرنسا امتيازا في البلاد ولم يرد المغاربة الاعتراف لتلك الدولتين بدور متميز عن الدول الاخرى . ولان السلطان عبد العزيز وافق على الأمر عن طريق ممثليه في المؤتمر واتضح عجزه عن مقاومة التوغل الفرنسي والاسباني ، اعتبر الشعب ان الوسيلة الافضل للتحرر من الالتزامات القديمة والجديدة هو التمرد . وتصدر الوطنيون الثورة معلنين خلع عبد العزيز واعتلاء مولاي عبد الحفيظ العرش . وتم الاعلان عن ذلك في فاس من طرف الشيخ ماء العينين والسيد أحمد المواز وهما من مفكري ذلك العهد . وقد اعتبر هذا الاعلان بمثابة ميثا قوطني ودستوري من الدرجة الاولى ، فرض على الملك الجديد الشروط التالية :

1 ــ بذل كل الجهود لاسترجاع المناطق المفصولة عن الحدود المغربية .
2 ــ الاستعداد لطرد الغزاة من الاماكن المحتلة .
3 ــ الغاء معاهدة الجزيرة الخضراء التي لم يكن للشعب فيها أية مساهمة .
4 ــ العمل على الغاء امتيازات الاجانب .
5 ــ عدم استشارة الاجانب في قضايا الامة .
6 ــ عدم التداول مع الاجانب حول معاهدات سلمية أو تجارية بدون استشارة الأمة .

وبهذه الطريقة ، حولت النقط الست هذه ، الملكية المطلقة الى ملكية محدودة ودستورية . وعند ذلك الحين ، لم تعد للملك سلطة عقد أي اتفاقية الا بعد استشارة وموافقة الشعب . وان التمييز بين الاتفاقيات المدنية والاقتصادية التي كان بامكان الملك توقيعها بعد استشارة مسبقة ، له دلالة بالغة وهي تجريد الملك من صلاحية عقد أي اتفاق من شأن طبيعته أن يمس شؤون الأمة . وبالاضافة الى ذلك ، يحتوي مضمون ذلك التصريح على روح

لاعلان حقوق الانسان الذي يقر ان السيادة تكمن في الشعب ، وأنها غير قابلة للتفويت . وبذات الوقت اعلنوا ضرورة نهج سياسة ديبلوماسية مفتوحة (علنية) تلك السياسة التي ستكون الحكومة العمالية ـ الفلاحية للينين أول من سيمارسها عشر سنوات بعد ذلك .

وبالتالي ، شكل الثاني من مايو المغربي ، 16 غشت 1907 ـ أول مشاركة للشعب المغربي في السياسة ، وكانت ترمي الى تحقيق هدفين أساسيين : 1) وضع حد المؤامرات الاجنبية والمحافظة على الاستقلال . 2) تحقيق اصلاح سياسي يقود الأمة الى نظام دستوري راسخ .

تلك هي الاهداف التي شكلت المحور الذي دارت حوله كل الحركات الاستقلالية الى يومنا هذا . ولم يمض كثير من الزمن بعد هذه الثورة حينما حرر الوطنيون مشروع دستور تم نشره في جريدتهم لسان المغرب التي كانت تصدر بطنجة . وتقول مقدمة المشروع الموجه الى السلطان « بما ان الوقت قد حان الى الاصلاح ، والشبيبة العصرية قد هللت قلوبها ، وانشرحت صدرها له ، وجلالة سلطانها الجديد (عبد الحفيظ) يعرف لزومه ، فنحن لا نالوا جهدا في المناداة بطلبه على صفحات الجرائد من جلالته ، وهو يعلم اننا ما قلدناه بيعتنا ، واخترناه لامامتنا ، وخطبنا وده رغبة منا وطوعا من غير أن يجلب علينا بخيل ولا رجال ، الا أملا في أن ينقذنا من وهدة السقوط التي وصلنا اليها الجهل والاستبداد ، فعلى جلالته أن يحقق رجاءنا ، وان يبرهن للكل على اهليته ومقدرته على ترقية شعبه ، وعلى رغبته في الاصلاح ، وجدارته بادارة ما قلدته أمته !

والذي نرجوه منه قبل كل شيء هو فتح المدارس ونشر المعارف، وان يكون التعليم الابتدائي اجباريا ، وان يولي ذوي الكفاءة والاستحقاق والأهلية ويقرب اليه ذوي العقول الراجحة والافكار الحرة الراقية ، ويحترس من الوشاة والجواسيس الذين يشوهون له رعاياه ، ويحولون بينهم وبينه ، وفي بلاطه الشريف من هذه الميكروبات القتالة جيش كبير ؛ فان لم يحترس منها ويقلومها نقلت اليه جراثيم وبيئة معدية . وبما ان يدا واحدة لا تقدر على انهاض شعب منذ من وهدة السقوط ولا على اصلاح ادارة مختلفة كادارة حكومتنا فيجب ان تكون الايدي المتصرفة والعقول المفكرة والافكار المدبرة كثيرة متكاثفة على العمل . وعليه فلا مناص ولا محيد لجلالته من أن يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب ، ومن اعطائه حرية العمل والفكر لتقوم باصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية ... »

وكان الدستور يتكون من أربعة أجزاء : يتضمن الاول القانون الاساسي للدولة ، والثاني التنظيم الداخلي لمنتدى الشورى (مجلس الشورى) ، والثالث قانون الانتخابات العامة والرابع القانون الجنائي المغربي . ان

الهيأة المسماة منتدى الشورى تنقسم الى مجلسين : مجلس الامة ، ومجلس الشرفاء (الاعيان) ، ويشكل أعلى سلطة في البلاد وترجح وجهة نظره على الحكومية :
وجهات النظر الاخرى ، وكان له الحق في مراقبة كل الادارات والمراكز
وبقي كل هذا حبرا على ورق عند ما ضغطت الامبريالية الفرنسية على مولاي عبد الحفيظ وأرغمته على توقيع معاهدة 30 مارس 1912 التي أقيمت بموجبها الحماية . وقد ورد في البندين الاولين ما يلي :

1) ان الجمهورية الفرنسية وجلالة السلطان متفقان على اقامة نظام جديد في المغرب ، يحقق الاصلاحات الادارية والقضائية والمدرسية والمالية والعسكرية التي تعتبر الحكومة الفرنسية من المفيد ادخالها في الاراضي المغربية .

2) ان جلالة السلطان يسلم ، من الآن فصاعدا ، بان الحكومة الفرنسية يمكنها ، بعد اشعار الحكومة المغربية ، احتلال المواقع العسكرية التي تعتبرها ضرورية للحفاظ على النظام والأمن وان تمارس أعمال الشرطة عبر الاراضي والمياه المغربية .

ما كاد الخبر يشيع في فاس حتى انفجر كالرعد . ساد الذعر في القبائل وحتى في القصر . وكان الشعور الاجماعي هو انها خيانة . وما يزيد من خطورتها ان مولاي عبد الحفيظ نفسه كان قد خلع أخاه عن العرش متهما اياه ، وبحق ، بخيانة المغرب . وقد كتب الدكتور فيزبرجر وهو ملاحظ أوربي عاش تلك الأيام بقول : « ان تباشير العاصفة لم تكن ظاهرة الا بالنسبة للاوروبيين القلائل المطلعين على سر الحياة الداخلية للعاصمة . في الأزمة لا يوجد ولا وجه واحد باسم . وان الاهليين يكادون لا يردون على الذين يتوجهون اليهم بالكلام، وأصدقاء الأمس يتظاهرون بعدم معرفتنا . لكن مع ذلك ، ولا سلوك عنيف واحد يخون الشعور الذي يقلق الخواطر » .

بعد سبعة عشر يوما من ذلك تمرد الجنود المغاربة وقتلوا ضباطهم الفرنسيين ، وامتدت الثورة الى الشعب الذي تمرد بدوره وهاجم الحي الأوروبي . وخلال 72 ساعة كانت فاس مدينة حرة بين أيدي الوطنيين المغاربة . وفي اليوم 20 سحق الجنود الفرنسيون التمرد بالمدفعية الثقيلة ، وأعلنت حالة الاستثناء ، الأمر الذي أدى بآلا فالوطنيين الى عمود الاعدام . وبعد شهر من ذلك ، حاصر 20 ألف مغربي من القبائل المجاورة للعاصمة ، المدينة بقيادة الحجامي . ونجح المرشال اليوطي ، الذي عين مقيما عاما وقائدا أعلى لقوات الاحتلال ، في رفع الحصار في بداية يونيو . وخلال الصيف قدم مولاي حفيظ استقالته ، غير ان تخوفهم من أن يثير الضغائن بتصريح وطني ما ، اضطرهم الى قبولها وتنصيب مولاي يوسف جد الملك الحالي

للمغرب - وبعد شهور قلائل ، كان البلد كله ـ باستثناء المدن الكبرى والموانىء المراقبة بشكل قوي من طرف الاستعمار الفرنكو ـ اسباني ـ في صراع عنيف ودموي ، ضد الاحتلال الأجنبي ، وكانت الاقاليم المتمردة تتكون من ثلاث مناطق بالاضافة الى جبالة والريف التي كانت تركز نضالها ضد الاستعمار الاسباني .

1) الأطلس المتوسط :

لقد دارت معارك متعددة منذ 1911 حتى 1933 : ويمكننا اذا ما اعتبرناها ككل ، ان نستنتج منها أربعة مراحل ذات أهمية بالغة :

1 ـ 1 ـ اقتراب الجيش الغازي ومحاولة الوصول الى الجبال :

أ ـ معارك بني مطير 1913 .

ب ـ مقاومة تادلة الى حين احتلالها سنة 1913 .

ج ـ معارك خنيفرة سنة 1914 .

د ـ عمليات تادلة من 1915 الى 1917 .

1 ـ 2 ـ الهجوم على كتلة قبائل الأطلس المتوسط

أ ـ اختراق ازرو ـ مديات سنة 1917 .

ب ـ معارك زايان وبني مكيلد سنوات 20 و 23 .

1 ـ 3 ـ الهجوم على الضفة الشمالية لوادي العبيد :

أ ـ مقاومة عربالة في 1926 .

ب ـ الهجوم على وادي العبيد في سنوات 1929 و 1930 و 1931 .

1 ـ 4 ـ الهجوم على الاطلس المتوسط :

أ ـ مقاومة أيت يحيى سنوات 31 ـ 1932 .

ب ـ مقاومة أيت اسحاق سنة 1932 .

ج ـ الهجوم على بساط البحيرة سنة 1932 .

د ـ معارك ملول والاطلس الكبير .

هـ ـ محاصرة كردوس وبادو سنة 1933 .

ز ـ معركة الكوسي سنة 1933

2) الأطلس الكبير بجنوب المغرب :

ان سياسة ليوطي في منطقة القواد الكبار هذه ، كانت ترتكز على التسامح واجتذاب هؤلاء القواد نظرا للنفوذ الذي يحظون به به لدى القبائل ، القبائل ، لكن الروح الوطنية وضعت حدا لهذا النفوذ واحبطت السياسة الفرنسية . ان فضل توحيد قبائل الجنوب يعود للشيخ ماء العينين وابنه الهبة الذي شكل حوله حركة وطنية . وقد حاربوا الفرنسيين واستولوا على مراكش، وبعد انهزامهم لاحقا في معركة سيدي عثمان ، واصلوا ـ هو والقبائل التي

انضمت اليه ـ المقاومة في الساقية الحمراء سنة 1935 .

3) تافيلالت وأيت عطا في الجنوب المغربي أيضا :

لقد دام الكفاح ضد الفرنسيين في هذه المناطق ثلاثة وعشرين سنــة . وقاد السملالي الكفاح في البادية ، وهاجمه جيش مكناس بقيــادة الجنــرال بوئيميرو الساعد الأيمن لليوطي ، مدعما من طرف جيش آخر . وحاربته هذه الجيوش طيلة سنتين . وخلال هذه المعارك قتل الجنرال الفرنسي واستشهد الزعيم المغربي الذي خلفه أبو القاسم النتادي الذي تابــع الكفاح الــى ان ان استسلم سنة 1935 .

ان الروح الوطنية شكلت عامل لحم كل هذه المعارك التي سحقت سياسة القواد الكبار المتبعة من طرف الاستعماريين الفرنسي والاسبانــي كوسيلــة لكسب المؤيدين وتفرقة المقاتلين. ويورد الجنرال غليوم ـ وهو أحد المشاركين الفعالين في الغزو الفرنسي ـ في كتابه : « **البربر المغاربــة وتهدئــة الاطلس المتوسط** » ، الشهادة التالية : « ان الصيغ المحببة لدى المارشال ليــوطي « اظهار القوة لتلافي استعمالها » و « ان عملا (صالحا) يساوي كتيبة » ، لا يمكن تطبيقها بالتمام على سكان مصممين على الدفاع عن استقلالهــم الــى أقصى حد . ان اكثر ما يفاجئنا هو ان قبائل وفية للسلطان تمردت ضده حين أدخل الحماية ، وواجهتنا بمقاومة أقوى واصرار أكبر من مقاومة وعناد بعض القبائل التي سبق لها أن تمردت في مناسبات عديدة » ويضيف : « اذا كانت مجهودات مديرية الشؤون السياسية محكوم عليهــا بالفشــل ، فــذلك لأن خصومنا ما كانوا يتراجعون أمام قوتنا الا بعد استنفاذ كل وسائــل المقاومــة المتوفرة لديهم . وكثيرا ما ترد في ذهني أقوال المارشال بيجو هذه : انه لمن المحزن والمضحك حقا، ما نسمعه أو نقرؤه لكتابنا وخطبائنا عند ما ينصحوننا الى استعمال أساليب صالحة كوسائل لاجتذاب خصومنا ، وان نجعل العرب يحسون بلطف تقاليدنا ومزايا حضارتنا . هذا جميل وسام بدون شك . ولقد جربته شخصيا أكثر من أي شخص . لكن ، ما العمل مع شعب يفر عنــد مــا يقترب منه ولا يترك أمامنا الا مقاتلين أشداء يردون كلامنا العاطفي باطــلا باطلاق النار » .

وفي مؤلف **المشاكل السياسية والاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر** كتب المؤرخ دريبولط : « خلال السنوات الأخيرة ، تم احتلال كــل البلــدان المستقلة على وجه الارض من طرف البلدان الاوروبية والولايــات المتحــدة . وبسبب ذلك وقعت لحد الآن عدة معارك وبعض التغيرات في مناطق النفــوذ والتي ليست سوى تباشر انفجارات أكثر فظاعة في المستقبل القريب .

يجب الاسراع اذن : ان الدول التي لم تتزود معرضة لخطر عــدم تسلــم نصيبها أبدا ، وعدم المساهمة في الاستغلال الهائل للعالم ، والذي يشكل احدى

الأحداث الاساسية للقرن القادم . لهذا السبب سيطرت على أوروبا وأمريكا ، خلال الأونة الأخيرة ، حمى التوسع الاستعماري المميزة للامبريالية التي تشكل السمة المميزة الأكثر دلالة لاواخر القرن 19 . ومع هذا التقسيم للعالم ، ومع هذا التنص المسعور للثروات والأسواق الكبرى في العالم ، ان الاهمية النسبية للامبراطوريات التي شيدت خلال القرن 19 غير متناسبة مع الموقع الذي تحتله في أوروبا الأمم التي سيدتها . وان الدول السائدة في أوروبا والتي تتحكم في مصيرها ، ليست سائدة بنفس الشكل في العالم كله . وبما ان النفوذ الاستعماري ، والأمل في الاستيلاء على ثروات ما زالت مجهولة ، سيكون له بالتأكيد انعكاس على المكانة النسبية للدول الاوروبية ؛ فان المسألة الاستعمارية ـ الامبريالية ان شئتم ـ التي غيرت الآن الظروف السياسية في أوروبا نفسها سوف تدخل عليها مزيدا من التغيير في المستقبل » .

ويضيف لينين ، الذي أورد هذه الفقرة في « **الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية** » ... « لقد ضخمت مستعمرات الدول الست الكبرى لحد هائل بعد سنة 1876 : أكثر من النصف من 40 الى 65 مليون كيلمتر مربع . والزيادة تبلغ 25 مليون كيلومتر مربع ، أي بزيادة للنصف عن مساحة البلدان مالكة المستعمرات (16،5 مليون) . وفي سنة 1876 لم يكن لدى ثلاث دول أي مستعمرة ، اما الرابعة ، فرنسا ، فلم تكن لديها مستعمرات تقريبا . وفي 1914 ، كان لهذه الدول الأربع مستعمرات تبلغ مساحتها 1401 مليون كيلومتر مربع ، أي مساحات تزيد على مساحة أوروبا بنسبة تقارب النصف ويبلغ عدد سكانها نحو 100 مليون نسمة . ان التفاوت في توسيع المستعمرات كبير جدا . فاذا قارنا مثلا فرنسا والمانيا واليابان التي لا تختلف كثيرا من حيث المساحة وعدد السكان ، وجدنا ان الأولى في هذه البلدان قد اقتنت من المستعمرات (من حيث المساحة) نحو ثلاثة أضعاف ما اقتنته الثانية والثالثة مجتمعتين . لكن ، من حيث مقادير الرأسمال المالي قد تكون فرنسا في بداية المرحلة المذكورة أغنى بعدة أضعاف أيضا من المانيا واليابان مجتمعتين »

من كل هذه الغنيمة الهائلة ، لم تحصل البرجوازية الاسبانية الا على بعض الفتات . بحيث من أصل 25 مليون كيلومتر مربع للوتزيع ، تسلمت حوالي 300.000 كيلومتر مربع ، 250.000 منها كانت رمالا خالصة و 26.000 الباقية تمثل الجزء الاكثر فقرا والجبلي من المغرب . مما دفع مستعمرينا الى القول ان نصيب اسبانيا لم يكن سوى « عظم » من « الضلع » المغربي . وانها صورة بيانية صادقة بما ان الدور الاسباني كان يقتصر على ان تكون اسبانيا الكلب الحارس لمصالح الامبريالية البريطانية . ان مفتاح سر وجودنا الاستعماري في مرحلة الامبريالية ، يعطيه لينين نفسه حين يقول ، في المؤلف المذكور : ان أغلبية الدول الصغرى لا تحتفظ بمستعمراتها الا بفضل

وجود تناقض واحتكاك الخ ... بين مصالح الدول الكبرى ، الأمر الذي يحول دون عقد اتفاقيات استعمارية . ومما يشدد في حالة اسبانيا ، ان المصلحة الانجليزية في ان تراقب مدريد السواحل الريفية اسندت الى كونها (انجلترا) ترغب في تلافي استقرار فرنسا على الضفة الأخرى من مضيق جبل طارق بمعنى انه ، من أجل صيانة أمن مستعمرة بريطانية على التراب الاسباني - جبل طارق - قبلت اسبانيا المشاركة في تجزئة المغرب وتصفية استقلاله .
وباستثناء مناجم الريف ، لم يكن هناك في التراب المغربي شيء نافع للرأسمالية الاسبانية . وكان من البديهي أن غزو الريف والبقاء فيه منهكا بالنسبة للاقتصاد الاسباني الهزيل . لقد القت لندن وباريس عظما بدون مادة وسارع المستعمرون الى جمعه دون أن يتساءلوا حول مردودية مثل هذه العملية . وكاستعمارية ، كشفت برجوازيتنا أنها كارثة . وكان من الممكن أن تصبح للريف بعض الأهمية السياسية، حيث انه يمكن أن يصبح كأرض الميعاد بالنسبة للقطاعات الاجتماعية الأكثر انحطاطا على سواحلنا الابيض متوسطية.
وبهذا المعنى يمكن القول ، انه منذ القرن 19 لعب شمال افريقيا بالنسبة للأندلس وشرق اسبانيا الدور الذي لعبته أمريكا بالنسبة لكالسيا . وقد أبرز لنين نفسه ، في الكتاب المذكور ، هذا الجانب من خلال خطاب الاستعماري البريطاني سيسيل رودس نفسه : « كنت أمس في الاستاند (حي العمال في لندن) وحضرت اجتماعا من اجتماعات العمال العاطلين . وقد سمعت هناك خطابات فظيعة كانت من اولها الى آخرها صرخات : الخبز ! الخبز ! . وأثناء عودتي كنت أفكر بما رأيت واقتنعت أكثر من السابق باهمية الامبريالية ... ان الفكرة التي أصبوا اليها هي حل المسألة الاجتماعية أعني : لكيما ننقذ أربعين مليونا من سكان المملكة المتحدة في حرب أهلية فتاكة ، ينبغي علينا نحن الساسة طلاب المستعمرات أن نستولي على أراضي جديدة لنرسل اليها فائض السكان ولنقتني ميادين جديدة لتصريف البضائع التي تنتجها المناجم والمصانع . فالامبراطورية ، وقد قلت ذلك مرارا وتكرارا ، هي مسألة البطون . فاذا كنتم لا تريدون الحرب الاهلية ينبغي عليكم أن تصبحوا امبرياليين » .

بالاضافة الى هذا ، فان الجشع المهدوي أملك ، واندفاع بعض العسكريين ، والرغبة في اثارة أوضاع حربية لتزيين صحيفة وظيفتهم أو تسلق سلم الترقية ، والاجتذاب الذي كانت تمارسه على الأوليغارشيا الاسبانية السياسية الامبريالية لفرنسا ؛ كل هذه العوامل أدت باسبانيا الى انتهاك استقلال ووحدة الدولة المغربية . وبهذا أصبحنا نشكل جزءا من القوى الاستعمارية ، بصفة استعماريين أقزام ، لأن الثلاث مائة الف كيلومتر مربع التي سرقتها مدريد لم تكن تمثل شيئا بالمقارنة مع الثلاثين مليون للندن ، والسبعة عشر مليون لموسكو القيصرية والاحدى عشر مليون لباريس،

والثلاثة ملايين لبرلين والنصف مليون لوشنطن ولطوكيو .

لم تبد أية بروليتاريا لبلد استعماري نفس المعارضة الصارمة التي قاومت بها الطبقة العاملة الاسبانية المغامرات الاستعمارية . ان التحريض المعادي للاستعمار الذي قام به العمال سيبقى تاريخيا ، نموذجيا ومثالا عمليا للتضامن والاممية البروليتارية . وحتى السنوات الاخيرة من عقد العشرينات حيث تمكن التحالف بين الاستعماريين الاسباني والفرنسي من سحق الشعب المغربي عسكريا ، تشبثت الأحزاب والنقابات العمالية ، منهجيا ، بمعارضة الغزو الاستعماري والدفاع عن استقلال الدولة المغربية ، مسجلين بذلك صفحات بطولية في تاريخ الحركة العمالية الاسبانية وبالرغم من ان سنوات الثلاثينات قد فتحت قوس كبت فيما يتعلق بالسياسة المعادية للاستعمار هذا القوس الذي لم يغلق الى حد الساعة ، فان الحصيلة تضع الحركة العمالية الاسبانية في المواقع الاولى داخل الحركة المعادية للاستعمار .

وقبل أن يتم قانونا الغاء السيادة المغربية سنة 1912 كانت كل من اسبانيا وفرنسا تحاولان خدش الميدان اينما أمكنهما ذاك وجس نبض مقاومة المغاربة. وكانت أحدى عمليات النهب هذه ، هي التي سببت حرب 1909 والاحتجاج العمالي ضدها . هذا الاحتجاج الذي بلغ الأوج فيما سمي بعد ذلك باسبوع برشلونة المأساوي ، في بداية يونيو من ذلك العام ، وبما انه لم يكن من الممكن الوصول الى اتفاق مع الريفيين ليسمحوا باستغلال خيراتهم في وكسان ، شرع الجيش في حماية الأعمال في المناجم . وأمام مثل هذا الاستفزاز، هاجم المغاربة في بداية يوليوز الجنود الذين اضطروا للجوء الى مليلية . وبما ان الخمسة ألف وخمس مائة جندي والخمسة وعشرين من القادة والضباط الموجودين هناك لم يكونوا كافيين . نظمت الحكومة الارسال الفوري للواء مختلط من القناصة وتجنيد الاحتياطيين . وتلقى الرأي العام هذه الانباء باستياء عميق ، ومما ضاعف هذا الاستياء استدعاء مجموعات من الرجال كانوا ينتمون للاحتياطي النشيط والذين كانوا يعتبرون أنفسهم متحررين من التزاماتهم العسكرية بعد اندماجهم في الحياة المدنية . ان الصحافة والاحزاب العمالية والمعارضة قد فضحت هذه العمليات التي لم يكن لها من دافع سوى الدفاع عن المصالح الخاصة للمؤسسات المنجمية ، ولعب دور المرقى للزمرة العسكرية . كان ذلك هو جو التحريض المعادي للاستعمار ، الى حد ان الجريدة المدريدية **مراسلة اسبانيا** الملكية الاتجاه نشرت الافتتاحية التالية :

« من المستحيل القتال ضد بلد ، واسبانيا لا تريد أن تسمع حتى الحديث عن المغرب . وباستثناء نصف دزينة من السياسيين وبعض سماسرة البورصة المضاربين وآخرون يصطادون في الماء العكر . لا أحد يرغب في مغامرات أو استفزازات واحتلالات غير ضرورية ، ولا في حملات خارج الزمن والمكان » .

وكتب آخرون ، أكثر راديكالية مثل **الببيس** : « هناك خطر نشوب حرب عبثية ولا شعبية وغير عادلة ضد المغرب . لقد وصلنا الحضيض ، لكن ليس الى حد ان نصبح ألعوبة في يد متآمرين من الدول الاجنبية . انه لمن العبث والاجرام ان نقحم انفسنا في **الصفن المغربي** لخدمة مصالح صناعية ليست حتى لنا في غالبيتها ، مخاطرين بأن تغرس في أجسامنا وأرواحنا آلاف السهام المسمومــة » .

كل هذا أدى منذ اللحظة الاولى ، الى استحالة ابحار الجنود ، وأسفر عن أحداث خطيرة ، في برسلونة في يوم 13 ــ كتيبتا برسلونــة وميريــدا ــ ويوم 10 ــ كتائب استيليا والفونس 12 ورؤوس ــ ؛ حاولت خلالها مجموعة من النساء والاطفال معارضة عملية الابحار ، وذلك بالتظاهر او دعوة الجنــود الى القاء السلاح ورفض القتال . ووقع نفس الشيء في مدريد حيث أدى لاحتلال محطات القطار والجلوس فوق السكة الى استحالة خروج قطارات الجنود من المحطات . وبهذا الانطباع كان الجنود يصلون الى مليلية ليدخلوا مباشرة الى المعركة بروح معنوية منهارة ــ حسب الجنرال مولا ــ من جراء الاحداث التي وقعت في موانيء الابحار أو خلال نقلهم عبر البلاد .

ومرت الايام ، من التاسع الى السابع عشر من يوليوز ، بشكل طبيعي دون أن يهجم المغاربة . لكنهم هجموا بقوة يومي 18 و 20 مما اضطر جيش الاحتلال الى المزيد من التراجع . وحاولت حكومة مورا ، التي كانت في وضعية حرجة ، أن تعطي انطباعا ان الامر يتعلق بعمليات بوليسيــة بسيطــة ودون أهمية كبرى ، ضد بعض قطاع الطرق . وان توقع ان على الجيش الاستعماري تحمل حرب قاسية ، سعى مورا الى طمس ذلك ، لطمأنة رأي عام جد هائج . غير ان المعارك المذكورة فضحت مورا الذي لم يكن له بد سوى ارسال المزيد من الاحتياطيين ، من بينهم اللواء الاول المختلط للقناصة ، حامية مدريــد . وانفجر الغضب الشعبي الذي وصل يوم ، 21 الأحد معارضة رحيــل كتائب لاس نافاس وفيكديراس بالقوة ، وذلك بفصل عربات القطار . وفي يومي 23 و 27 وقعت من جديد معارك عنيفة . وان الانطباع الذي خلفته الاخبار الجديدة وصل الى حد أن جريدة **الأبيض والاسود** كتبت : « لقد رحل لواء آخــر الــى مليلية . فهل سيكون اللواء الأخير ؟ ان هذه التساؤلات نطرحها نحن الذين لا نملك مناجم في الريف ولا أسهما فيها بشبه الجزيرة . كما يطرحها الذين جالوا بعض الشيء عبر اسبانيا ، وشاهدوا الكثير الكثير من فراسخ الارض غيــر مزروعة ويمكن استعمارها . وفي غضون تصميمنا على استعمار دارنا ، نعتبر ان كل نبات الصبار الريفي لا يساوي حياة جندي واحد . » .

وكذريعة (للهجوم على الريف) يظهر اطلاق النار على بعض العمــال في الريف ، غير ان الدافع الحقيقي هو الرغبة في التوسع في الوقت الذي اختــار

المغرب سلطانا جديدا معاديا للاستعمار وفي نفس التاريخ ، حذر بابلو لكليسياس زعيم الحزب الاشتراكي العمالي الاسباني ، في تجمع عقد بمسرح لوبكس ادن : « لن يكون من الصعب أو الغريب أن يفضل أحد الجنود الاحتياطيين طعن وزير أو أية شخصية سامية بالخنجر ، وقبل الذهاب لقتل اناس يدافعون عن وطنهم بنفس الشجاعة التي دافع بها الاسبانيون عن وطنهم سنة 1808 . وفي هذه الحالة ، ان الحكومة هي عدوة الشعب الاسباني وليس المغاربة . ويجب مقاومة الحكومة واستعمال كل الوسائل . وبدل اطلاق النار الى أسفل يجب أن تطلقوها الى اعلى . واذا كان ذلك ضروريا ، سيشن العمال الاضراب العام » .

وفي نفس التاريخ ، انعقد مؤتمر الفيدرالية الكاطالونية للحزب الاشتراكي الذي صادق على الملتمس التالي : « نظرا لكون الحرب نتيجة حتمية لنظام الانتاج الراسمالي ، ونظرا كذلك للنهج الاسباني في تجنيد الجيش حيث ان العمال هم وحدهم الذين يقومون بالحرب التي يعلنها البرجوازيون . ان التجمع يحتج بصرامة :

1 ـ ضد تصرف الحكومة الاسبانية في المغرب .

2 ـ ضد ممارسات بعض سيدات الاستقراطية اللائي يهن الآم الجنود الاحتياطيين وزوجاتهم وأبنائهم وذلك بتسليمهم اوسمة واطواقا كتفية عوضا من تمكينهم من وسائل العيش التي حرمهم منها غياب رب الاسرة .

3 ـ ضد ارسال مواطنين مفيدين للانتاج الى الحرب ، وهؤلاء المواطنون، على العموم ، غير مكترثين بانتصار الصليب على الهلال ؛ في حين يمكن تكوين فرق من الرهبان والكهنة الذين لهم مصلحة مباشرة في انتصار الديانة الكاثوليكية ، فضلا عن كونهم بدون عائلات ولا منازل ولا ينفعون البلاد في شيء.

4 ـ ضد موقف النواب الجمهوريين الذين لم يستغلوا حصانتهم البرلمانية لاحتلال موقع الصدارة في احتجاجات الجماهير ضد الحرب .

يهيب بالطبقة العاملة ان تحشد كل قواها اذا استلزم الوضع اعلان الاضراب العام لارغام الحكومة على احترام حقوق المغاربة في الحفاظ على الاستقلال الكامل لبلادهم » .

وتمت الدعوة للاضراب العام في مجموع اسبانيا ، على ان يتم في شهر غشت ؛ غير أن شنه قد تقدم في برسلونة من القاعدة تحت صيحة : يمكنهم ان يقيموا الآن مهرجانات اذ يأخذونهم

وأدى الاضراب الى الاحداث الدامية لآخر اسبوع في يوليوز ، هذا الأسبوع المأساوي ، والتي بلغت أوجها باغتيال المفكر الفوضوي فيرير والحكم بالاعدام على 110 مناضل والاعتقالات الواسعة للعمال : 5000 في برسلونة ، 1700 في مطارو ، 1200 في صباديل ، 1000 في طراغونة و 300 في خيرونة ، وفي

نفس الوقت مني جيش الاحتلال بهزيمة كبرى في وادي الذئب على سفوح جبل كروكو . ولم تتجاوز هذه الهزيمة الا الانتصارات البطولية للمغاربة في أنوال وجبل عرويت سنة 1921 . لقد أدى قصور القادة العسكريين الى سقوط فيلق من القناصة بكامله في كمين نصبه المغاربة . وقتلت تقريبا كل العناصر المكونة لهذه الوحدة العسكرية بما فيهم القائد العسكري الذي كان يقودهم ، الجنرال كيرموبينتوس . واعترف وزير الحرب ان حوالي ألف اسباني لقوا حتفهم ، بينما لا يبوح بعض الصحفيين الاستعماريين ، مثل فيكتور روبيس البينيس ، الا بزهاء 300 خسارة في الارواح في الصفوف الاسبانية .

هذه الهزيمة المدوية فتحت قوسا من الهدوء حتى بداية الخريف ، واستفادت منه مدريد لارسال تعزيزات . ويمكن تقدير عدد الجنود الموجودين في مليلية في نهاية الصيف بحوالي 40.000 جندي . وقررت الحكومة الاسبانية احتلال جبل كروكو لابعاد المغاربة من ضواحي المدينة . واستؤنفت العمليات يوم 21 شتمبر عند ما هوجمت قبيلة بني شيكار شمال مليلية ، واحتل في اليوم التالي سوق الأحد ، وانتقل الجيش بسرعة نحو الجنوب واحتل الناظور يوم 25 وساوان يوم 27 ، الأمر الذي أدى الى تطويق الجبل الذي تم الاستيلاء عليه يوم 29 شتنبر . ان معالم الكيفية التي تصرف بها الجيش الاسباني يمدنا بها داعية من أكبر دعاة الاستعمار الاسباني شهرة حين يكتب ان « هذه العمليات تشكل درسا معبرا ، وان لم يستفد منه الا قليلا ، لما يجب أن تكون حرب المغرب ، معاقبة الثائرين بضربهم في مصالحهم المادية ، واحراق القرى واتلاف أو مصادرة المحصول أو المطامير . والشرط الاول لبحث موضوع الخضوع هو تسليم العتاد الحربي واحتجاز رهائن للتأكد من نية البلد » .

ونشرت احدى الجرائد الاستعمارية في ذلك العهد ، الافتتاحية التالية :

« ان سياسة الخبز والعصا هي السياسة الوحيدة المتيسرة وذات النتائج العملية والتي يمكنها أن تجعل هؤلاء القوم الجهلاء يدركون أن أمن ديارهم لا يمكنهم الحصول عليه الا اذا انصاعوا لقيادة ممثلي اسبانيا المحترمين واذا وضعوا ثقة عمياء في اسبانيا . ان المكافأة والعقاب بشكل عام : العقاب في البداية وبعده الجزاء ، يشكلان وسائل مؤكدة النجاح للاجتذاب » لقد شكل بلوغ المرتفعات الواقعة جنوب جبل كروكو في نهاية نوفمبر ، نهاية هذه الحملة . وان خطط الاستمرار في الحملة ومشاريع الانزال في الحسيمة قد تم التخلي عنها أمام المقاومة المغربية الضارية والاحتجاج الشعبي الاسباني والجهل المطلق لتلك الأراضي .

لا أغتسل ولا أمشط شعري
ولا أضع رابطتي الزرقاء
حتى يعود خطيبي من الاستيلاء على الكروكو .

والفتيات اللواتي كن يغنين هذا ، كن يشرقن فرحا : ولكن ، لمدة غير طويلة .

ان الشعور الوطني لدى المغاربة ، والاحتجاج الحازم للبروليتاريا الاسبانية ، وعدم أهلية جيشنا ، ستشكل العراقل التي ستعترض الاستعمار الاسباني ورغبته في التوسع سنة 1909 . وكان بوسع الاستعمار الاسباني استخلاص درس مفيد والانسحاب من هذه المغامرات التي لن تكون سوى منبع للهزائم ؛ ومع ذلك فضل الاستمرار محاولا فرض الحماية على من هم في غنى عنها . وعلى هذا الشكل فان الفرامل الثلاث المذكورة سابقا ستتضاعف الى حد أن ديكتاتورية بريمودي ريفيرا ، الاستعماري البارز ، ستفكر بجدية في احترام استقلال الشعب المغربي . ان درس احداث 1909 كان هو أن ليس استعماريا من يريد بل من يستطيع . ولسحق الشعب المغربي لا بد من آلة حربية أقل تعفنا وفسادا وقصورا من الآلة الحربية للجيش الاسباني آنذاك . وجريدة أ. ب. س. ، التي لا يمكن اتهامها بمعاداة العسكرتارية ، أكدت يوم 11 اكتوبر 1911 أنها لا تستطيع أن تفهم كيف ان الجنود غير النظاميين المغاربة الذين لا يتوفرون على تنظيم عصري وليس لديهم تجهيز ملائم أو قيادة كفئة ، يمكنهم توقيف جيوش أوروبية يفترض انها حسنة التدريب جيدة التنظيم ومجهزة بشكل مناسب . وكان القادة العسكريون يصطدمون بصعوبات كثيرة لتفسير المأزق الذي آلت اليه الحرب ، وسبب كون جيوش الاحتلال دون مستوى المهمة القمعية الضرورية . انها تساؤلات غير جديدة ، كانت قد طرحت ويطرحها وسيطرحها دائما المضطهدون من كل نوع . وكان للاحتجاج الشعبي من البعد والحدة والامتداد الى حد أن كونت رومانونيس ، وهو أحد الذين استثمروا كثيرا من المال في مناجم المغرب والذي كان ينفي باصرار ان الاعمال العسكرية كانت تباشر لحماية مصالحه الشخصية ، اعترف انه وقع تصديق هذه الاشاعة الى حد أن فلاحي مزارعه الضخمة في كوادالخرا يظنون ان الجنود يموتون من أجل صيانة املاك الكونت . شيء من نوع المحاكاة الساخرة الحالية للحظة دعائية في التلفزة : « ان الجبل يحترق ، ان شيئا لك يحترق يا سعادة الكونت » . ولكن بجدية .

ان النتيجة المنطقية قد استنتجتها الجريدة المذكور **مراسلة اسبنية** ، الرجعية الملكية ، حينما فضحت وأشارت بأسلوب مستقبلي ونبرة تنبؤية ، للأخطار التي يمكن أن يحملها للملكية غزو المغرب : « اذا كان البلد يدرك اننا سنتمكن من حل مشكل ما باحتلال المغرب لتحم لسياسة استعمارية ؛ لكن بما انه يعلم اننا ذاهبون الى المغرب دون أن نعرف لماذا ومن أجل ماذا ، فان البلد لا يتقبلها . لنفترض أن جنودنا قد خرجوا من مليلية واحتلوا 10 ، 20 ، 30 ، أو 100 كيلومتر ، وانها محتلة الآن . ولكن لماذا ؟ اذن من أجل لا شيء .

قطعا ، من أجل لا شيء ، ان لم يكن من أجل تبذير نحو مائة مليون نحـن في أمس الحاجة اليها هنا بينما لن تصلح لشيء هناك . سيموت بعض الجنود ، وسيرقى آخرون ، وسنبين مرة أخرى اضطرابنا . وللمرة المائـة ، سنثيـر السخرية عند ما نسمي اطلاق النار مناوشة والمناوشة عملية حربية ، والقاء فصائل الاستكشاف قتالا ، والقتار معركة مواجهة . سنبعث عددا من الجنرالات يفوق عدد العقداء ، وعدد القادة العسكريين سيفوق عـدد الضباط ، وعـدد الضباط سيفوق عدد الجنود . ان الوعود ، أكثر من الحقائق ، والمشاريع أكثر من الأفعال . وحصيلة كل هذا اننا سنظفر بشيء واحد : دماء الشعب وأموال ممول الضريبـة .

لم لكذب اذا كانت الحقيقة هي هذه ؟ لماذا نخدع أنفسنا بلوهام مثيرة للسخرية اذا كانت الأشياء ما هي عليه وليست ما يراد أن تكون ؟

فلا تنسى الحكومات التي تحكم والملوك الذين يحكمون هذا : ان الذهاب الى المغرب ألف مرة ، أخطر من عدم الذهاب اليه .

ان الذهاب الى المغرب يعني الثورة . وعند ما أقول ذلك أخدم الوطن ، والملك أفضل مما لو جعلت الملك والوطن يظنان ان الذهاب الى المغرب يناسب الأمة والملكية » .

السياسة الخارجية الصينية وأساسها النظري : نظرية العوالم الثلاثة

ترجمة : لحسن عزيز

تقـديم :

تأتي أهمية النصوص التي تشكل هذا الملف حول « نظرية العوالم الثلاثة » :

1) من كون جمهورية الصين الشعبية أصبحت تلعب دورا بارزا على الصعيد العالمي ، هذا الدور الذي يتنامى ويتضح أكثر مع التطورات الاخيرة التي عرفتها الصين و « تفتحها » على العالم الخارجي ، الغرب بالأساس .

2) وما دام هذا الدور البارز للصين الذي يتجلى في مواقفها على الصعيد العالمي وفي سياستها الخارجية في جميع المجالات ، ما دام هذا الدور يقوم على أساس نظري منسجم فان التقييم النقدي لهذا الأخير (نظرية العوالم الثلاثة) ليس ترفا فكريا .

3) اذا كانت نظرية العوالم الثلاثة تبين « زيف » « اشتراكية أو شيوعية » الاتحاد السوفياتي وتؤكد على طبيعة الرأسمالية والامبريالية فان الجوانب السلبية والخاطئة التي تتضمنها هذه النظرية من جهة ، والتطبيق العملي لها من طرف المسؤولين الصينيين ، هذا التطبيق الذي يضحي بكل شيء من أجل التصدي للاتحاد السوفياتي والحد من نفوذه على الصعيد العالمي ولا يتردد في دعم الانظمة العميلة للأمبريلية والمغرقة في الرجعية من جهة ثانية ... كلها عوامل تؤدي الى ضرورة نقد السياسة الخارجية الصينية وأساسها النظري .

من المفيد الانتباه للتحولات التي عرفتها بعض البلدان التي اعتبرها هذا الملف محورا أو مثالا للتحليل بالخصوص ايران ، البرتغال .

المتـرجـم .

1) رومانيا ، يوغوسلافيا وايران : لمـاذا ؟

لقد شكلت زيارة هواكوفينغ الاخيرة لهذه البلدان الثلاثة نوعا من « عرض أول » بحيث انها المرة الاولى التي يقوم فيها رئيس الحزب الشيوعي الصيني بزيارة لاوروبا ويحل ببلد غير شيوعي (ايران) . ولادراك أهمية هذا الحدث يجب وضعه في الاطار العالمي للشهور الأخيرة المنصرمة .

نشاط ديبلوماسي لم يسبق له مثيل :

ويمكن التأكد من ذلك منذ بداية السنة ، **ففي آسيا** : زار تنغ سياوبينغ كلا من بومانيا والنيبال ؛ ولي كسيانيان الفلبين والبنغال ؛ كما زار رئيس

جمعية الصداقة مع الشعوب الاجنبية الهند ، في حين ان العلاقات بين البلدين كانت منعدمة تقريبا منذ أزيد من عشر سنوات ، وتنقل هواكوفينغ في شهر مايو الى كوريا ، في حين ان قادة سامين حلوا بالباكستان وسريلانكا ؛ وفي الأخير ، فتح اتفاق السلام والصداقة المبرم مع اليابان عهدا جديدا بالنسبة لآسيا .

وفي أوروبا : وقع أول اتفاق تجاري مع السوق الاوروبية المشتركة ؛ وذهب نائب الوزير كومو الى فرنسا ، وسويسرا ، وبلجيكا ، والدانمارك ، وألمانيا الغربية ؛ وزارت بعثتان عسكريتان عدة دول منها رومانيا ويوغوسلافيا والسويد وايطاليا ، وعلى مستوى أدنى تتابعت البعثات التجارية والصناعية والتقنية في البلدان الأوروبية .

وفي أفريقيا : زار عدة قادة من بينهم وزير الشؤون الخارجية هوانغ هوا الزايير والكونغو والصومال والغابون والكامرون ؛ وفي نفس الوقت استقبلت الصين رؤساء ، حكومات الموزمبيق وروواندا وليبيريا .

وفي الشرق الأوسط : زار هواكوفينغ ايران ، وذهب قادة آخرون الى الكويت والاردن ، كما أقامت الصين في المدة الاخيرة علاقات ديبلوماسية مع كل من عمان وليبيا .

وفي أمريكا : تمت زيارات هامة لكل من فنزويلا والمكسيك وكاندا وجمايكا وغويانا كما أن المبادلات مع الولايات المتحدة التي كانت في نقطة الصفر منذ مدة قد استؤنفت بكثافة بعد زيارة برزيزسكي للصين في نهاية مايو ؛ وتوصلت بعثة الباحثين العلميين التي رافقته الى اتفاق حول تنمية التبادل ، كما قدمت فرقة فنية صينية استثنائية عروضا في خمس مدن أمريكية في يوليوز ، وحلت بعثتان من الصحافيين الصينيين بالولايات المتحدة الامريكية .

لماذا هذا النشاط في الوقت الراهن ؟

هناك أسباب داخلية بالنسبة للصين . فمنذ سنتين ، مباشرة بعد تصفية اليسار المتطرف كانت الصعوبات والتخوفات الداخلية كثيرة ، والانتاج الزراعي والصناعي في ركود ، بل في تقهقر . وكانت بكين تستقبل آنذاك عدة ضيوف اجانب ، لكنه كان من المستحيل بالنسبة للقادة الصينيين مغادرة البلاد والقيام بزيارات . ومنذ استدعاء الجمعية الوطنية الخامسة في مارس 78 استؤنفت سير الأجهزة القيادية بشكل عادي ، ومن جهة أخرى دفع مشروع « التحديثات الاربعة » الصين الى الرفع من مبادلاتها الاقتصادية والتجارية والتقنية والثقافية مع البلدان الاخرى .

ومن البديهي أنه لا يمكن فصل الاسباب ذات الطابع الدولي عن اطار الصراع بين القوتين الأعظم (الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي) من

أجل الهيمنة العالمية . ولقد عرف هذا الصراع في الآونة الاخيرة تغيرات هامة فبعد تدخله بواسطة الكوبيين في أنغولا ، أعاد الاتحاد السوفييتي الكرة مرتين في الزايير وتدخل في القرن الافريقي ؛ وفي شهر أبريل أطاح الحزب الموالي للسوفييت بالحكومة الافغانية التي كانت تحاول الالتزام بالحياد ، وفي شهر يونيو ، دبرت مؤامرة سياسية لم يسبق لها مثيل في اليمن الجنوبية وأدت الى تغيير السياسة الخارجية لهذا البلد لصالح الاتحاد السوفييتي . وفي نفس الوقت ، طرد الفيتنام الرعايا الصينيين وشرع في نهج سياسة معادية للصين . وكان الاتحاد السوفييتي من وراء كل هذا . كما كان أسطوله البحري يرسو في موانىء اليمن والفيتنام .

ان عدوانية الاتحاد السوفيتي تتجلى كذلك في علاقاته مع الولايات المتحدة الامريكية ، ولم تؤد المرحلة الثانية من المفاوضات من أجل الحد من التسلح (سالت) الى أية نتيجة نظرا للشروط التي وضعها الاتحاد السوفييتي. وفي الداخل استمر هذا الأخير في قمع وادانة المنشقين رغم احتجاجات وتهديدات الرئيس كارتر باسم حرية المبادلات بين الناس . وكل ما يمكن أن يقوله الرئيس كارتر لا يساوي على ما يبدو قيد أنملة .

وتثير أطماع الاتحاد السوفييتي تخوفات في العالم بأسره . وان موقف العديد من الدول ازاء كوبا والفيتنام خلال المؤتمر الاخير لدول عدم الانحياز لدليل على ذلك . وبما أن نزعة الهيمنة الامريكية توجد الآن في موقع دفاعي فان الصين تعتبر ان الاتحاد السوفييتي يشكل العدو الاخطر بالنسبة لها وللاخرين وأن الوقت قد حان لتشكيل جبهة عالمية موحدة ضده .

هدفان رئيسيان :

ان الهدف الاول للسياسة الخارجية الصينية هو تقوية وحدة كل البلدان ضد التوسعية السوفييتية . اما هدفها الثاني فهو الاسهام في عصرنة الصناعة والفلاحة والدفاع الوطني والعلوم والتقنيات من أجل اللحاق بالمستويات المتقدمة في العالم . ون هذين الهدفين مرتبطان : اذ تتطلب العصرنة بيئة سلمية ، وبالتالي احباط المناورات الاحرابية للاتحاد السوفييتي .

ان النشاط الديبلوماسي للصين سياسة شمولية ذات طابع عالمي ، بيد ان لها أسبقيتين وهما آسيا وأوروبا :

آسيا أولا : لان الصين نفسها توجد بها ولأن البلدان المكونة لها عدا اليابان ، دول نامية ولهذه الدول اذن سمات مشتركة ، والتعاون والمبادلات بينها أسهل منها مع أية منطقة أخرى في العالم . وان اقامة علاقات الصداقة المستقرة مع الدول الآسيوية أساسية مهما كان المنطلق وفي حالة وقوع حادث خطير فان هذه الدول هي التي من شأنها أن تحارب بجانب الصين العدو العنيد . ولقد تأكد هذا الاتجاه الديبلوماسي بتوقيع المعاهدة الصينية ـ

انيابانيـــة .

أوروبا ثانيا : حيث يعرف التنافس بين السوفيات والامريكان حدتـه القصوى . وان النشاط الديبلوماسي المباشر للصين في هذه البلدان بمكنها من اعاقة مناورات القوتين الاعظم وتشجيع وحدة واستقلال أوروبا . وهناك عامل آخر يعود الى كون أوروبا تجمع بلدان بلغت مستوى عاليا من التصنيع ولكل منها تجهيزات وتقنيات وأساليب طليعية . ومن المعلوم ان الصين في حاجة لكل هذا لكي تتعصرن .

ومع أخذ هذا الاطار العام وخصوصياته بعين الاعتبار ، يصبـح مـن اليسير فهم اختيار القادة الصينيين لكل من رومانيا ويوغوسلافيا وايـران لتكون هدفا لزيارات رئيس الحزب .

في « الفناء الخلفي » للاتحاد السوفياتي :

هكذا يمكن تسمية هذه البلدان الثلاثة . تقع رومانيا ويوغوسلافيـا في شبه جزيرة البلقان ، أي على الطريق البري الذي يمكن الاتحاد السوفياتـي من الوصول الى البحر الابيض المتوسـط . انهمـا اذا يحتـلان موقعـا استراتيجيا أساسيا ، واذا وقع تحت مراقبة الاتحاد السوفياتي فانه يفتـح لهذا الاخير طريقا نحو أوروبا وافريقيا الشمالية والشرق الاوسط . ولم يفتأ الكرملين يضع خططا ليحتل هناك مواقع عسكرية . لكن بدون جدوي .

أما ايران لحدوده المشتركة مع الاتحاد السوفياتي تمتد عبـر قرابـة 2000 كلم ، ومن بين البلدان الآسيوية فان الصين ومنغوليا لهما وحدهما حدود اطول . ومن هنا ندرك بسهولة الخطر الذي يحدق به . وان محـط اطمـاع السوفيات هو موانيء الخليج ، بل أكثر من ذلك الثروات النفطية لاحدى أكبر الدول العشر المنتجة في العالم ، ويقدر ان الثروات السوفياتية من البترول ستعرف أزمة في السنوات الثمانين . ومع الاحداث الأخيرة في افغانستان ، فان التهديد يصبح أكبـر .

وبما ان الصين نفسها معرضة للتطويق من لدن الاتحاد السوفياتي ، فان علاقاتها الودية مع الباكستان والكمبودج ودول غرب أوروبا تكتسي أهميـة بالغة . ومع أية بلدان اخرى تجب عليها اقامة علاقات صداقة ؟ ان الجـواب بسيط : مع رومانيا ويوغوسلافيا وايران .

ان التاريخ الذي اختارته الصين لسفر « هواكوفينغ » ليس اعتباطيا اذ انه يصادف تماما الذكرى العاشرة لغزو تشيكوسلوفاكيا . ومن المعلوم ان كلا من رومانيا ويوغوسلافيا قد انتهجت دائما سياسة استقـلال ، وقـد عارضتا في حينه تدخل الجيوش السوفياتية . وان مجيء هواكوفينغ الى هذين البلدين بالضبط وفي ذلك الوقت بالذات للتحدث فيهما عن سياسة الاستقلال وضد التدخل والمراقبة الاجنبية سيكون له صدى اكبر في الدول التي تدور في

تلك السوفيات بأوروبا الشرقية ، حيث يتزايد الاستياء من السوفيات . وان الكرملين لم يخطىء وان تخوفه قد أدى به الى شن حملة دعائية واسعة ضد السفـر .

وكانت الخطب الرسمية التي لقيت في البلدان الثلاثة والمقالات التـي نشرتها الصحافة معتدلة تجاه الاتحاد السوفييتي . ولقد تجنب هواكوفينغ احيانا استعمال تعبير « نزعة الهيمنة » الممقوت من طرف موسكـو . وهـذا يعني فقط أنه لم يكن من المرغوب فيه الحديث عن بعض الأشياء علنـا ، ولا يعني وجود خلافات بين الطرفين بصدد التهديد السوفياتي . ومن المؤكد ان الصين قد توصلت الى اتفاق مبدئي حول هذه المسألة مع كل من هذه البلدان الثلاثة . ولولا ذلك لما أقدم هواكوفينغ على سفر من هذه الأهمية ولما خاطرت البلدان المضيفة باثارة حفيظة موسكو . ولنشر مـن جهـة أخرى الـى ان هواكوفينغ قد زار في رومانيا قاعدة بحرية استراتيجية على البحر الأسود وعلى بعد 30 كيلومتر من الحدود البلغارية . وقد أكد البلاغ الرسمـي ان الصيـن ورومانيا متفقان على « تعزيز تعاونهما في الشؤون الدولية » .

ان اختلافا تعديدة تفرق بين الصين وكل من الدول التي تمت زيارتها ، بيد ان لجميع هذه البلدان نقطتين مشتركتين تسهلان تفاهمها المتبادل وتعاونها انها تواجه التهديد السوفياتي من جهة ، وتحاول تدعيم سيادتها واستقلالها مع شعور وطني قوي من جهة أخرى . ان تطوير علاقاتها يمكن أن يمارس تأثيرا على أوروبا الشرقية ، بل وحتى على أوروبا بأجمعها . وترتبط الصين بعلاقات ودية ومتينة مع البلقان رغم التغيير الذي طرأ على البانيـا . ان التغيـرات المفاجئة لمزاج هذه الأخيرة تحول دون اضطلاعها بدور في السياسة العالمية في حين أن بلدا مثل يوغوسلافيا هو ، على العكس من ذلك ، جد ديناميكي على الساحة الدولية .

(هذا جزء من مقال نقلته المجلة الفرنسية « ريح الشرق » في عددها 11 الفصل 3 من سنة 1978 عن مجلة « غوغجياوجينغ » المقربة من الجمهورية الشعبية الصينية والصادرة بهونكونغ عدد غشت 1978)

11) مقتطفات من تقرير لـ هوانغ هوا :

لقد مرت 32 سنة على نهاية الحرب العالمية الثانية وقد طرأت تغييرات كبيرة على الوضع الدولي . ان مستعمرات عديدة قد أعلنت عن استقلالهـا . وحصلت هذه الامم على استقلالها بالكفاح المسلح وبانتقال سلمي . ويمكنكم تسمية هذا كما طاب لكم ، غير انها (أي الامم) حصلت على استقلالها بفضل نضالات ثورية لانه لولا النضال لما تخلى الامبرياليون عن السلطة السياسية ولما انسحبوا . بيد ان هذه الدول الجديدة لم تستأصل بقايا الاستعمـار وان

كان لكل منها اسم وعلم وحكومة خاصة وانها مـا تزال تابعـة لأسيادهـا السابقين من الناحية السياسية والاقتصادية ، بل أكثر من ذلك ، فان هؤلاء يراقبون جيوشها ؛ وفي بعض الدول لم يغادر الاجانب الاجهـزة القياديـة . وحصيلة هذا كله هي سيطرة استعمارية بدون استعماريين . ان هذه البلدان التي حصلت على الاستقلال منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تشكل الأغلبية الساحقة في أسرة الامم . وانها تعاني من الفقر والمجاعة وقلة التشغيل ونمو اقتصادي غير مستقر من التبعية الاقتصادية ومن بيروقراطية فاسدة وميزان تجاري عاجز بالاضافة الى مشاكل أخرى . ان هذا يؤكد أنه ما زال من المستحيل بالنسبة لها التخلص من ظل الاستعمار .

ومن جهة أخرى ، ان استعمارا جديدا أكثر فظاعة ، الامبريالية الاشتراكية قد أصبح متغطرسا أكثر فأكثر في سعيه لاحتلال مواقع الامبرياليات الكلاسيكية ونشر الهيمنة في العالم . ولقد أرسل قواته الى تشيكو ـ سلوفاكيا تحت راية الوحدة والاستقرار داخل « الاسرة الكبيرة » واستبعد شعوب بلدن أوروبـا الشرقية باسم السيادة المحدودة كما حرض كوبا على ارسال جيوشها الـى انغولا لقمع الثوريين مدعيا تدعيم حركة التحرير الأنغولية وجعل من هذا البلد مستعمرة له في افريقيا الغربية وبذر الشقاق في كل أرجاء المعمـور ؛ وأحكـم مراقبته العسكرية لنيجيريا وجزأ الباكستان ووسع نفوذه بالهند في حين ان سفنه الحربية تبث عدم الاستقرار في المحيط الهندي .

وبعد نهاية حرب الفيتنام التي سجلت اندحار واشنطـون ، اتخـذت الولايات المتحدة الامريكية موقفا أكثر انعزالية كما حاول الاتحاد السوفياتي في اطار استراتيجية شاملة احتلال موقعها . وعدة أحداث أخرى قـد تبين ان التحريفية السوفياتية ، بأخذها مكان الاستعمار الكلاسيكي ، قد أصبحت الاستعمار الاشتراكي الجديد .

ومما سبق نتبين بوضوح ما هي مهام ومميزات وأهداف الثورة . نصل الى الخلاصة انه على الماركسيين ـ اللينينيين والاحـزاب الماركسيـة ـ اللينينية ان يدركوا ان الثورة حاليا لا تمر بمرحلة مد للثـورة الاشتراكيـة العالمية ولكنها تمر بمرحلة تكوين وتحضير الثورة الاشتراكية . وان حركات التحرير الوطني والحركات الثورية الوطنية تشكل اليوم موضع الاهتمـام . وعلى المستوى الشامل فان الصراع يدور حول كيفية توحيد كل الحكومـات والشعوب في العالم من أجل تصفية مخلفات الاستعمار والتدخـل الاجنبـي والدفع الى الامام بالنضال ضد السلطتيـن المهيمنتيـن وخصوصـا ضـد الامبريالية الاشتراكية السوفياتية بدل ان يدور (الصراع) حول الاستيلاء على السلطة السياسية من طرف الاحزاب البروليتارية .

وان النضال ضد الهيمنة يشكل الاتجاه الرئيسي للصـراع العالمـي

وطموح أغلبية الشعوب ويتطلبه عصرنا . وفي هذا النضال ليست البروليتاريا وحيدة وعليها أن تشكل جبهة موحدة مع أوسع الجماهير . وانه لمن المهم القيام بعمل متقن في العالم الثالث . لكن هل يتناقض موقفنا من هذه المشاكل مع دعم البروليتاريا الذي اعتمد الكفاح المسلح للاطاحة بالطبقة السائدة ؟ قطعا لا .

(هذه مقتطفات من التقرير الذي ألقاه هوانغ هوا وزير خارجية الصين يوم 30 يوليوز 1977 وتم نشره بالانجليزية في طابوان، ونقلته المجلة الفرنسية « ريح الشرق » عدد 10 الفصل 2 لسنة 1978)

3) نقد نظرية « العوالم الثلاثة » الصينية :

لقد أصبحت « نظرية العوالم الثلاثة » ، منذ أزيد من ثلاث سنوات ، المذهب الرسمي للسياسة الخارجية الصينية كما أنها تشكل الاساس النظري لهذه الأخيرة . وبالرغم من القفزات السياسية الفجائية التي شهدتها الصين في الآونة الاخيرة ، فان « نظرية العوالم الثلاثة » قد برهنت على استمرارية ملحوظة ويبدو أنها لم تكن أبدا محل تساؤل عميق .

وهناك مع ذلك عدة أسباب لاعادة النظر في مجموعة من الأطروحات مفروض أنها تفسر سياسة خارجية يظهر أنها قد فقدت كل مدلول طبقي والتي تكثر من اتخاذ مواقف تطبعها انتهازية تصبح أحيانا مخزية .

وأخيرا لا يمكن للمرء الا أن يتساءل حول **الطبيعة الطبقية** لهذه السياسة. كما يمكن تقييمها ، ليس انطلاقا من مثال ملموس أو حتى من أمثلة عدة ، ولكن انطلاقا من منطقها الداخلي العميق ومن المبادىء التي تشكل أساسها . ويصبح فعلا من المستحيل اعتبار ان الأمر يتعلق بمجرد « أخطاء » ، ما دامت هذه الأخيرة قد اتخذت طابعا منهجيا ، وتعممت ، كما أنها تستعمل بشكل واع ومحدد ومنظر . ويمكن الحديث من هذه الزاوية عن تحول كيفي وحقيقي منذ بداية سنوات السبعينات تقريبا . وهذا لا يعني ان السياسة الخارجية الصينية كانت قبل هذا خالية من كل « خطأ » وانما يعني ان خطوطها العامة وخصوصا المساعدة الفعلية المقدمة لأغلبية حركات التحرير الوطني ودعم النضالات البروليتارية والشعبية الكبرى في العالم (مثلا ماي 1968 في فرنسا) كانت مرافقة للاتجاه العام لهذه النضالات **ولمتطلبات** بروليتاريات وشعوب العالم .

منذ السبعين تقريبا ، أصبح الخطأ هو القاعدة والجوانب الصحيحة ثانوية . غير ان هذه الجوانب السديدة (انه من الصحيح مثلا فضح الامبريالية الاشتراكية) غالبا ما تفسدها ممارسات وحيدة الجانب ، تؤدي موضوعيا الى تقوية أعداء تدعي محاربتهم . وسبق لنا أن أوضحنا هذا بصدد انغولا ،

حيث ان سياسة معادية للاتحاد السوفياتي وصلت الى مستوى العبث قد أدت الى تقويض النفوذ الصيني وساهمت بالملموس في تقوية المواقع السوفياتية في جنوب القارة الافريقية .

اننا أمام سياسة تستند على اتجاهات حقيقية وتنفرد بابرازها (الطابع الرأسمالي والامبريالي للاتحاد السوفياتي) من جهة ، وتؤدي منطقيا الى مواقف خاطئة بشكل خطير من جهة ثانية . ان المطروح هنا هو التمييز بين ما يمكن أن يكون مفيدا للصراع الطبقي على الصعيد العالمي وما يشكل ، على العكس ، نواة ومنبع الأخطاء المطروحة . هذا هو ، بالتحديد ، الهدف الاساسي لنقد السياسة الخارجية الصينية ؛ والتمييز بين ما يخدم قضية البروليتاريا العالمية والشعوب المضطهدة ويمكنها من توجيه نضالها وتحديد أعدائها ، وما يؤدي بها ، بالعكس الى الهزائم والى الاذعان للاستغلال والاضطهاد . ان نقد السياسة الخارجية الصينية يعني بالنسبة الينا الانطلاق من وجهة نظر البروليتاريا وتمهيد الطريق للصراع الطبقي وبالتالي الاسهام في هذا الصراع. ان هذا أساسي في الوقت الذي نرى فيه عددا من أولئك الذين كانوا لمدة من الزمن حاملين لواء الماوية المناضلة يعيدون لنا بشكل محزن واستغفاري أصل مسار أصبح جد معروف وينقلب من مساندة لا مشروطة وعدوانية الى حقد . وذلك تحت التأثير المشترك لخيبات الأمل الصينية (الداخلية والخارجية) وأزمة أقصى اليسار في فرنسا . ان أولئك الذين كان افقهم الماركسي ينحصر عموما في الصين ، ليس من الغريب أن نراهم اليوم يطردون الأرواح الشريرة الماركسية واللينينية ، المسؤولة (!) بدون شك عن كون الواقع أقل جمالا مما كانوا يحلمون .

وبمجرد ما ننطلق من زاوية الصراع الطبقي ونرفض التبريرات الذاتية الصينية التي تكتفي بها أغلبية « الماركسيين اللينينيين » الذين يدورون في دوامة ، مفسرين مثلا السياسة الصينية في أنغولا « بنظرية العوالم الثلاثة » والعكس فاننا ننزع طبعا الى النقد .

ان تطور الصراع الطبقي والاسبقية التي تعطى له برفض التضحية به في سبيل الضروارت الديبلوماسية هو الذي يدفع بالفعل الى هذا النقد . ان العمال البرتغاليين (...) وشعوب ظفار والخليج ، وشعوب البرازيل والشيلي الذين يرزحون تحت نير الديكتاتورية الفاشية أن الشعوب الافريقية التي تعاني أغلبيتها من عنف مستبدين قروسطويين ، هي التي تحاكم في العالم الثالث سياسة و « نظرية » لا تأخذان بعين الاعتبار طابع نضالها . بل أكثر من ذلك ، تمدان بدعم سياسي ضمني على الأقل، أعداءها . وفي « العالم الثاني » ، ان البروليتاريا والطبقة العاملة هي التي من حقها أن ترفض سياسة حكومة تستقبل بدعاية صاخبة ولا تبخل بتشجيع كل ما في أوروبا من

محترفي السياسة الرجعيين وأعداء التقدم ، كل هؤلاء المجرمين محترفي معاداة الشيوعية الذين يبرز كل حديث لهم حقد للطبقة العاملة ؛ كل هؤلاء « المدافعين عن أوروبا حرة ومستقلة » مأجوري المخابرات المركزية الامريكية وكل فضيحة تبين ذلك أكثر فأكثر !

في أغلب الحالات ، تذهب المواقف الصينية أبعد مما تتطلبه الحلول الوسطى الضرورية التي قد تضطر ديبلوماسية بلد اشتراكي الى قبولها ، انطلاقا من تطور الوضعية العالمية واعتبارا لمهمة الدفاع عن هذا البلد ضد التهديدات الامبريالية التي يتعرض لها .

ذلكم بلد اشتراكي، ما زال البعض يعتبره، « قاعدة ارتكاز لبروليتاريات وشعوب العالم » (!) تربطه علاقات ممتازة ببينوشت وليست له أية صلة بالمقاومة التي لم يذكرها أي نص صيني ، والذي يمدح السادات الذي يأمر باطلاق النار على المظاهرات العمالية ، هذا البلد الذي يستقبل نيكسون سفاح عيد ميلاد المسيح لسنة 72 بالفيتنام ، بعد ازاحته من السلطة ؛ والذي يتملق لشاه ايران الفاشي المعروف وذباح شعب ظفار ؛ والذي يتحالف في الواقع مع شرذمة من الفاشيين البيدس ، ومع افريقيا الجنوبية من أجل سحق الحركة الشعبية لتحرير أنغولا ... الخ ، وهناك الكثير . ويظهر ان الصين على طريق الفقدان المنهجي لعطف كل البروليتاريات والشعوب تقريبا والتي تناضل ، وبالسلاح أحيانا ، ضد اضطهاد قاس في كثير من الحالات ، وذلك بذريعة ان الاتحاد السوفياتي يمدها بالدعم السياسي والمادي ويحاول استعمال هذه النظالات لتقوية نفوذه العالمي وتوسيع سياسته الامبريالية . وبالعكس من ذلك ، فانها (اي الصين) تخصص تشجيعاتها لمضطهديها وتعبر عن رضاها عنهم وتمنحهم شهادات معاداة الامبريالية (!) التي لا يتأخرون في استعمالها كتزكية لسيطرتهم من طرف اليسار .

وآخر ماثرة لديبلوماسية كنا نعتقد ان مفاجئاتها قد انتهت : الكلمات القليلة التي فاه بها كياوكوان هوا في الأمم المتحدة بصدد لبنان : « ان مساندتنا الثابتة مضمونة للنضال العادل للشعب الفلسطيني وللشعوب العربية الأخرى من أجل استعادة الحقوق الوطنية واسترجاع الاراضي المحتلة وضد تنافس القوتين الاعظم الرامي الى الهيمنة في الشرق الاوسط . اننا نامل صادقين ان تغلب القوات السياسية المختلفة بلبنان المصالح الوطنية لهذا البلد باتفاق مع البلدان العربية المعنية والشعب الفلسطيني وأن تأخذ بكامل الاعتبار التضامن النضالي للبلدان العربية وتتوصل بالقضاء على تدخل القوات العظمى ، الى حل النزاعات المؤقتة التي تفرقها بواسطة اتصالات سلمية » .

يلاحظ هنا ان محاولة التصفية الجسدية للمقاومة الفلسطينية من طرف

القوات الفاشية الموالية للامبريالية وحليفة اسرائيل توصف بكونها « خلافات مؤقتة » ! وان مليشيا الكتائب توضع على قدم المساواة مع الفلسطينيين واليسار اللبناني « الفصائل المختلفة » ، وتضامن الدول العربية في حين ان الاغلبية تلقت بارتياح صريح أو ضمني التدخل السوري . وهكذا تظهر طبيعة « الدعم الثابت » الذي تمده الصين لنضال المقاومة الفلسطينية والذي يؤدي في الواقع الى الموافقة على المؤامرة المعادية للفلسطينيين والمدبرة من طرف الامبريالية الامريكية والصهيونية وبالمشاركة النشيطة للأنظمة الرجعية العربية .

ما هو الدرس الذي يمكن استخلاصه من هذه الامثلة ؟ :

1) ان الصين تطبق خط « كل شيء ضد الاتحاد السوفياتي » ، وهي صيغة مبسطة ومتطرفة بشكل خاص لنظرية العوالم الثلاثة والتي تؤدي بالصين الى التعامل مع القوى الاكثر رجعية .

2) لقد نسيت الصين وضع أي حد طبقي فاصل في سياستها . ولبلوغ أهدافها في السياسة الخارجية لا تعتمد في الواقع الا على القوى البرجوازية وتعمل تبعا لذلك على اخضاع الحركة الشعبية لهذه الاخيرة وتقدم هذه القوى البرجوازية على انها تقدمية ، بل وثورية .

4) تنزع الصين الى استبدال الأعداء الرئيسيين لكل شعب بالقوتين الأعظم وخصوصا بالاتحاد السوفياتي . انها تميل الى اجبار القوى الشعبية على النضال ضد الأعداء الذين تعينهم لها . وبهذا تنتهج سياسة قوة عظمى ترمي الى ارضاء مصالحها الوطنية وتضحي من أجلها بمصالح البروليتاريات والشعوب التي تدعي أنها تساندها .

ان قرار مساندة أو عدم مساندة نضال ، وان قرار مساعدة أو عدم مساعدة حركة أو حزب لا يستند في الواقع الى الوضعية الملموسة للنضال ولكن الى المنظور العام لسياسة الحزب الشيوعي الصيني . ان الحجة القائلة ان كل نضال يجب ان يقيم بشكل رئيسي انطلاقا من الوضع الدولي وليس انطلاقا من الحالات الخاصة ، ان هذه الحجة غير مرضية : وبالفعل ، من المؤهل لاقرار نهج واستراتيجية مختلف الشعوب التي تناضل من أجل تحريرها أو من أجل الاشتراكية ؛ أهي الصين ؟ ولماذا ؟ ومن أين تستمد هذه الصلاحية على حساب الحركات والأحزاب البروليتارية والشعبية الاخرى ؟ ان السبب الوحيد الذي يمكنه أن يجعل الجماهير الشعبية تضع ثقتها في الصين ليس هو الماضي الثوري لهذه الأخيرة مهما كان مشرقا ونموذجيا وانما **الطابع البروليتاري للحزب الشيوعي الصيني الحالي** . لكن كيف يمكن تقييم هذا الطابع الحالي **بمعزل عن المواقف السياسية** في الوضع الدولي .

اننا ندرك الطبيعة الدائرية لهذه الحجة ، فالاسلوب الوحيد للافلات

من هذه الدوامة هو الاقرار بشكل نهائي ان الصين الحمراء لن تتغير ولا يمكن ان تكون الا حمراء . وبمجرد ما ترفض وبحق ، هذه المسامة العبثية لا يمكن الاكتفاء بالنقل الأمين للمواقف الصينية ويصبح من الضروري التحليل الملموس لكل حالة مملموسة لتحديد سياسة ما . وان رفض وجهة النظر هذه يعني احتقار بعض الطموحات الشعبية لفائدة اعتبارات سامية واقحام كل حالة خاصة في تصور مسبق .

وفي « رسالة النقط الخمسة والعشرون » (1963) كتب الحزب الشيوعي الصيني : « ان ما تطالبه بالحاح بروليتاريا وعمال العالم بأسره بصفة مشتركة من الأحزاب الشيوعية والعماليةفي العالم بأسره هو أن تقاوم السياسة المعادية للشيوعية وللجماهير والمناهضة للثورة التي تنهجها رجعية مختلف البلدان ، وان تدعم وتساند النضال الثوري للطبقات والامم المضطهدة في العالم بأسره » (النقطة 16) . وقبل ذلك كتب : « ان الموقف من النضال الثوري لشعوب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية يشكل نقطة هامة كمقياس يمكن من التمييز بين الذين يريدون القيام بالثورة والذين لا يرغبون فيها » (النقطة 8) .

ان « رسالة النقط الخمسة والعشرون » ليست كتابا ظرفيا . ولكنها نص يعرض وجهة النظر الشيوعية والبروليتارية في مناقشة حول المبادىء ويحاول وضع الحد الفاصل بين الماركسية ـ اللينينية والتحريفية .

ويمكن أن نقيس الفرق الشاسع بين المبادىء المعروضة هنا والممارسة الحالية للصين ! على هذا الصعيد . ان السياسة الصينية الراهنة أقرب الى السياسة السوفياتية للمرحلة السابقة ! وتشترك السياستان في نقطة ذات أهمية بالغة « **نسيان** » **الصراع الطبقي** الغائب تماما عن « نظرية العوالم الثلاثة » التي يجب العودة اليها اذن .

نظرية العوالم الثلاثة :

من الممكن أن نحاول تحديد الخطوط العريضة لهذه النظرية :

1) ان العالم ينقسم اليوم الى ثلاث مناطق متميزة ، كل منها يحدد بنوع الدول التي يشملها : **العالم الاول** ويتكون من القوتين الاعظم ، الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي . **العالم الثاني** ويشمل أوروبا واليابان أساسا ؛ وأخيرا **ثالث العوالم** وهو العالم الثالث الحالي . ان العلائق التي تربط بين هذه المناطق الثلاث تحدد الى حد بعيد الحركات الكبرى التي تميز اليوم تاريخ العالم والتي وصفها مؤخرا كياو هوان هوا كما يلي : « فمن جهة ، العالم الثالث الذي يقف بصرامة في وجه الامبريالية وخصوصا ضد نزعة الهيمنة للقوى العظمى ومن جهة أخرى تتنازع القوتان لاعظم ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الهيمنة على العالم » .

اما العالم الثاني فبالرغم من بقائه أمبرياليا بالأساس ، فان ميزته الرئيسية هي حسب وزير الخارجية الصيني دائما ، كونه : « يعاني من الاضطهاد والاستغلال والسيطرة ، ومن تهديد القوى العظمى » .

2) ان التناقض الرئيسي على الصعيد العالمي قائم اليوم بين العالم الثالث والامبريالية « وبشكل خاص » نزعة الهيمنة لدى القوى العظمى . لنلاحظ ، ان عبارة « بشكل خاص » هذه التي يربط بها الصينيون النضال ضد الامبريالية والنضال ضد الهيمنة ، تطرح في الممارسة أكثر مما تحله من المشاكل : ان مسألة الأعداء المباشرين غير الامريكان والسوفيات تصبح كلها محجوبة بواسطة هذه الصيغة المبهمة والقابلة لكل أنواع التفسيرات سيما تلك التي تخضع كل نضال ، مهما كان ، للنضال ضد الهيمنة .

ان هذه الصيغة تخفي في الواقع انزلاقا في المعنى ليس ببريء : اذ لا يمكن أن نضع في نفس المستوى الامبريالية التي تتعلق بالعلاقات الطبقية ونزعة الهيمنة التي تتعلق بالعلاقات بين البلدان : ان الامبريالية هي التعبير عن السيطرة الطبقية للبرجوازيات الاحتكارية في العالم الرأسمالي ، اما الهيمنة فانها تعبر عن عدم تكافؤ مختلف الدول الرأسمالية فيما بينها .

ان الصياغة الصينية تضع اذن كمهمة اولوية (« بشكل خاص ») النضال ضد سيطرة بعض البلدان على حسب النضال ضد **المصالح الطبقية** . ان الامبريالية ونزعة الهيمنة لا تشكلان بكل تاكيد واقعين مستقلين بل انهما مرتبطتان بشكل وطيد : ان البلدان الامبريالية تنزع طبعا الى الهيمنة العالمية كما ذكر بذلك لينين . الا أن صياغة الحزب الشيوعي الصيني تعطي صورة مشوهة لهذه العلاقة وذلك بقلبها لتلك العلاقة . ان النضال ضد البلدان المهيمنة قد يميل الى التغلب على النضال ضد الامبريالية ، او لمزيد من الدقة ، ان هذه الصياغة يفهم منها ضمنيا أن الدول المهيمنة (الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) هي وحدها الامبريالية الحقيقية . وهكذا يتطابق المفهومان ، الأمر الذي له نتائج سياسية خطيرة وخاصة بالنسبة للنضال ضد الدول الامبريالية الغير المهيمنة مثل فرنسا .

3) ان الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في العالم الاول ترتبط ، حسب نظرية العوالم الثلاثة ، بعلاقات جدلية تنافس / تواطؤ : التواطؤ على حساب الشعوب ، والتنافس فيما بينها من أجل الزعامة العالمية . بيد ان طابع التنافس مطلق في حين ان طابع التواطؤ ليس الا نسبيا ، وفي يوم ما سيؤدي التنافس المحتدم الى الحرب . ومن جهة اخرى ، ان الدولتين ليستا في نفس المستوى : في وجه الولايات المتحدة ، السائرة في طريق الانحطاط والمهزومة في الهند الصينية وأنغولا والتي فقدت كل اعتبار في كل أرجاء العالم تقريبا ، والمريضة على الصعيد الاقتصادي ، في وجه هذه يتأكد عنفوان وقوة

الدولة السوفياتية ، العدوانية والطموحة والملكللة والحاملة للشعار « الاشتراكي » المميز ؛ انها تشكل « الخطر الرئيسي » . ولكن هذه الصياغة هي مرة أخرى جد مبهمة : ما هو الفرق بالضبط بين عدو رئيسي وخطر رئيسي ؟ الا تؤدي هذه التحقيقات السمانطيقية في الواقع الى اعتبار الاتحاد السوفياتي وكأنه العدو الرئيسي الوحيد ؟ والا تشكل في الواقع ترميما هادفا الى طمس سياسة محابية ازاء الولايات المتحدة الامريكية ؟ .

4) وفي الأخير ، ان آخر عنصر رفي المجموع ، أوروبا وخاصة أوروبا الغربية ، يشكل في النهاية الرهان الحقيقي للتنافس بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة بالرغم من كونها الآن لا تفكر الا في التضارب في العالم الثالث .

لهذه الأسباب كلها ، تشكلت في العالم « موضوعيا » ، جبهة موحدة ضد القوتين الأعظم تضم مجموع الدول والحركات الشعبية (أو الغير شعبية على كل حال) التي لها مصلحة لسبب أو لآخر في معارضة مشاريع الهيمنة والتوسع لاحدى القوتين الاعظم او للاخرى . ان هذه الجبهة تضم يسارا نشيطا موطد العزم (الدول الاشتراكية ، الصين ، كوريا ، الكامبودج ...) ووسطا مستسلما الى حد ما ومعتدلا الى حد ما (دول العالم الثالث) ويمينا مترددا وغير موثوق فيه (دول العالم الثاني) .

من هنا نستنتج منطقيا المهام الثورية للأحزاب والحركات الماركسية ـ اللينينية بالعالم الثالث والعالم الثاني : يجب على الاولى دعم حركات الاستقلال السياسي والاقتصادي القوية لبلدانها وعلى الثانية أن تميز بعناية في سياسة برجوازياتها بين الجوانب السلبية (البقايا الامبريالية) والجوانب الايجابية (معارضة العالم الاول وبشكل خاص الاتحاد السوفياتي) ، ومقاومة ما هو سلبي وتشجيع ما هو ايجابي والقيام بمحاسبة دقيقة للجوانب الحسنة والسيئة للامبرياليات الثانوية وبالتالي اتخاذ مواقف مسؤولة تساند تلك الجوانب الحسنة ، تلك هي مهامنا نحن ثوريي العالم الثاني .

ان هذه النظرية تعكس ، وذلك ما لا يمكن نفيه ، **اتجاهات واقعية** على الصعيد العالمي : « بروز العالم الثالث » و « التصاعد » النسبي « لقوته » ، ومجهود التصنيع والتنمية الاقتصادية التي شرع فيها ، واعادة التفاوض الذي فرضه بصدد اتفاقيات « التعاون » في اتجاه أكثر ملاءمة والاستقلال الذاتي المتنامي الذي يكتسبه ، تجاه القوى الاستعمارية القديمة : تلكم بعض الأحداث الهامة للتاريخ المعاصر . وفي نفس الوقت ، ان بروز الاتحاد السوفياتي كقوة امبريالية تطمح الى الاضطلاع بدور عالمي يتجاوز الحدود التقليدية لمنطقة نفوذها ووضعية التنافس التي توجد فيها في الواقع مع الولايات المتحدة الامريكية تشكل اتجاهات تاريخية بالتاكيد .

المشكل هو ان نظرية من هذا القبيل هي في الواقع أكثر من مجرد وصف بسيط للوضع الدولي . انها فعلا غير قابلة للفصل عن نوع السياسة الذي تبرره على المستوى النظري . واذا كانت الوقائع لا ينازع فيها فان ترتيبها بالعكس من ذلك . وان الاهمية المعطاة لهذا الحدث أو ذاك بل وحتى طريقة طرح المسألة وتمييز القوة المحركة ، واستخلاص طبيعة المهام الثورية منها ، ان هذا كله بعيد من أن يكون غير قابل للجدال وانه رهين بزاوية النظر المعتمدة ، سيما ان هذه النظرية لا تأخذ بعين الاعتبار **الاجزاء من الواقع** وتفعل عمدا الجزء الآخر الذي يعتبر ضمنيا ذا أهمية أقل بالنظر للاتجاهات التي تحدثنا عنها . ان هذا التجاهل على المستوى النظري يتبين مغزاه كله على المستوى السياسي عند ما يسدل الستار ببساطة بل وحتى عند ما تحارب طموحات بروليتارية وشعبية لا تأخذها النظرية بعين الاعتبار ، مثلا طموحات الشعب الايراني في التخلص من ديكتاتورية الشاه .

نظرية العوالم الثلاثة والتناقضات الطبقية :

ان هذه النظرية لم تسقط من السماء ومن الخطأ اعتبار أن تنغ سياوبينغ هو مبدعها الوحيد .

فمنذ مرحلة الحرب الباردة نجد جذور ما يشكل اليوم « نظرية العوالم الثلاثة » . في تلك المرحلة بالفعل لم يكن قادة الحزب الشيوعي الصيني ، وفي مقدمتهم ماو ، يعتبرون ، وذلك خلافا للسوفيات ، أن لا مناص من حرب وشيكة ضد الاتحاد السوفياتي ، كما أنهم من جهة أخرى لم يصدقوا فيما بعد ، ابان حرب الفيتنام احتمال قيام حرب عدوانية ضد الصين ، كما انهم لا يصدقون اليوم قرب حدوث حرب عدوانية سوفياتية ضدهم .

والسبب في ذلك راجع لوجود منطقة حاجزة ، المنطقة الوسيطية ، بين الدولة المعتدية الولايات المتحدة في 1958 ، والمعسكر الاشتراكي آنذاك ، هذه المنطقة التي تشكل عاملا مركزيا في الوضع . ان دول هذه المنطقة ، على اختلافها الشديد على المستويين الاقتصادي والسياسي تشترك في كونها لا مصلحة مباشرة لها في الحرب وان وجودها بالتالي يشكل عامل سلم . ومن جهة أخرى يعتبر ماوتشي تونغ ان هدف السياسة الامريكية هو بالاساس مراقبة واخضاع هذه المنطقة اكثر منه القضاء على الاتحاد السوفياتي ، اذ يقول : « ان وجهة نظري كانت دائما أن الهدف الرئيسي (للامبريالية الامريكية) هو القيام بدور الطاغية في المنطقة الوسيطية » ، ويضيف أنه لا يعتبر ان الولايات المتحدة « بليدة الى حد » محاربة الدول الاشتراكية بالسلاح وكانت العناصر الرئيسية لنظرية العوالم الثلاثة قائمة ضمنيا ، في اطار جد مختلف طبعا ، منذ 1958 اذن . غير ان التطبيق السياسي لهذه المبادىء كان كما سنراه ، مختلفا جذريا كما ان عددا من الاطروحات القائمة آنذاك قد

اختفت فيما بعـد .

وان لم تكن الحرب وشيكة ، حسب الحزب الشيوعي الصيني ، فان ذلك لم يمنعه من التاكيد على التضامن النضالي للمعسكر الاشتراكي : من « اجـل مصلحة القضية المشتركة لبروليتاريا مختلف البلدان ومن أجـل المقاومـة المشتركة لهجمة المعسكر الامبريالي وعلى راسه الولايات المتحـدة ـ ضـد قضية الاشتراكية (...) ، يجب علينا ان نقوي أكثر فأكثـر دائمـا تضامـن البروليتاريا الاممي الذي يشكل الاتحاد السوفياتي مركزه » .

(...) تلك هي بالفعل المسالة التي ستلعب دورا حاسما في المناقشـة الكبرى لسنة 1963 : مسالة **مركز ثقل الثورة العالمية** . ان الاتحاد السوفياتي يحدده في وجود المعسكر الاشتراكي (يعني في الواقع الاتحـاد السوفياتي) بينما يعتبر الحزب الشيوعي الصيني ان : « التناقضات الكبـرى للعالـم المعاصر تلتقي في المناطق الشاسعة لافريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية حيث السيطرة الامبريالية أضعف . ان هذه المناطق تشكل منطقة الزوابع بالنسبة للثورة العالمية » وفي مكان آخر : « ان مجمل قضية البروليتاريا الاممي رهين في آخر المطاف ، والى حد ما ، بالنضال الذي تخوضه شعوب هذه المناطـق التي تشكل الأغلبية الساحقة لسكان العالم » .

في ظروف سنوات 55 ـ 60 التي شهدت البروز السياسي للعالم الثالث كقوة سياسية خصوصا في باندونغ سنة 55 وجنيف حيث تـم سنـة 1954 الاقرار بالهزيمة العسكرية والسياسية للامبرياليـة الفرنسيـة في الهنـد الصينية ، كانت الاطروحات الصينية تتناسب في جوهرها مع واقع متطلبات النضالات ، بينما كان الاتحاد السوفياتي ، على العكس من ذلـك يحـاول اخضاع هذه النضالات للدفاع عن الاتحاد السوفياتي .

اذن ، ان المواقف الصينية كانت تتعارض ، في الواقـع ، وذلك قبـل « القطيعة الرسمية » ، مع الاطروحات الشوفينية للاتحاد السوفياتي وتلتقي من جديد مع الجوهري الثوري للماركسية . وبالنسبة لستالين ولخلفائه ـ ومن هذه الزاوية يصعب الحديث عن قطيعة ـ يقع يغليب علاقات الدولة وبشكـل كبير على الاعتبارات الايديولوجية . وهكذا رفض الاتحاد السوفياتي التضامن مع الصين في وجه الاعتداءات الهندية ورفض الالتزام بوضوح الـى جانـب المقاتلين الجزائريين ، كما كان يحتاط من حركة عدم الانحياز : بمعنى انه كان يرفض دعم الحركات التي لم تكن قياداتها تحت نفوذه والتـي كانت تهـدد باعادة النظر في التوازن الدولي الموروث عن مؤتمرات يالطـا التـي تمنـح الاتحاد السوفياتي مكانة قوة عالمية في مستوى أهميته الاقتصادية والتي كانت تبدو مهددة من طرف التوسعية الامريكية . وباعتبار نفسه القيادة العامة للثورة العالمية ، كان الاتحاد السوفياتي يمنع كل ابتعاد وكل استقلال ذاتي للحركات

الشعبية والأحزاب الشيوعية التي كانت ما تزال وفية « لمركز » البروليتاريا العالمية هذا ، باعتباره القيادة العامة للثورة العالمية .

سنكتفي الآن بالاشارة الى أن أخذ « المنطقة الوسيطية » بعين الاعتبار كان يمكن الصينيين أولا من عدم الانجراف وراء الوساويس الانهزامية (ان الاطروحة الأساسية في تلك المرحلة كانت « ان الولايات المتحدة الامريكية نمر من ورق » ومن رفض الابتزاز النووي الذي كان سيلعب دورا حاسما سبع سنوات بعد ذلك خلال المناقشة الكبرى لسنة 1963 . كما مكنهم (أي الصينيين) من عدم اختزال التناقضات العالمية في **التناقض الوحيد بين الامبريالية والمعسكر الاشتراكي** وبالتالي عدم طرح **الدفاع عن الاتحاد السوفياتي** كمهمة أولوية بالنسبة لشيوعيي المنطقة الوسيطية وذلك على **حساب الصراع الطبقي** والنضال ضد الامبريالية .

ذلكم أحد الجوانب الأساسية للمجادلة الصينية ـ السوفياتية : تؤكد الصين انه لا يمكن لأي اعتبار من اعتبارات السياسة الخارجية الخاصة للاتحاد السوفياتي أن يشكل ذريعة لمنع الثورة . ووجهة النظر هذه تم التعبير عنها في جميع القضايا الاساسية للمناقشة :

1) التقديس الأعمى للسلاح الذري الذي باسمه تنصح الشعوب المضطهدة بالاعتدال .

2) الفهم السوفياتي للانفراج « وللتنافس السلمي » الذي يدعو اليه « خروتشوف » والذي أوضح الصينيون حدوده : ان أي انفراج مستحيل بين المضطهدين والمضطهدين .

3) مسألة الحرب والسلم ، يحاول السوفيات خنق الاوضاع التي يمكنها أن تصبح صاعقة ومشاكل مثل الفيتنام وكوريا أو طايوان يتم تجميدها . والارادة الصلبة للأحزاب الشيوعية ولشعوب الهند الصينية في الاستمرار في الكفاح مهما كان الثمن هي التي مكنتها من الافلات من التوجيهات السوفياتية .

4) مسألة قيادة المعسكر الاشتراكي وتفوق حزب يفرض خطه على الجميع .

5) مسألة العالم الثالث الذي لا يكترث السوفيات بأهميته والذي يعتبره الصينيون العنصر الجوهري في الوضعية .

6) مسألة الثورة والانتقال السلمي الى الاشتراكية في الدول الراسمالية .

باختصار حول كل هذه القضايا ، تدافع الصين عن مبدأ الاستقلال النسبي للنضالات وعن استحالة اخضاعها لديبلوماسية بلد ما ولو كان اشتراكيا . وعن الاسبقية التي يجب اعطاؤها للصراع الطبقي في اطار الموقف من العالم الثالث من المفيد جدا الاشارة الى ان الصين آنذاك كانت تؤاخذ السوفيات على دفعهم حركات التحرير الوطني الى التعامل اللامبدئي مع

البرجوازية الوطنية ومحاولة التخفيف من حدة التناقضات التي تتطور في العالم الثالث . ان النقطة التاسعة من « رسالة النقط الخمسة والعشرون » تتطرق لهذه المسألة ، وبصريح العبارة : « في البلدان المسيطرة عليها بافريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية على البروليتاريا ان تبني - على أساس تحالف العمال والفلاحين - جبهة عريضة لتوحيد كل ما يمكن توحيده في النضال ضد الامبريالية وعملائها . ومن جهة أخرى على البروليتاريا ان يحافظ على استقلاله في جميع الميادين السياسية والايديولوجية والتنظيمية . وفي حالة ما اذا نهجت برجوازية الدول الحديثة العهد بالاستقلال سياسة معادية للجماهير وللشيوعية ومتحالفة مع الامبريالية لمواجهة احتدام التناقضات الطبقية ، فعلى الحزب أن يقاوم هذه السياسة بصرامة » .

ان دول العالم الثالث لا تعتبر ككيانات متجانسة بحيث يخترقها الصراع الطبقي والامبريالية تحتفظ فيها بعملاء وعلى الشيوعيين أن يربطوا الصراع الطبقي بالصراع ضد الامبريالية كما فعل ذلك الصينيون أنفسهم ابان حرب التحرير ضد اليابان . اننا بعيدون هنا عن الامداح التي ينالها « الساداث » وعن المحاباة غير المقبولة التي يحظى بها بينوشين » !

ان الطابع البروليتاري الذي كانت الصين تعطيه لمبادىء سياستها الخارجية لا يلغي امكانية أخطاء محتملة ، بل فوق ذلك يبدو أن عددا من التحليلات التي كانت تقدم آنذاك كانت بالغة الخطورة ولكنها ، في اطار المناقشة مع الحزب الشيوعي السوفياتي ، لعبت دورا تقدميا الى حد انها كانت تعتبر حقائق ثورية ، بيد أنها لم تكن غير خاطئة في مبدئها وسيتضح طابعها الخاطىء فيما بعد في اطار قد تغير ، لما بقيت نفس التحاليل الجامدة مستمرة ، لكنها ستسفر عن نتائج معاكسة لنتائج المرحلة الاولى .

ان نموذجا من هذه المبادىء هو النقد الشهير الذي قام به لين بياو فيما بعد والذي يتلخص في تقديم طريق الثورة العالمية على أنها تطويق المتربولات الامبريالية من طرف العالم الثالث على نحو تطويق المدن من لدن البوادي خلال الثورة الصينية . ان هذه الستراتيجية تؤدي الى نفي التناقضات الطبقية في المتروبولات الامبريالية وفي بلدان العالم الثالث في نفس الوقت ، واستبدال الصراع الطبقي بالصراع بين البلدان . ولنا عودة لهذا الموضوع . غير انه بالامكان أن نرى في هذه الاستراتيجية أصل تعابير من نوع « مركز ومحيط » التي جرت العادة على استعمالها من لدن الاقتصاديين البرجوازيين الليبراليين.

ملاحظة أخرى في نفس الاتجاه اذا كانت النصوص الصينية لمناقشة 63 تشكل مساهمة حاسمة في قضية البروليتاريا والثورة العالمية ، واذا كان وصف الاتحاد السوفياتي كقوة امبريالية ، فيما بعد ، أساسيا فليس من المستحيل أن تكون بعض القوى السياسية في الصين قد دفعت نحو القطيعة

مع الاتحاد السوفياتي لاسباب لا تمت للأممية البروليتارية بصلـة . ومـن المعلوم انه لا يكفي استنكار الامبريالية الاشتراكية ليكون المرء ماركسيا ـ لينينيا . والتطور الداخلي الاخير يؤكد وجود اتجاهات برجوازية في الصين، وستجد هذه الاتجاهات في القطيعة مع الاتحاد السوفياتي فرصة للتعبير عـن مطامع قوى عظمى . هذه الاتجاهات التي كان طابعها الشوفيني مكتومـا مـا دامت مصالحها تلتقي مع مصالح « اليسار » ، ستجد فيها بعد الفرصة للظهور .

خلال السنوات 64 ـ 65 بعد التأكد من تفكك المعسكر الاشتراكي ومن تقوية العالم الثالث بموازاة ذلك ، قام الصينيون باعادة صياغـة « نظريـة المنطقة الوسيطية » وميزوا بين منطقتين ، تضم الاولى العالم الثالث الحالي ، وتضم الثانية ، اجمالا ، العالم الثاني الحالي . وان تبوأ الاتحاد السوفياتي مرتبة قوة عظمى والزوال التام « للمعسكر الاشتراكي » سيؤدي الى اختفاء المناطق الوسيطية ولن يبقى الا « العوالم الثلاثة » وجها لوجه . وان الصين التي تعتبر نفسها بلدا اشتراكيا من العالم الثالث ، أي كحالة خاصة من العالم الثالث ضمت نفسها الى منطقتها الاولى السابقة .

بين أن هذه الاستمرارية بين نظرية سنوات الخمسين ونظرية اليـوم ليست الا شكلية ، باعتبار أن الصيغة القديمة تستند الى تحليل **التناقضات الاربعة** للعالم المعاصر ، التي استعملت بكثرة خلال المناقشة خاصة والتي لم تعد مرجعا اليـوم .

« ان المنطلق لتحديد الخط العام للحركة الشيوعية العالمية هو التحليل الطبقي الملموس للتناقضات الأساسية للعالم المعاصر (...) :

1) التناقض بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الامبريالي .
2) التناقض بين البروليتاريات والبرجوازيات في البلدان الرأسمالية .
3) التناقض بين الامم المضطهدة وبين الامبريالية .
4) التناقض بين البلدان الامبريالية ، بين المجموعات الاحتكارية » .

وأمام تطور العالم أعيد النظر في الصياغة فيما بعد : لقد عوضت البلدان الاشتراكية « المعسكر الاشتراكي » وأضيفت الامبريالية الاشتراكيـة الـى الامبريالية وتم تعميم التناقض بروليتاريا / برجوازيا ولم يعد مقتصرا على البلدان الرأسمالية وحدها .

وتضيف « رسالة النقط 25 » هذه تبين جوهر المشكل : يتعلق الأمـر بتمفصل مختلف هذه التناقضات ؛ ان استحالة تجاهل أحد هـذه التناقضات يعني أنه لو افترض أن واحدا منها يعد رئيسيا ، فان المشكل كله هو الحيلولة دون أن يصبح هذا التناقض الرئيسي **التناقض الوحيد** .

كثيرا ما يؤول مفهوم « التناقض الرئيسي » عند ماو بشكل انتهازي ، وذلك بالضبط بتذويب ونفي التناقضات الثانوية . لكن بمـا ان التناقضات

تنمو وتضمحل ، فان التناقض الرئيسي لمرحلة ما يمكنه ان يحقق ويترك المجال لتناقض رئيسي جديد كان ثانويا في السابق . ان النفي ، عمليا ان لم يكن نظريا ، لاي تناقض ثانوي يمنع اذن من ادراك تطور الواقع ككل معقد من التناقضات في حركة دائمة والتي تتغير أهميتها النسبية باستمرار . ان المشكل يكمن في المفصلة السديدة لمختلف التناقضات التي يمكنها أن تحرك مسلسلا كيف ما كان : ان السلوك « اليسروي » يكمن في نفي حقيقة التناقض الرئيسي واعتبار المسائل من زاوية وحيدة هي التناقض بين البروليتاريا والبرجوازية . بينما « ينسى » السلوك اليميني التناقضات الثانوية ويختزل المجموعات المعقدة للتناقضات في تناقض واحد ، أي التناقض بين المراكز الامبريالية والشعوب والامم المضطهدة . ان الانتقال سنة 1974 الى « نظرية العوالم الثلاثة » يسجل هذا النوع من الانحراف بمحو كل اعتبار للتناقض بين البروليتاريا والبرجوازية .

ان طمس هذا التناقض الأخير قد سهله تقديم التناقضات الاربعة ذاته ، هذا التقديم الذي لا يعكس الواقع بأمانة . ان التناقضات الاربعة تقدم كلها على **نفس المستوى** في حين أن التناقضات الثلاثة الاخرى **غير مستقلة في الواقع عن التناقض بروليتاريا / بورجوازية** . وان تقديمها على قدم المساواة يوحي أنها تعمل بشكل مستقل نسبيا ، كل واحد منها يجاور الاخرى . وحسب تعرجات التاريخ قد يصبح أحد التناقضات الاربعة رئيسيا ثم قد ينمحي لصالح آخر ... الخ ، في الواقع ان هذه التناقضات الاربعة لا توجد في نفس المستوى من التحليل : ان التناقض بين البروليتاريا والبرجوازية يشكل الاساس الذي تقوم عليه كل التناقضات الاخرى ، التي يظهر تطورها وكأنه محدد ، في نهاية المطاف ، من طرف ذلك التناقض ، ان التنافس بين المجموعات والبلدان الاحتكارية وعداء البلدان الرأسمالية للاشتراكية ليست الا نتائج السيطرة العالمية لنمط الانتاج الراسمالي الذي يرتكز على التناقض العدائي وغير القابل للمصالحة بين الرأسمال والعمل . ومن وجهة النظر هذه ، فمن الخطأ اذن ، ان لا نبرز الدور الخاص الذي يلعبه التناقض الذي يشكل حله المهمة المركزية للشيوعيين ، وان ماو نفسه هو الذي كان يعلم عدم نسيان الصراع الطبقي أبدا ، وعدم اخفاء حقيقة الشيوعية أبدا .

ان مسألة أخذ مختلف تناقضات العالم المعاصر وعلائقها المتبادلة في السياسة الخارجية الصينية بعين الاعتبار تطرح مشكل **مساومات** ديبلوماسية بلد اشتراكي . وتشكل الاممية البروليتارية ، كما هو معلوم ، أساس السياسة الخارجية للبروليتاريا . وقد لخص لينين جوهرها كما يلي : « ان التحالف مع ثوريي البلدان المتقدمة ومع الشعوب المضطهدة ضد الامبريالية مهما كان جنسهم ، تلك هي السياسة الخارجية للبروليتاريا » .

وهذا المبدأ الذي يوجه السياسة الخارجية لا يلغي امكانية حلول وسطى وخاصة في مراحل الهجمات الامبريالية . وهذه الحلول الوسطى تستهدف فك العزلة التي تحاول البلدان الامبريالية فرضها على البلدان الاشتراكية كما تستهدف القيام بالمهمة الخاصة في هذا الميدان والمطروحة على البلدان الاشتراكية : حماية السلطة البروليتارية ضد الاعتداءات الخارجية .

الا ان هذه المشكلة تستدعي سلسلتين من الملاحظات : **اولا حدود هذه الحلول الوسطى** ؛ ان تحالفا مع امبرياليين نشيطين جوهر نشاطهم يكمن في قمع الحركة الشعبية في بلدان متعددة يعني في الواقع خيانة النضالات الملتزمة العداء للامبريالية ، الشيء الذي يتنافى مع الاممية البروليتارية . ولقد كتب الحزب الشيوعي الصيني نفسه منذ أمد غير بعيد انه « على كل بلد اشتراكي أن يساند ويساعد بنشاط نضال الامم المضطهدة من أجل تحررها » .

ومن جهة أخرى ، **فهذه الحلول الوسطى لا يمكنها في أي حال من الاحوال أن تفرض على الاحزاب البروليتارية والشعبية الاخرى** . ومرة اخرى ، فان الصينيين أنفسهم هم الذين بادروا بصدد هذه النقطة باتخاذ عدد من المواقف السديدة .

ففي عام 1946 كان ماو وقد كتب ما يلي ، وهو يتأمل في التسويات التي أبرمها الاتحاد السوفياتي مع البلدان الامبريالية (الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا) : « ان حلولا وسطى من هذا القبيل لا تتطلب من شعوب مختلف البلدان الرأسمالية كنتيجة لذلك ان تقبل بحلول وسطى في بلدانها . ان شعوب هذه البلدان ستواصل نضالاتها المختلفة حسب الظروف المختلفة » .

وبصدد مسألة التعايش السلمي ، أكد الحزب الشيوعي الصيني في عام 1963 ، خلال المناقشة مع الاتحاد السوفياتي ما يلي كموقف مبدئي : « انه لمن الخطأ تطبيق التعايش السلمي على علاقات الطبقات المضطهدة بالطبقات المضطهدة وعلى علائق الامم المضطهدة بالامم المضطهدة ، كما انه من الخطأ اتخاذ من سياسة التعايش السلمي للبلدان الاشتراكية سياسة للاحزاب الشيوعية وللشعب الثوري في البلدان الرأسمالية ، أو اخضاع النضال الثوري للشعوب والامم المضطهدة لسياسة التعايش السلمي للبلدان الاشتراكية » .

تلكم نصوص وضحة يمكنها ان تبين مدى وقوع السياسة الخارجية الصينية الحالية تحت طائلة الانتقادات التي كان الحزب الشيوعي الصيني يوجهها للحزب الشيوعي السوفياتي : ان الحزب الشيوعي الصيني ينهج سياسة مجاملة تجاه الامبريالية الامريكية وخلفائها من جهة ، وانه من جهة أخرى يمارس ضغوطات لفرض خطه على الاحزاب الماركسية ـ اللينينية الأخرى ، ضغوط كثيرا ما تعطي نتائجها نظرا لنذالة وتفاهة أغلب هذه الاحزاب.

ان هذه النقطة الثانية تستحق توضيحا . لقد رأينا الى أية درجة يشكل الدفاع عن مبدأ استقلال كل حزب في تحديد خطه واستراتيجيته وتاكتيكه المحور الاساسي لفقد الاتحاد السوفياتي من طرف الحزب الشيوعي الصيني في 1963.

وبالرغم من كون الحزب الشيوعي الصيني كان يستعمل في بعض النصوص عبارة « الاتحاد السوفياتي مركز البروليتاريا العالمي » فان ممارسته في الواقع كانت تشكل احتجاجا على الفكرة القائلة بأن القيادة العامة للثورة العالمية توجد بموسكو وبأن على الاحزاب الشيوعية الاخرى في العالم أن تتخذ من السياسة السوفياتية توجيها لها .

وان كنا في حاجة الى حجة اضافية على ارادة الاستقلال هذه ، فان النص الذي أوردناه سابقا « بصدد الرسالة المفتوحة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي » يمدنا اياها : « لقد سبق أن قلنا منذ أمد بعيد ، ونعتبر اليوم من الضروري التأكيد أنه ، طبقا لمبدأ استقلال ومساواة الاحزاب الشقيقة ، لا يحق لاحد أن يفرض على الاحزاب الشقيقة الاخرى قبول مقررات مؤتمر حزب شقيق أو أي شيء آخر . وان مقررات مؤتمر حزب شقيق ، كيفما كان ، لا يمكنها أن تعتبر الخط المشترك للحركة الشيوعية العالمية وأنها لا تملك قوة القانون بالنسبة للاحزاب الشقيقة الاخرى » .

والمشكل هو أن هذه المبادىء الممتازة تبدو بعيدة الآن ، والصين تتصرف في الواقع وكأن البروليتاريا العالمية أتخذت من جديد مركزا ، ويتعلق الامر في هذه الحالة بالصين . ان هذه الاخيرة تبين أنها لا تصف بـ « الماركسي ـ اللينيني ـ الا تلك الاحزاب أو المجموعات التي تلتزم بمواقفها ، ويظهر ذلك في اختيارها للأحزاب التي « تعترف » بها عبر العالم أو فيما تنقله في صحافتها عن الاجهزة الماركسية ـ اللينينية الاجنبية أو في استضافتها . وان مقررات مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني تشكل في الواقع « الخط العام » بالنسبة لجزء كبير من « الحركة م. ل. » في العالم ، تلك الحركة التي يبدو انها تنازلت عن كل طيف للاستقلال السياسي .

يبدو ان نظرية « المركز » التي تم نقدها الى هذا الحد خلال مناقشة 1963 قد أعيد تنشيطها ضمنيا وهكذا يقع الحزب الشيوعي الصيني هو بدوره كذلك تحت طائلة لوم « الشوفينية » الذي كان يوجهه بالامس للحزب الشيوعي السوفياتي ومن جهة أخرى ، من البديهي أن التملق بدون حياء الذي تقوم به قيادات المنظمات الماركسية ـ اللينينية (في فرنسا على الاقل) لا يمكنه الا أن يشجع مسلسلا من هذا القبيل .

لقد رأينا اذا كيف كان التحليل المسمى بـ « تحليل التناقضات الاربعة » يحاول حل المشكل العسير المتعلق بتمفصل الصراع الطبقي بالبلدان الرأسمالية (المتقدمة أو غيرها) مع النضالات الوطنية على الصعيد العالمي . اما تحليل

« العوالم الثلاثة » فانه يقرر تجاهل هذا المشكل بشكل منهجي وذلك باخفاء الصراع الطبقي الذي لم يشر اليه في أي مكان الا بتعابير غامضة وعامة والذي لا يحظى ـ في الواقع ـ بأي اهتمام في الممارسة . ان هذا التحليل يتراجع عن التمييز التقليدي بين البلدان والشعوب والامم والبروليتاريا ولا يستعمل الا مصطلحات **البلدان** مع ما ينجم عن ذلك حتما من اعتبار المصالح الشعبية ومصالح البلد متطابقة وكذلك مصالح البلد ومصالح الطبقة السائدة .

ان وضع التناقضات الاربعة على قدم المساواة يسر هذا الطمس ومكن نظرية العوالم الثلاثة من أن تتقدم وكأنها **استمرار** للتحاليل السابقة وكأنها **الشكل** الذي اتخذته التناقضات الاربعة في الظروف الراهنة . والامر يتعلق في الواقع **بانزلاق** على المستوى النظري **وبقلب** على المستوى السياسي

ان نظرية العوالم الثلاثة ، عند ما تعتبر أن البلدان هي صانعة التاريخ ، تؤدي الى نتيجة غير منتظرة : وطريقة المعالجة هذه تؤدي الى محو الامبريالية . وتلكم نظرية تدعي أنها معادية للامبريالية ومعادية للهيمنة . غير انها في الواقع ، بحصرها الامبريالية في السياسة التي تنهجها الدول الاقوى تجاه البلدان الضعيفة ، تطمس الجوهر الحقيقي للامبريالية ونواتها الاساسية أي طبيعتها الطبقية : الامبريالية كمسلسل لبسط نمط الانتاج الرأسمالي على الصعيد العالمي .

ان الامبريالية بالمعنى اللينيني للكلمة غير قابلة للاختزال في العلاقات بين البلدان بل انها تتنافى وهذا المفهوم ، فباستبدال الطبقات بالبلدان يتم حتما التخلي عن اطار التحليل الماركسي لصالح تصورات ايديولوجية لبرجوازية صغيرة أو لبرجوازية ليبرالية .

وبهذا الشكل تصور الامبريالية وكأنها **بالاساس** عنصر **خارجي** بالنسبة لبلدان العالم الثالث في حين ان الامبريالية متواجدة في الحقيقة **داخل التشكيلات الاجتماعية المسيطرة عليها ذاتها** بواسطة البرجوازيات المحلية التي تشارك كليا وبقدر امكاناتها في التوسيع العالمي للرأسمالية كما تشكل أدوات لتغلغل الرأسمال الاجنبي ولبلترة الطبقات الفلاحية ، وتراكم جزء من فائض القيمة الذي تم انتاجه باستغلال الطبقات العاملة .

وفي اطار حماية مصالحها الطبقية الخاصة ، يمكن لهذه البرجوازيات المحلية أن تعارض مناورة من مناورات الدول الرأسمالية ، وانها تقوم بذلك كل يوم أو تقريبا ؛ ولكنها برجوازيات مع ذلك وانها قد ترضى بسهولة بنظام اقتصادي يشركها اكثر في استغلال طبقاتها العمالية ويضمن لها مشاركة أكبر في التوزيع العالمي لفائض القيمة . وهذا الدور المعقد تتجاهله نظرية العوالم الثلاثة التي تعتبر ان تناقضا من هذا النوع مطابق للتناقض القائم بين المضطهدين والمضطهدين : انها تترك مهمة النضال المعادي للامبريالية ،

الذي ظنت أنها قد كشفت عنه بهذا الشكل ، تترك مهمته اذن للبرجوازيات الـوطنيـة .

انها في الواقع تفتح المجال لاعادة تشكيل محتمل للنظام الاقتصادي العالمي على أساس مماثل ساسا . غير ان العلائق الاقتصادية والسياسية بين مختلف البرجوازيات ستكون في هذا النظام قد أعيد التفاوض بصددهـا طبقـا لمستلزمات الدفع الى الأمام بنمط الانتاج الرأسمالي وطبقا لاستراتيجية الرد الامبريالي على نضالات الشعوب .

ومن جهة أخرى تربط النظرية هذه بشكل ميكانيكي وطيد بين « درجة الامبريالية » لبلد ما ومستوى تطور القوى الانتاجية ؛ فالبلدان الاكثر قوة هي الاكثر امبريالية والعكس صحيح . هكذا تميل نحـو اهمال نشاط البلـدان المتقدمة ، الصغيرة والمتوسطة ، التي تلعب دورا هاما في سياق « التراكـم الرأسمالي على الصعيد العالمي » (سويسرا مثلا) ، لكنها تمنع خاصة مـن فهم كون بلدان من العالم الثالث يمكنها أن تكون ذاتها امبريالية وتلعب دورا هاما في السيطرة العالمية للقـوى العظمـى : أن ايـران (ايـران الشـاه) والبرازيل مثالان نموذجيان ويشكلان قواعد ارتكـاز . للولايـات المتحـدة الامريكية وأدوات سياستها الجهوية . وهذا لا يمنعهما من أن يتمتعا باستقلال نسبي مما يسمح لهما أن يحاولا ركم الرأسمال لصالـح تحالف اقطاعييـن وصناعيين وماليين يسيرونها على ظهر البروليتاريا والجماهير الشعبية لا في ايران والبرازيل فقط ولكن حتى في البلدان المجاورة التي لها علاقات اقتصادية وتجارية نشيطة معهما .

ان وصفا للوضع العالمي يغفل دور هؤلاء الدركيين المحليين كما هو الشأن بالنسبة لنظرية العوالم الثلاثة ، هو تشويه تـام للحقيقـة والدفـع بالاستراتيجية العالمية للبروليتاريا نحو مأزق .

وفيما يخص العلاقات بين العالم الثاني والعالم الاول نصل الى نتائج شبيهة ما دامت التناقضات بين البلدان الامبريالية قد رفعت الـى مستـوى تعارض مطلق باعطائها مفهوما معاديا للامبريالية أو على الاقل للهيمنة .

ان نظرية العوالم الثلاثة ترسم اذن صورة خاطئة للوضع العالمي . بل أكثر من هذا ، ففي الواقع ان السياسة الخارجية الصينيـة ، وفي الممارسـة تختزل هذه النظرية في بنية ثنائية القطب : العالم الثاني + العالم الثالث ضد العالم الاول وفي الواقع الاتحاد السوفياتي ضد كل الباقي .

في الحقيقة يتعلق الامر هنا بخداع ما دامت كل هذه العلاقـات المقدمـة بشكل مواز يختلف محتواها ، وما دام ما هو أهم غائبا عنها ، الصراع الطبقي علـى الاقـل :

ما دامت العلاقات الطبقية لم تؤخذ بعين الاعتبار فلا يمكن الا ايجاد بنية

وحيدة بين مجموعات البلدان المختلفة ، وهي البنية مسيطر ـ مسيطر عليه التي يفترض أن تترجم العلاقات بين البلدان الامبريالية مثل العلاقات بين بلدان العالم الثالث والبلدان الامبريالية . وهكذا نجد من جديد الزوج الايديولوجي البرجوازي القديم الذي استعمل على نطاق واسع في الادبيات الاقتصادية والسياسية حول الامبريالية .

وهكذا تقتصر الامبريالية على التأثير المحدد الذي تمارسه وحدة اقتصادية على وحدة أخرى بينما تبقى الوحدتان كل خارج وبجوار الاخرى داخل السوق العالمية مكتفيتين بتبادل السلع والتقنيات والرجال . وتختفي بذلك الظروف الاجتماعية للسيطرة الامبريالية ويتم تجنب مسألة التحالفات الطبقية بين البلدان المسيطر عليها والبلدان الامبريالية كما ان مفهوم « السيطرة » الغامض والعائم والغير المدقق والذي لا يتمتع بمكانة علمية ، ينزع الى الحلول محل **الاستغلال الطبقي** ، أي محل اغتصاب فائض القيمة المفروض ان يكون في قلب تحليل نمط الانتاج الرأسمالي والامبريالية . انه بدون تجلية ظروف الانتاج الرأسمالي وباخفاء الصراع الطبقي ، اذن ، يتم قصر مفهوم الامبريالية على التداول البسيط للسلع بين مناطق اقتصادية مستقلة لكنها مدرجة وذلك حسب نظرية العوالم الثلاثة . ويتغير بذلك مكان الصراع الطبقي الى المؤتمرات الاقتصادية الدولية حيث يتم تحديد اسعار التجارة العالمية وهكذا يرقى الثوريون الى درجة مستشارين لبورجوازيتهم .

مصلحة من تخدم نظرية العوالم الثلاثة ؟

* **انها في خدمة برجوازيات العالم الثالث** التي بامكانها أن تتحرر بهذا الشكل من كل مسؤولية تاريخية ازاء حالة التبعية والاستقلال لبلدانها : المسؤولية تقع على الامبريالية ذلك الواقع الخارجي والبعيد . وهكذا يصبح بامكانها أن تنصب نفسها مدافعا عن المصالح الوطنية وبطلا للعودة الى « الاصالة » الوطنية ، والتقاليد الثقافية كما انه بامكانها أن تقدم وطنية حساسة وكأنا العداء للامبريالية . انه بامكانها خاصة ان تقدم تقوية لديكتاتوريتها واستغلالها وكأنها مساهمة تقدمية في تحرر الأمة . وهكذا يقدم كل تمرد وانتفاضة ضد ظروف العمل اللا انسانية وضد البطالة أو أجور هزيلة على أنها مناورة امبريالية لعرقلة جهود بناء اقتصاد مستقل وقوي . ان هذه البرجوازيات على كل حال لم تنتظر الصين لافراز مثل هذه الايديولوجيات المطابقة لمصالحها في التنمية الا أنها تجد هنا تعزيزا وتلبيدا لا يستهان بهما .

* **انها في خدمة المصالح الوطنية الصينية** التي تدافع عنها برجوازية بيروقراطية قوية نسبيا في جهاز الدولة وفي الحزب كما قاله ملو ولكدته الاحداث الاخيرة . ان هذه المصالح تستلزم اقامة شبكة من التعاطف والصداقة عبر العالم تمهيدا لاقامة تعاون ملموس اكثر .

كما ان هذه المصالح تتطلب مقاومة للنفوذ السوفياتي الذي يستهدف نفس « للزبائن » لأسباب شبيهة . **وبالتأكيد لا يمكن مماثلة هاتين السياستين** : فالصين لا تستغل احدا في العالم الثالث ولا تملك قاعدة عسكرية في الخارج كما أنها لا توقد اي نزاع وعلاقاتها الاقتصادية ما تزال محدودة . وان وجب مع الاسف الاقرار بأن الصين تنهج السياسة الشوفينية لقوة عظيمة فان هذه لا يمكن أن تشبه بالامبريالية الاشتراكية القائمة والنشيطة .

يبدو أن المسلسل الذي شهده الاتحاد السوفييتي بعد الحرب العالية الثانية يتورط في سياسة شوفينية لقوة عظمى والذي أدى الى الامبريالية الاشتراكية ، يبدو أن هذا المسلسل يتكرر في جوانب عديدة . ان النقد الذي وجهته جمهورية الصين الشعبية اليه في بداية سنوات الستينات يشكل سلاحا بيدنا لنقد سياسة الجمهورية الشعبية الصينية اليوم .

هذا وان التنافس الصيني ـ السوفياتي في العالم الثالث واقع ، كما هو واقع كون الصين تضحي من أجل هذا التنافس بكل اعتبار ايديولوجي وكل خط طبقي فاصل في سياسة التحالف . انه من السديد تماما محاولة معارضة التغلغل السوفياتي في العالم الثالث وتنوير الشعوب فيما يخص الطبيعة الحقيقية للاتحاد السوفييتي ، الا ان الصين تمارس هذا النضال كقوة برجوازية وبالارتكاز على **القوى البرجوازية** الموالية لامريكا وفي الواقع بتحد للقوات الشعبية وهكذا خرب الصين ذلك التعاطف الكامن الذي كانت قد نالته بفضل تصرفها ، انها اضاعت ثقة افريقيا خاصة وذلك بمساعدة خصومها . وهذا ليس بغريب قط ولكنه النتيجة المنطقية لمفهوم برجوازي للامبريالية وتأثيرها يدفع الى الارتكاز على القوات البرجوازية واهمال القوات الشعبية ويدفع الى التحالف مع الولايات المتحدة الامريكية ضد الاتحاد السوفياتي مع احتقار الطموحات الشعبية كما يشجع ، دائما من اجل مواجهة السوفيات (قبول مساعدة عسكرية مثلا) الشيء الذي يمكنه أن يكون محتملا وضروريا في حالة ما اذا كان الاعداء المباشرون هم امبرياليات في تنافس مع الاتحاد السوفياتي (امريكا أو أوروبا) . ان هذا التاكتيك الذي يكمن في استعمال التناقضات الداخلية للامبريالية قد استعملته مع ذلك الصين نفسها ابان حرب التحرير . والموقف السديد قد يكون هو التأكيد على ابقاء المساعدة ثانوية وأن تعمل الشعوب التي تخوض نضالات على الاتكال بشكل رئيسي على قواتها الذاتية بدلا من « المنع » المسبق والمبدئي لكل حل وسط مع الاتحاد السوفياتي . ولن ننسى هنا التذكير بأنه خلال مرحلة بعد الحرب كان الاتحاد السوفياتي يفضل ترك الشعوب تعفن تحت السيطرة الاستعمارية الاوروبية بذريعة ان تحريرها قد يؤدي الى سقوطها في أحضان الامريكان . أي شيء آخر تقوم به جمهورية الصين الشعبية اليوم ؟ يبدو أن موظفا صينيا ساميا قد قال في 1973

انه يجب مقارنة العالم بنجمة ضخمة لها خمسة فروع وكل واحد من هذه الفروع يشكل بلدا : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي واليابان وأوروبا الموحدة و ... الصين ، يخشى أن تكون نظرية العوالم الثلاثة قد استبدلت في الممارسة بنظرية النجمة ذات الفروع الخمسة . ان هذه على اية حال تشكل التتمة المنطقية لتلك .

كتبه : **كلـود رولان**

المجلة الفرنسية : « كومونيسم » عدد 27 ـ 28

مراجعة لبعض أطروحات المالكـــي حــول « رأسماليــة الدولــة »

بقلـم : احمد الشرقي

ان المقال الذي نشره الاستاذ المالكي ، بعنوان « رأسماليــة الدولــة والبرجوازية في المجتمعات التابعة ـ حالة المغرب » في العدد الاول من مجلة المشروع ـ الصادرة عن الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية ـ يشكل مجهودا متميزا على الصعيد النظري فضلا عن كونه يكتسي أهمية خاصــة اعتبــارا للقضايا والاشكالات التي يتناولها ويحاول حلها من زاوية ايديولوجية معينة .

ولئن كان الاستاذ المالكي لا ينبري للتنظير للأوضاع القائمة ببلادنا فقط بل تشمل اهتماماته النظرية وضع البلدان الامبريالية ، فان اهتمامنا سينصب ولأسباب عديدة لا مجال للخوض فيها ، على حالة المغــرب ، دون التطــرق للمشاكل المتعلقة بالبلدان الامبريالية الا بالقدر الذي يتطلبه تفسير الاوضاع القائمة في بلادنا .

وفي هذه الملاحظات السريعة ، التي ستقتصر على جوانب تنظيــرات المالكي في مقاله المذكور ، سنتتبع الاستاذ في مسلسل انتاجه النظري الامر الذي سيضطرنا الى الادلاء بمقتطفات مطولة من المقال توخيا للوضوح وحتى لا نتهم بتحريف انتاجه أو بفصل طروحاته عن سياقها ... وان الابداعــات النظرية للأستاذ المالكي يجب أن تؤخذ مأخذ الجد لسببين أساسيين علــى الأقل ، هما اللذان شكلا الدافع الرئيسي لكتابة هذا الرد الوجيز والذي لا يدعي لنفسه الالمام بكل عناصر الموضوع وأحرى ان يشكل الجواب النهائي عــن مجمل الاشكالات النظرية السياسية التي يتناولها المقال .

ان دراسة مسألة رأسمالية الدولة وتبيان طبيعتها الطبقيــة ومدلولهــا التاريخي على جانب كبير من الأهمية . وقد يؤدي عدم ادراك الجوهر الطبقي لهذه الظاهرة الاجتماعية الكلية الى نتائج « لا تخلو استنباعاتها السياسيــة والايديولوجية من أخطار » وعلى حد تعبير المالكي » وعلاوة على ذلك ان هذه الدراسة ليست مجرد ترف فكري ؛ بل انها تشكل الأساس النظري أو التبرير الايديولوجي لاستراتيجية وتاكتيك سياسي معين ، وسنحاول الربط بيــن المجهود النظري للأستاذ المالكي وبعض المواقف السياسية وكــذا المشروع الاجتماعي البرجوازي للاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية ، ذلك هو السبب الاول . اما السبب الثاني لكتابة هذا الرد ، فهو كون دراسة المالكي تقــدم نفسها على أنها التطبيق الخلاق والمتخلي » عن كل أشكال التقديس تجــاه النظرية الماركسية » للمادية التاريخية على الواقع المغربي . وانطلاقا من هذه النظرية بالذات ، تتضمن الدراسة كثيرا من المغالطات والمفاهيم النظريــة

المستقاة ، دون تمحيص ، من علم الاجتماع البرجوازي المتبذل . ومن ثم لزم وضع النقط على الحروف وتوضيح بعض المفاهيم النظرية الأساسية التي تعرضت للتشويه والتحريف في دراسة الأستاذ . وان وعي أو عدم وعي المالكي بهذه التشويهات مسألة ثانوية ما دمنا نتعامل مع طروحاته المعلن عنها وليس مع نواياه التي قد تكون حسنة لكن ، اليست « أبواب الجحيم مرصوفة بالنوايا الحسنة » ؟ .

لقد كثر الحديث في الآونة الأخيرة ، عن التشكيلة الاجتماعية وعن الطبقات الاجتماعية بمجتمعنا ، بيد ان الملاحظ هو ان هذا الحديث لا يتعدى كونه محاولة لطمس المعالم الحقيقية للطبقات الاجتماعية ببلادنا بالرغم من كونه يدعي العلمية « وتجاوز » المفاهيم المادية التاريخية العقيمة أو يمزجها بمقاييس ونظريات أخرى كما يفعل الاستاذ باسكون الذي يعتبر ان التحليل الطبقي غير كاف لفهم الواقع المعقد « للمجتمع المغربي الخليط » ولذلك وجب الاستعانة بالنظرية التجزيئية (1) واذا كان « الانتاج النظري » يضطلع بدور بارز في الصراع الطبقي بل انه أحد أشكاله الأساسية ، فان وظيفته المحورية تكمن في كونه يخدم بالضرورة ـ بشكل واع أو من حيث لا يدري ـ مصلحة طبقة اجتماعية معينة ويدعمها في الصراع الطبقي الدائر في المجتمع .

1 ـ اذا كان مطلع مقال الاستاذ المالكي لا يشكل « خطابا حول المنهج » فان الملاحظات المنهجية والابستمولوجية التي يطرحها المالكي لا تخلو من اهمية ؛ سيما أنها تحدد ، نظريا على الاقل ، النهج الذي سيحكم مسار المقال. والأهم من هذا وذاك هو كون هذه الملاحظات المنهجية تبرز « الخلط المنهجي » الذي يلازم المالكي في تسلسل انتاجه النظري .

بعد المدخل المنهجي ، يؤكد المالكي ان « النقاش حول الطبقات الاجتماعية في بلادنا كثيرا ما يطرح من خلال مصطلحات تجعله ذا دلالة بالنسبة لأوروبا القرن 19 ، أكثر مما له علاقة بالعالم الثالث في القرن العشرين » ... لربما كان النقل الميكانيكي لنتائج بعض التحليلات الماركسية لمجتمعات أوروبا القرن 19 أو حتى القرن 20 ومحاولة فرضها على الواقع المغربي المتميز ، مبررا لنقد المالكي لهذا المنهج الدغمائي والميكانيكي ؛ بيد ان جوهر مشكل « النقاش حول الطبقات الاجتماعية في بلادنا » لا يكمن في المصطلحات (البرجوازية ، الاقطاعية) بقدر ما يتعلق بمضمون هذه المصطلحات العلمية . وبديهي ان مفاهيم المادية التاريخية ليست جامدة بل انها تتطور باستمرار ، وتستوعب المعطيات الجديدة التي لم يكن بامكان واضعيها التنبؤ بها . وهكذا « فبرجوازيتنا » مثلا تختلف جوهريا عن برجوازية أوروبا القرن 19 التي درسها ماركس ، لكن بالرغم من الاختلافات فانها برجوازية مع ذلك .

وفي اطار تعميقه للبحث يحدثنا المالكي عن « المقاييس الماركسية

المركزية » . وهنا يحق لنا التساؤل : هل هناك ماركسية مركزية وأخرى محيطية ؟ . واذا كان الماقل لا يتضمن حل هذا اللغز فاننا سنحاول فكه : ان المالكي لا يعني بـ « المقاييس الماركسية المركزية » النزعة الاوروبية المركزية التي طبعت أبحاث وتحاليل رواد النظرية الماركسية بل يقصد المقاييس الماركسية السائدة أو المتداولة في البلدان الراسمالية المركزية على حد تعبير سمير أمين . لكن ما هي دلالة هذا المفهوم الذى نحته المالكي ؟ .

ليس المالكي أول مثقف مغربي متمركس يطالع علينا بفهم خاص للماركسية واذا كانت قراءته الخاصة للماركسية تمتاز بسطحيتها فانها تلتقي مع القراءات الاخرى في انتقائيتها وتجزيئها للنظارية الماركسية . وطرح المالكي جغرافي علاوة على كونه يعكس خلطا نظريا بين المادية التاريخية كنظرية عامة لانماط الانتاج وكعلم يستوعب ويفسر التناقضات الاجتماعية من جهة وبين الخلاصات والنتائج التي أدى اليها تطبيق هذه النظرية في البلدان الرأسمالية الأوروبية من جهة أخرى : انه خلط بين المنطلقات والاسس النظرية العامة وبين نتائج تطبيقها على واقع اجتماعي محدد تاريخيا .

وبهذا « الفهم الخاص » تفتقد المادية التاريخية قيمتها الكونية والعلمية وتختزل في مجموعة من المفاهيم والقوالب الجامدة التي ليست في الواقع الا خلاصات محددة تاريخيا لتطبيقها على مجتمع ما .. .وبهذا الخلط وهذا المنطق ترفض المادية التاريخية باعتبار انها « متجاوزة » وغير مطابقة لواقعنا المتميز . وعند هذه النقطة يلتقي أصحاب « الاصالة » دعاة التفكير السلفي التقليدى بأصحاب القراءات الخاصة « والاصيلة » للماركسية . وقراءة المالكي للماركسية تتجاهل جوهرها الحي « التحليل الملموس للواقع الملموس » وكونها ايديولوجية البروليتاريا وقدرتها على فهم وتغيير المجتمعات وتحويلها ثوريا . ان المالكي شانه في ذلك شان العديد من المثقفين المغاربة والعرب ، يقسم الماركسية الى مناطق وأدوات تستعمل حسب الظروف ويطمس جوهر الماركسية الذي هو واحد وكوني . واستعمال المالكي للماركسية لا يختلف في جوهره عن تعامل الاشتراكية الديموقراطية معها : انها « اداة لتحليل الواقع » يتم بتر أجزائها الجوهرية التي اكل عليها الدهر وشرب (3) (ديكتاتورية البروليتاريا) ... لكي تصبح مقبولة من طرف البرجوازية !

2 ـ « ان مقياس اختبار صلاحية المعرفة ، هو قدرتها ليس فقط على فهم الواقع بل على تغييره » هكذا يغني المالكي نظرية المعرفة باكتشاف مقياس جديد لمدى صلاحية أو صحة المعرفة وهو قدرتها على تغيير الواقع . في الوهلة الاولى يبدو ان هذا المقياس « الجديد » يشكل « اضافة ثورية » لنظرية المعرفة لكن في الحقيقة ان هذا المقياس لا يتعدى كونه صياغة جديدة لمقياس صلاحية المعرفة حسب النظرية النفعية والذرائعية . هذه النظرية التي تحكم على

المعرفة بنتائجها العملية والتي تتركز فلسفتها في المعرفة في مقولة « ان الجيد هو ما ينجح » والتي تحدد قيمة المعرفة بفائدتها العملية المباشرة . وبالاضافة الى ذلك ان المقياس الجديد يطمس دور الانسان ككائن فاعل في تغيير الواقع، وكأن المعرفة قادرة لوحدها على تغيير الواقع . طبعا ان كل هذا ممكن في اطار المثالية التي تعتبر ان الفكر / المعرفة سابقة عن الواقع والممارسة بل انها ساس كل تغيير في العالم . هكذا يبعث المالكي الفكر المثالي المبتذل ويقدمه على أنه فتح جديد في نظرية المعرفية المادية بدون شك . ان اغفال دور الانسان الذي يملك المعرفة « ويحول الافكار الى قوة مادية » لتغيير الواقع يلازمه التغاضي عن كون المعرفة تنمو وتتطور من مرحلة دنيا (المعرفة الحسية) الى مرحلة عليا (المعرفة العقلانية) خلال عملية التغيير نفسها . ان النظرة السطحية قد توهمنا ان المالكي يربط المعرفة بالممارسة (التغيير) لكن طرحه يفصل المعرفة عن الممارسة ويربطه بالفهم وكأن الفهم يمكنه أن يحدث خارج اطار الممارسة الاجتماعية المتعددة الاشكال .

د ــ « ان الفرضية التي انطلقت منها ، يقول المالكي في هذه الدراسة ... هي ان رأسمالية الدولة باعتبارها ممارسة ونسقا في التنظيم ، قد أصبحت مقياسا أساسيا لتحديد هوية المجتمعات التابعة » ... وان هذا الطرح الذي يختزل رأسمالية الدولة في كونها « ممارسة ونسقا في التنظيم » وصفي بحت علاوة على أنه يطمس الطبيعة الطبقية لرأسمالية الدولة ، ويتجاهل انها مرحلة من مراحل تطور نمط الانتاج الرأسمالي في حقبة الامبريالية . وبهذه «الفرضية» يلغي المالكي مسألة محرجة وهي الطبيعة الطبقية « للمجتمعات التابعة » ، اذ ما معنى الحديث عن هوية المجتمعات . وهل يمكن الحديث عن هوية مجتمع ما بعيدا عن بنية الطبقات الاجتماعية المتصارعة فيه ؟ ان هذا الطرح التعويمي الذي يفتقد البعد الطبقي لا يقدمنا قيد أنملة في فهم الطبيعة الحقيقية اي الطبقية في آخر المطاف ، للمجتمعات الخاضعة للامبريالية بل انه قد يؤدي الى متاهات سياسية لا تحمد عقباها ! واما القول ان رأسمالية الدولة ... قد اصبحت مقياسا أساسيا لتحديد هوية المجتمعات التابعة فمقياس جزئي وغير كاف للكشف عن جوهر طبيعة هذه المجتمعات ، ذلك ان رأسمالية الدولة في المجتمعات الخاضعة للامبريالية ، ليست سائدة في كل هذه المجتمعات بل تتعايش / تتصارع مع الرأسمالية الخاصة بل وحتى مع انماط انتاجية ما قبل رأسمالية في العديد من الحالات أولا ، وحتى في المجتمعات التي تسود فيها رأسمالية الدولة فانها تتخذ اشكالا ومضامين متباينة حسب البنية الطبقية للمجتمع وحسب الطبقة السائدة فيه . غير أن هذا لا يلغي كون رأسمالية الدولة قد أصبحت أحد الاشكال الرئيسية لنمو وتطور الرأسمالية ــ تحت يافطات مختلفة : اشتراكية ، بعثية ، ... ــ في العديد من البلدان الخاضعة للسيطرة

الامبريـــاليـــة .

4 ــ يعتبر المالكي ان المفهوم اللينيني للامبريالية (4) يتلخص في كون التقسيم العالمي للشغل يقيم العلاقة بين الاقطار المنتجة للمواد الاولية وبين الاقطار المصدرة للمنتوجات المصنعة ، وانطلاقا من هذا الفهـم الغريـب « للمرحلة الكلاسيكية للامبريالية » ينتقل المالكي للحـديث عـن المرحلـة الراهنة التي تتميز باعادة التوظيف الصناعي باعتباره اجراءا مضادا للأزمة يتخذه المركز ، ويتمثل في صيرورة ترمي الى « لا مركزية » الانتاج الراسمالي على المستوى العالمي . لكن اذا كان من الواضح أن القسمة العالميـة للعمـل الرأسمالي قد طرأت عليها تغييراتهامة خلال العقود الاخيرة خصوصا بعد موجة القضاء على الاستعمار القديم ، وتحت تاثير عوامل عدة من أبرزهـا نضـال شعوب الدول الخاضعة للأمبريالية من أجل تحررها الاقتصادي ، بعد انتزاعها لاستقلالها السياسي ، وبفعل الازمة التي يتخبط فيها الاقتصاد الرأسمالـي العالمي ، فمن الضروري التاكيد على أن هذه التغييرات وما أدت اليه من « لا مركزية الانتاج » لم تغير من جوهر طبيعة العلاقات الاستغلالية التي تربط الامبريالية بدول ما يسمى العالم الثالث . وان انتشار المقـاولات الفرعيـة وصناعة احلال الواردات الخ ... لا يخرج عن اطار قسمة العمل الرأسمالي على الصعيد العالمي ، هذه القسمة التي تتحكم في تحديدها الامبريالية بالاساس... ويضيف المالكي انه « لا شك ان خطاب البنك العالمـي (...) والحديث عـن النظام الاقتصادي العالمي الجديد يمثلان المؤشرين الاساسيين للاستراتيجية الامبريالية الراهنة » ويفهم من هذا ان الامبريالية قد غيرت استراتيجيتها أي انها تنهج استراتيجية جديدة . واذا كان المالكي يذهب الى حد القـول ان جوهر الامبريالية قد تغير فا نطرحه هذا حول « الاستراتيجية الامبرياليـة الراهنة » لا يقل خطرا على الصعيد العملي من المقولة الاولى حول تغيير جوهر الامبريالية .

لكن ما هو جوهر الاستراتيجية الامبريالية ؟ انه استغلال ونهب خيرات وشعوب بلدانها وبلدان ما يسمى العالم الثالث والسيطرة عليها على جميـع الاصعدة . وهذه الاستراتيجية العامة قارة وثابتة ما دامت طبيعة الامبريالية لم تتغير .. ان ما تغير ــ وما هو قابل للتطور والتكيـف ــ هـو الاشكـال والاساليب التي تنتهجها الامبريالية لتحقيق أهدافها في السيطرة والاستغلال . وان تغيير وتطور هذه الاساليب والاشكال لا يخضع لارادة الامبريالية بقدر ما تفرضه نضالات الشعوب ومسار الصراعات الاجتماعية في البلدان الامبريالية وفي البلدان التابعة على حد سواء .

5 ــ « ان الدولة المعاصرة ، نتيجة لتعدد معانيها ⁕ ، لا تكـف حسب المالكي ، عن تشكيل مجرى الاشياء والاشخاص ، وعن تحديد اتجاهاتهم »

يبدو ان هذا الفهم المعاصر « للدولة المعاصرة » يتماشى مع التطورات التي عرفتها الدولة والدور البارز الذي تضطلع به على جميع الاصعدة . لكنه يخفي جوهر مسألة الدولة ومعناها الوحيد مدعيا أن الدولة قد تعددت معانيها . وان هذا الفهم الادواتي للدولة ، الذي يعتبرها عبارة عن مجموعة من الاجهزة تقوم بعدة مهام وتستمد منها معانيها ، من صلب التقاليد الاشتراكية ـ الديموقراطية التي تقسم الدولة الى عدة أجزاء بعضها صالح ويخدم الصالح العام والبعض الآخر غير صالح ... وهكذا تجزأ مسألة الدولة ويطمس معناها الحقيقي والغير قابل للتقسيم وهو كون الدولة أداة للسيطرة اطلبقية توظفها الطبقة السائدة ـ ما دامت احدى مهامها الاساسية الابقاء على الاوضاع القائمة ـ (5) وتنخرط في الصراع الطبقي ، فان هذا الدور يخضع هو كذلك لتاثيرات الصراع الطبقي التي تحدد أهمية وحجم تدخل الدولة .

ويتأسف المالكي لكون « الدولوي في المجتمعات الاشتراكية لا يزال كثيفا ومكتسحا رغم ما في ذلك من مفارقة مع فلسفة المجتمع وهو يستمد قوته من بعض الاشكال السيئة للتنمية الاشترلكية » وبديهي ان هذا الطرح الاخلاقي لا يمكنه أن يخلص الى جوهر الطبيعة للطبقية للمجتمعات التي يعتبرها المالكي « اشتراكية » ، وان التحسر على واقع مجتمعات المعسكر الاشتراكي بل وحتى « بناء المجتمع الشيوعي » وان ما يسميه المالكي الاشكال السيئة للتنمية الاشتراكية ما هو في الحقيقة الا رأسمالية تحاول اخفاء طبيعتها برداء اشتراكي ، انها رأسمالية الدولة . وسبب كثافة الدولوي واكتساحه لكل مرافق الحياة في هذه المجتمعات لا يكمن في أشكال التنمية بقدر ما يرتبط بالطبيعة الطبقية للدولة التي تستلزم هذه الكثافة . والدولة في المجتمعات التي تسود فيها رأسمالية الدولة تمركز كل وسائل الانتاج الاساسية ، انها المالك القانوني لوسائل الانتاج ، غير ان هذه الملكية القانونية يلازمها تصرف برجوازية الدولة في وسائل الانتاج واستحواذها على جزء هام من فائض الانتاج . ان طبيعة سيطرة برجوازية الدولة هي التي تفرض كثافة «الدولوي» ما دامت الدولة تشكل حجر زاوية هيمنتها على المجتمع برمته . ولقد بين بتلهايم طبيعة العلاقات التي تنسج بين الدولة كجهاز للقهر الطبقي وبين تطور ونمو رأسمالية وبرجوازية الدولة في المجتمع السوفياتي (6) ولا غرابة في ان يعتبر المالكي دول المعسكر الشرقي « اشتراكية » ما دام المشروع السياسي الذي ينخرط فيه يرمي الى بناء مجتمع « اشتراكي » من نفس النوع تكون هذه المرة أشكال التنمية الاشتراكية فيه غير سيئة . وان النهج المثالي للمالكي هو الذي قاده الى اصدار تقييمات ذاتية واخلاقية على واقع موضوعي تحركه ، بالدرجة الاولى الصراعات الطبقية وليس رغبات ونوايا الأشخاص .

6 ـ وينتقل المالكي مجددا الى « عالمنا الثالث » ليقول : « في المجتمعات التابعة تكون أهمية الملكية الدولوية مؤشرا بنيويا عن مكانة الدولة التي تتأكد وظائفها الاقتصادية أكثر فأكثر (...) ان تطور هذا القطاع العام تتحكم فيه مقتضيات التقسيم العالمي للشغل وميزان القوى الذي يوجهه أكثر مما تحكم فيه ضرورة تنمية داخلية مسرعة (تأميم بعض المرافق البترولية لا يعني وقف التبادل اللامتكافيء بل معناه توزيع جديد لفائض القيمة البترولية بين البلدان المنتجة والشركات الاجنبية » ونميل الى اعتبار أن أهمية الملكية الدولوية ليست بالدرجة الاولى « مؤشرا عن مكانة الدولة » في المجتمعات الخاضعة للأمبريالية . وذلك لان الدولة ؛ وفي كل البلدان الحديثة العهد بالاستقلال السياسي ومهما كانت طبيعة نظامها الاجتماعي والسياسي ؛ تحتل موقعا بارزا في هذه المجتمعات .. اما أهمية الملكية الدولوية فتشكل مؤشرا لتطور الرأسمالية التبعية في المجتمعات الخاضعة للامبريالية للدور الذي تضطلع به الدولة في توسيع دائرة الانتاج الرأسمالي ، وذلك ما تشهد به تجربة كل بلدان العالم الثالث الاشتراكية منها والرأسمالية على حد سواء . وفيما يتعلق بتطور القطاع في المجتمعات التابعة فلا تحدده الامبريالية (التقسيم العالمي للشغل) بمحض ارادتها وبشكل وحيد الجانب بل يساهم في تحديده مسلر الصراع الطبقي في المجتمع المعني وموازين القوى بين مختلف مكونات الطبقة السائدة وطبيعتها ؛ وفضلا عن ذلك ان القطاع العام يسخر في الغالب لخدمة القطاع الخاص ومصالح الامبريالية ، انه قطاع اقتصادي ذو طبيعة كومبرادورية في آخر المطاف . ولئن كان من المؤكد أن اجراءات التأميم بمفردها لا يمكنها أن تغير من طبيعة علاقات التبعية والاستغلال التي تربط بين الامبريالية والبلدان الخاضعة لها ؛ فان « التوزيع الجديد لفائض القيمة البترولية » وغير البترولية لا تستفيد منه « البلدان المنتجة » بل تحتكره الطبقات السائدة في هذه البلدان . وان طرح المالكي للمشكل على هذا النحو يعود بنا الى الايديولوجيا البرجوازية التي تعتبر ان محرك التاريخ ليس هو الصراع الطبقي وانما هو الصراع بين الامم والشعوب التي تشكل كتلا منسجمة داخليا (الامة) وتفضي هذه النظرة الى تقسيم العالم الى « أمم برجوازية وأمم بروليتارية » (7) وتلتقي مع نظرية العوالم الثلاثة على صعيد النتائج السياسية وذلك بطمسها للصراعات الطبقية الداخلية .

7 ـ ويؤكد المالكي ان « الدولة بمراقبتها لجزء كبير من وسائل الانتاج ، تظل مع ذلك بعيدة عن التحكم في ملكيتها الاقتصادية .. ان الملكية القانونية لا تمنح آليا ، السلطة الفعلية للدولة في ان تخصص بحرية استعمالات معينة لوسائل الانتاج ، وفي ان تتوفر بذلك على المنتوجات المحصل عليها » اذن من هو الطرف (الطبقة) الذي يتحكم في الملكية الاقتصادية للدولة ويستحوذ

على المنتوج ؟ ان هذا السؤال يبقى بدون جواب في المقال . لكن في اطار فهم معين يعتبر الدولة كيانا محايدا وغير منخرط في الصراع الطبقي يمكن ادراك مدلول ما يقوله المالكي . ان الطرح اللاطبقي ، الذي لا يقيم علاقة محددة بين الدولة وبين طبقة معينة هي الطبقة السائدة في المجتمع ، عاجز عن الكشف على المستفيد من ملكية الدولة . في حين ان وضع الدولة في اطارها الحقيقي كأداة للقهر الطبقي وكتعبير مركز لهيمنة الطبقة السائدة واعتبارها عنصرا مكونا وفاعلا في الصراع الطبقي أولا ؛ والانطلاق من ان برجوازية الدولة هذه البرجوازية من نوع جديد لكونها لا تتمتع **بالملكية القانونية الخاصة** الامر الذي لا يمنعها من التصرف **في الواقع** في وسائل الانتاج ، ما دام الاساسي هو الوقائع وليس **المقولات القانونية** (8) ثانيا ، هي العناصر التي تمكننا من ادراك الطبيعة الطبقية لملكية الدولة والمستفيدين منها ، أي تحديد مصير فائض الانتاج . لذا ، نعتبر ان البرجوازية البيروقراطية هي التي تتحكم انطلاقا من موازين القوى داخل الطبقة السائدة ومن الصراع الطبقي الدائر في المجتمع ومن علاقات الطبقة السائدة بالامبريالية ؛ في الملكية الاقتصادية للدولة – أي وسائل الانتاج التي تملكها الدولة قانونا – وهي التي تتوفر على جزء هام من المنتوجات المحصل عليها .

والتحفة النظرية تبقى في نهاية التحليل قول المالكي ان « وظائف الدولة المالكة ، هي وظائف مرتبطة بتصور عقلي خاص ، هو عقلية التبعية » * : انها المثالية المبتذلة في أبهى صورها ! ان عقلية التبعية هي التي تحدد وظائف الدولة المالكة . ما هذا يا أستاذ ؟ لقد أصبح الفكر هو الذي يحدد الواقع ! والحقيقة ان ما يسميه المالكي عقلية التبعية وليدة علاقات الاستقلال والسيطرة التي تفرضها الامبريالية على البلدان الخاضعة لها ووليدة تبعية الطبقة السائدة محليا لمراكز التقرير الامبريالية . وان الواقع المادي (الاقتصادي) هو الذي يحدد ، في آخر المطاف ، وينعكس على صعيد فكر وايديولوجيا الطبقة السائدة التابعة التي تؤثر بدورها في هذا الواقع وتحاول تكييفه وفقا لمصالحها الخاصة. ولئن كانت علاقات التبعية للامبريالية تؤثر بشكل كبير على وظائف الدولة وبشتى الاساليب كالمساعدات المالية والثقافية والتقنية والعسكرية الخ ... في البلدان التابعة فان العنصر الاساسي والحاسم في تحديد وظائف الدولة هو طبيعتها الطبقية أولا ، وطبيعة الصراعات / التحالفات الطبقية التي يعيشها المجتمع ثانيا . ومن الثابت ان الوظيفة الاساسية للدولة ، وظيفة السيطرة والقهر الطبقي ، لا تتغير في جوهرها ما دام المجتمع مقسما الى طبقات متصارعة في حين ان الوظائف الاقتصادية للدولة قابلة للتطور والتغيير حسب الابنية الطبقية في المجتمع . (9) .

8 – ان « رأسمالية الدولة التابعة تعمل بدون طبقة رأسمالية ، اي بدون

برجوازية في معناها الماركسي » وهذه الاطروحة تنطوي على عديد من المغلطات علاوة على كونها تبين ان ادعاء المالكي « تجاوز » ما اسماه « تقديس الماركسية » والمتعارف عليه علميا باسم الدغمائية او الجمود العقائدي مجرد كلام ليس الا ، كما ان « نحت مفاهيم ذات قدرة كبيرة على تفسير الواقع » مبدأ يقول به المالكي لكنه لا يعمل به . والحقيقة هي ان اجتهاداته لا تتعدى محاولة النقل الميكانيكي لتطبيقات المادية التاريخية في المجتمعات الاوروبية الى المجتمع المغربي . ويتجلى ذلك في محاولة ايجاد المميزات التي طبعت برجوازية البلدان الرأسمالية الاوروبية في ق. 19 لدى البرجوازيات التي ظهرت في البلدان الخاضعة للامبريالية مع أن ظروف نشأة وتطور هذه الطبقات تختلف جوهريا على جميع الاصعدة . وان المالكي لا يكلف نفسه عناء فهم الطبيعة والخصائص المميزة لبرجوازيات المجتمعات التابعة التي ارتبط ظهورها ، في أغلب الحالات ، بالتوسع الاستعماري والتي تتميز بانشطارها الى شريحة كمبرادورية عملية وشريحة وطنية وبما ان المالكي لا يدرك طبيعة البرجوازية التابعة ، فمن الطبيعي ان لا يعي وجود البرجوازية البيروقراطية الامر الذي يدفعه الى التأكيد ان « رأسمالية الدولة التابعة تعمل بدون طبقة رأسمالية » . ومثل هذا الطرح يكذبه الواقع العيني لبلادنا ويتنافى مع المادية التاريخية ... ذلك أن المجتمع المغربي المعاصر توجد فيه طبقة برجوازية (رأسمالية) مالكة لوسائل الانتاج وتعيش من استغلال قوة عمل الطبقة العاملة ، وبجانب هذه البرجوازية الخاصة توجد برجوازية من نوع جديد ممثلة في البيروقراطية العليا المدنية والعسكرية التي تتحكم ، ضمن شروط معينة ، في وسائل الانتاج التي تمالكها الدولة ، ولئن كانت هذه البرجوازية البيروقراطية لا تملك قانونيا وسائل الانتاج ؛ فان تحكمها في هذه الاخيرة وعيشها من فائض القيمة واضطلاعها بدور بارز في توسيع دائرة الانتاج الرأسمالي في مجتمعنا ، كلها عوامل تؤكد برجوازيتها ورأسماليتها التبعية . بل أكثر من ذلك أن البرجوازية البيروقراطية لا تختلف في جوهرها البرجوازي عن مثيلاتها في الدول الرأسمالية المسيطرة . لكن اختلافات هامة تبقى قائمة بين الطبقتين وهي ناتجة عن دور كل من الطبقتين في قسمة العمل الاجتماعي على صعيد كل بلد وعن دور كل منها في التقسيم الرأسمالي للعمل على المستوى العالمي . وفضلا عن ذلك ، ان تبعية « برجوازيات » البيروقراطية للامبريالية تطبعها بسمات مميزة تفتقر اليها مثيلاتها في البلدان الامبريالية .

ان اهتمام المالكي بالتنظير للأوضاع على الصعيد العالمي تؤدي الى خلاصات لا تخلو من طرافة ، علاوة على كونها يكتفي بترديد نتائج سوسيولوجيا العمل البرجوازية ... لكننا لن نتتبعه في هذا الميدان

9 ـ عودة الى المنطلق ، الى البلدان التابعة التي يؤكد المالكي بصددها « ان خصوصية رأسمالية الدولة في مجتمعات العالم الثالث ، تكمن في ارتباطها البنيوي بنظام الاقتصاد العالمي » لكن نظرة سريعة على واقع الاقتصاد الرأسمالي العالمي ، تبين ان الارتباط ولو كان بنيويا ليس سمة خصوصية مميزة « لرأسمالية الدولة في مجتمعات العالم الثالث » . ذلك ان تدويل العلاقات الرأسمالية وتداخل الرساميل جعل كل المجتمعات والرسماليات سواء منها الليبرالية أو الدولوية ومهما كانت نوعيتها سائدة أو تابعة ؛ مرتبطة بنظام الاقتصاد العالمي . وخصوصية رأسمالية الدولة في مجتمعات العالم الثالث لا تكمن في هذا الارتباط وانما في كونها تابعة وخاضعة لمراكز التقرير الامبريالية انها ذات طبيعة كمبرادورية في الغالب . طبعا ان رأسمالية الدولة في هذه المجتمعات ليست منسجمة ودرجة خضوعها للامبريالية تختلف من مجتمع لآخر حسب طبيعة الطبقة السائدة وموازين القوى الطبقية القائمة في المجتمع وكذا موازين القوى بين الامبريالية والطبقات السائدة محليا الخ...

10 ـ كيف يفسر المالكي « قانون التنمية الناقصة اللامتكافئة » ؟ بـ « الوضع الجيو ـ سياسي وثروات الارض وباطنها ، والديموغرافية والارث الاستعماري » . والحقيقة هي ان هذا « القانون العام » ملازم لتطور الرأسمالية في كل مراحلها ولا تشكل خاصية من خاصيات « العالم الثالث » . الا ان السيطرة الامبريالية تؤدي الى تعميق مفعول هذا القانون بتركيزها على استنزاف خيرات المناطق الغنية واهمالها لكل المناطق التي لا تدر عليها أرباحا هائلة وسريعة . وان تقسيم الامبريالية الفرنسية لبلادنا الى « مغرب نافع ومغرب غير نافع » وتركيزها على نهب « المناطق النافعة » خير دليل على ذلك . وخلافا لما يدعيه المالكي ، فان عدم التجانس والتناقض هو السمة الرئيسية لتطور الرأسمالية و « لمكونات المركز » .

11 ـ لقد شكلت معضلة « البرجوازية الوطنية » ولا تزال احدى العقد الرئيسية في تحليل الطبقات الاجتماعية في البلدان الخاضعة للامبريالية . فبينما يحاول البعض اثبات وجودها استنادا الى مقاييس موضوعية أو ذاتية محضة ، تعمل اتجاهات أخرى على نفي وجود هذه الطبقة الاجتماعية وتلغي امكانية عقد أي تحالف ، ولو مرحلي مع أية شريحة من شرائح البرجوازية . اما الاستاذ المالكي ، فلا يكلف نفسه عناء دحض المفاهيم والمقاييس التي تعتمد لاقرار وجود البرجوازية الوطنية في البلدان التابعة ؛ وان تصديه للفهم الميكانيكي الذي يدعي وجود البوجوازية الوطنية في كل زمان ومكان يؤدي به الى موقف ، لا يقل تطرفا عن الموقف الذي يناهضه ، يقضي باستحالة وجود هذه الطبقة بشكل مطلق . وهذا « التصحيح » غير مقنع فضلا عن كونه لا يغني عن التحليل الملموس لكل حالة ملموسة . وان

ذفي المالكي لوجود البرجوازية الوطنية لا ينطلق من تحليل علمي لواقـــع مجتمعنا بقدر ما تمليه حسابات سياسية وتصور حزبي مرتبط بالتطورات / التحالفات السياسية التي تشهدها الساحة الوطنية .. ان المالكي يحاول ابعاد شبح اتهام الاتحاد الاشتراكي بتمثيل البرجوازية الوطنية كما أنه يربد الغاء تمثيلية حزب الاستقلال لهذه الشريحة من البرجوازية : ان عهد « الكتلة الوطنية » قد ولى واختفت معه كل التبريرات النظرية التي كانت تــؤسس ضرورة التحالف مع ما كان الاتحاد يعتبره ممثلا للبرجوازية الوطنية ! .

اما « المقياسان الجوهريان اللذان كثيرا ما يلجأ اليهما لتبرير وجـود هذه الطبقة الاجتماعية هما : الماضي المعادي للاستعمار ، وتناقض المصالح مع الرأسمال الامبريالي » حسب المالكي . لكن من الضروري التأكيد على أن وطنية اية برجوازية لا يمكن استنتاجها من مواقفها المعادية للاستعمار في الماضي ، ان الماضي الوطني لا يشكل ضمانة لوطنية الحاضر . ان المقياس الاساسي لتحديد مدى وطنية أية برجوازية هو على الصعيــد الاقتصـادي تناقض مصالحها مع السيطرة الامبريالية على السوق الوطنية ، وعلى الصعيد السياسي معاداتها للامبريالية . وفي المرحلة الراهنة من تحويل العلاقـات الرأسمالية وفي عهد الشركات المتعددة الجنسيات والمقاولات الفرعية الخ ... فان حجم البرجوازية الغير تابعة للامبريالية يتقلص باستمرار سيمـا ان البرجوازية الكمبرادورية تهيمن على أهم المرافق والقطاعات الاقتصادية ، بيد ن ذلك لا يعني زوال كل أثر للبرجوازية الوطنية في كل البلدان التابعـة للامبريالية . اما مفهوم الكمبرادور الذي يقدمه لنـا المالكـي والقائـل ان « البرجوازية محددة حصرا بوظيفتها التجارية وبواسطتها مع الرأسمـال الاجنبي » والذي يعتبره « سيمة سطحية » ان هذا المفهوم يعكس عدم ادراك المالكي لجوهر طبيعة البرجوازية الكمبرادورية الذي يكمن في خدمتها للمصالح الامبريالية ، هذه الخدمة التي تكتسي حسب المراحل والظروف التاريخية ، أشكالا متعددة ، تجارية ، صناعية ، مالية ... الخ .

12 ـ « ان التوزيع العالمي الجديد للشغل قد ساعد على تحـول بعض الفئات التي لها ميل الى أن تحدد استنادا الى مقياس الانتاج أكثر من تحديدها بمقياس التجارة » وهكذا يتم تحديد الطبقات الاجتماعية بالميول ، لكن هذا المقياس الجديد ليس الا ضربا من ضروب المثالية التي تجاوزها حتى علم الاجتماع البرجوازي . ان الوضع في سياق الانتاج الاجتماعي هو الذي يحدد الطبقات الاجتماعية أولا ، ثم هل من الصحيح التأكيد على ان « التوزيع العالمي الجديد للشغل » هو الذي حول أو « ساعد » على تحول بعض الفئات » ؟ طبعا ان سمير أمين الذي ينهل الاستاذ المالكي من معينـه دون الاشـارة الـى استعاراته ، يؤكد ان « التقسيم العالمي الغير متكافىء للعمل ، هو الـذي

يفسر البنية الطبقية للنظام الامبريالي العالمي » ويضيف ان « النظام الامبريالي هو الواقع الاول والسائد » (10) . غير اننا نستمر في اعتبار ان التقسيم العالمي للشغل ، سواء كان جديدا أو قديما ، ليس هو العامل الوحيد ولا حتى الأساسي ، في بعض الشروط ، في تحديد طبيعة الطبقات الاجتماعية في بلدان ما يسمى العالم الثالث ، ان نمط الانتاج السائد والصراع الطبقي الدائر في هذه البلدان يشكلان عاملان أساسيان في تحديد طبيعة ومواقف الطبقات الاجتماعية في هذه البلدان . غير ان هذا لا ينفي كون الامبريالية تشكل عاملا مؤثرا وعنصرا على جميع المستويات في التشكيلات الاجتماعية التابعة .

ويؤكد المالكي ان « برجوازية العالم الثالث هي طبقة اجتماعية تابعة ، فهي لا تمثل وحدة تحدد نفسها بنوع معين من التناقضات مع الرأسمال الاجنبي ، وباستقلال ذاتي نسبي على الصعيد الايديولوجي والسياسي » . أولا ، ان برجوازيات البلدان الخاضعة للسيطرة الامبريالية ليست متجانسة ، فدرجة تبعيتها للامبريالية تختلف . وعلى صعيد البلد الواحد ، ان البرجوازية لا تشكل وحدة متراصة بل انها مكونة من عدة طبقات قائمة الذات ومحددة بموقعها في مسلسل الانتاج ومواقفها الايديولوجية والسياسية ؛ وعلاوة على ذلك ان « برجوازية العالم الثالث » لا تمتاز بانسجامها ولا بتطابق مصالح مختلف مكوناتها . ثانيا ، من الخطأ الادعاء انه لا توجد تناقضات بين برجوازيات البلدان التابعة والامبريالية ؛ ان العكس أصح . ذلك أن البرجوازية الصغيرة – وهي جزء لا يتجزأ من البرجوازية بالرغم من صغرها – في اتجاهها الرئيسي تتناقض مع الرأسمال الامبريالي . بل أكثر من هذا وذاك ، ان البرجوازية الكمبرادورية تقوم بينها وبين أسيادها الامبرياليين بعض التناقضات في مراحل تاريخية معينة ، غير أن هذه التناقضات تبقى دائما ثانوية ولا تمس جوهر المصالح الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية للامبريالية . وهذا الفهم الذي يلغي كل التناقضات الثانوية والاساسية التي تقوم بين الامبريالية من جهة وبين مختلف مكونات البرجوازيات في « العالم الثالث » لا يستند الى الواقع العيني لهذه البلدان بقدر ما ينبع من رؤية سياسية برجوازية صغيرة تميل الى وضع البرجوازية بكل مكوناتها ، بما فيها البرجوازية الصغيرة ، في « سلة » واحدة مع الامبريالية . وهذه النظرة لا تقل خطرا عن التضخيم في التناقضات بين بعض شرائح البرجوازية وبين الامبريالية والذي قد يؤدي الى مهادنة الكمبرادور بدعوى انه معادي للامبريالية ...

ويسترسل المالكي ليقول ان « برجوازية العالم الثالث ... لا تتوفر على صفات البرجوازية الاوروبية (...) واجمالا لا يمكن القول بأن برجوازية العالم

الثالث هي غير برجوازية (دائما حسب المالكي) واذا كانت برجوازية بمحاذاتها الكاريكاتورية ، في مجال الاستهلاك ، فانها غير رأسمالية بالنظر الى دورها في عملية التراكم وبممارستها السياسية ـ الايديولوجية . ان توسعها تدعمه الدولوية الاقتصادية القائمة في ظل الرأسمال الامبريالي الاجنبي » . ان هذه الطروحات تشكل نموذجا واضحا لدغمائية المالكي وعدم استيعابه لجوهر المادية التاريخية ، وان مسافة الف ميل تفصلنا عن نحت المفاهيم الملائمة الذي يدعو له الاستاذ في بداية المقال .

اذا كان من البديهي ان « برجوازية العالم الثالث » تختلف على مثيلاتها الاوروبية ، فان طرح هذه البديهية من طرف المالكي ليس بريئا وليس من باب التذكير ، وذلك ما يؤكده قوله « ان برجوازية العالم الثالث هي غير برجوازية». اذن بالنسبة للمالكي ، البرجوازية « الحقيقية » هي « البرجوازية الاوروبية » وما عداها فليس ببرجوازية بتاتا ، وهكذا فعدم التوفر على صفات برجوازية أوروبا يؤدي الى نفي صفة البرجوازية عن « برجوازية العالم الثالث » . وواضح ان هذا الطرح يغفل ظروف نشأة وتطور البرجوازية في البلدان الخاضعة للامبريالية والمميزات التي ترتبت عن ذلك .

ان البرجوازية المغربية ، وبمختلف مكوناتها ، ليست برجوازية صناعية ، وخلافا «للبرجوازية الاوروبية» انها تفتقد لروح المبادرة الرأسمالية وعقلية الاستثمار الصناعي فضلا عن كونها تفضل الاستهلاك والبذخ على الاستثمار والتراكم . لكنها وبالرغم من كل هذا ، طبقة برجوازية تملك وسائل الانتاج الاساسية المحددة لكل برجوازية . وفي التعريف المتداول للبرجوازية انها طبقة تملك وسائل الانتاج وتعيش من استغلال قوة عمل الطبقة العاملة . وان « برجوازيتنا » بالرغم من تخلفها العميق وتبعية جزء هام منها للامبريالية تتوفر على هذه الصفات المحددة للبرجوازية . اما دعم « الدولوية الاقتصادية » « لبرجوازية العالم الثالث » فذلك أمر « طبيعي » ما دامت وظيفة الدولة في هذه المجتمعات هي خدمة مصالح الطبقة السائدة وتشكل البرجوازية وبالتحديد الكمبرادورية ، طرفا من الطبقة السائدة .

13 ـ ويعود المالكي الى مسألة تشكل الطبقات الاجتماعية في البلدان التابعة ليقول « ان الدولة بوظائفها الاقتصادية التقليدية والجديدة هي التي تحدد بقوة صيرورة تشكيل الطبقات الاجتماعية في العالم الثالث (...) ان الماكية الدولوية وتوسعها (...) قد أوجدت فئة اجتماعية جديدة هي فئة التقنوبيروقراطية المفضية الى تكوين برجوازية دولة حقيقية » بعد ما كان « التوزيع العالمي الجديد للشغل » والميول من محددات الطبقات الاجتماعية فيما يسمى العالم الثالث ، اصبح أمر « تشكيل الطبقات الاجتماعية في العالم الثالث » موكولا » للدولة بوظائفها الاقتصادية التقليدية والجديدة » . وان

هذا الاسهام الجديد للمالكي في نظرية تشكيل الطبقات الاجتماعية جزئي فضلا عن كونه لا يعكس حقيقة علاقة الدولة بالطبقات الاجتماعية . صحيح ان الدولة في هذه المجتمعات التابعة تضطلع بدور بارز في مسلسل انتاج واعادة انتاج البنية الطبقية لهذه المجتمعات ، وذلك من خلال انخراطها (أي الدولة) في الصراع الطبقي وتأثيرها ، بتدخلها ، على موازين القوى الطبقية على الاصعدة الاقتصادية والسياسية والايديولوجية . بيد أن الدولة لا يمكنها في هذه المجتمعات ؛ ومهما بلغت قوتها وتعددت وظائفها الاقتصادية التقليدية والجديدة ؛ تحديد صيرورة تشكيل الطبقات الاجتماعية . وذلك لان هذه الصيرورة تخضع لشروط موضوعية ويستحيل على الدولة معاكسة هذه القوانين الموضوعية دون الاخلال بالسير الطبيعي للمجتمع ونسق توازنه .

اما ما يسميه المالكي « فئة التقنو ـ بيروقراطية » فان نشأتها ونموها مرتبطان بعجز البرجوازيات الخاصة في البلدان الخاضعة على النهوض بأعباء الاستثمار الرأسمالي واضطرار الدولة التبعية الى الحلل محلها في العديد من القطاعات الاقتصادية ، وفي نفوس الوقت الذي يتوسع فيه القطاع العومي والشبه عمومي تتقوى فيه طبقة البرجوازية البيروقراطية التي تشكل فئة التقنو بيروقراطية احدى مكوناتها الأساسية . بيد ان وجود فئة التقنو بيروقراطية لا يؤدي حتميا الى « تكوين برجوازية دولة حقيقية » الا في شروط سيادة رأسمالية الدولة على صعيد المجتمع كما هو الامر في دول أوروبا الشرقية وبعض الدول العربية . لكن من الطبيعي ان يعتبر المالكي فئة التقنو ـ بيروقراطية تفضي الى تكوين « برجوازية دولة حقيقية » ما دام يعتبر ان السمة السائدة في الاقتصاد المغربي والمجتمع المغربي ، هي راسمالية الدولة التابعة . وهناك ثلاث مجموعات من العناصر تؤكد هذه الاطروحة هي « وزن القطاع العام أولا واخضاع القطاع العام للعقلية الرأسمالية ثانيا ، وظهور فئة اجتماعية جديدة : التقنوبيروقراطية » ثالثا .

لكن بالرغم من الوزن الكمي للقطاع العام حيث ان الدولة تراقب اكثر 65 ٪ من رأسمال 221 مشروعا عام 1975 حسب المالكي . فان السمة السائدة في الاقتصاد والمجتمع المغربيين هي الرأسمالية الزراعية التبعية . لماذا ؟ لان القطاع العام وكل القطاعات الاقتصادية الاخرى ـ مهما كانت انماط انتاجها ـ تخضع لانتاج واعادة انتاج الرأسمالية الزراعية التبعية . وان مقياس تحديد سيادة نمط انتاج معين ليس مقياسا كميا وانما نوعيا ويتمثل في اخضاع نمط الانتاج السائد لكل الانماط والاشكال الانتاجية لاعادة انتاجه وتوسيع قاعدة انتاجه . فضلا عن ذلك ان « رأسمالية الدولة » في مجتمعنا مسخرة لخدمة مصالح القطاع الخاص من الاقتصاد وليس العكس .

والعنصر الثاني الذي يعتمده المالكي لتأكيد اطروحته هو « اخضاع القطاع العام لـ العقلية الرأسمالية » . فقد يبدو من الغريب أن يطرح المالكي هذا المقياس ، اذ هل يمكن للبرجوازية مهما كانت طبيعتها ان تخضع القطاع العام لعقلية أخرى غير العقلية الراسمالية ومنطق « مردودية رأس المال » الخ؟. لكن هذا العنصر يكشف أحد امرين : اما سذاجة الاستاذ واعتقاده بامكانية قيام الرأسمالية بخدمة و « ارضاء الحاجات الاجتماعية » واما وهم الاستاذ بامكانية تنمية اقتصادية غير راسمالية بقيادة البرجوازية التابعة . وعدا ذلك ان هذا الطرح ينم عن خلفية مثالية تعتبر ان « العقلية » هي التي تحدد سير النشاط الاقتصادي (هنا القطاع العام) ، في حين ان طبيعة النشاط الاقتصادي هي التي تحدد في آخر التحليل « العقلية » التي تؤثر بدورها في سير النشاط .

اما العنصر الثالث وهو ظهور « فئة اجتماعية جديدة : التقنو ـ بيروقراطية » التي يضيف المالكي بصددها « طريقة تدبير القطاع العام قد ساعدت على ميلاد ✻ وتوسع هذه الفئة الاجتماعية الجديدة » في البدء لا بد من التأكيد على ان « ميلاد وتوسع » ما يسميه المالكي التقنو ـ بيروقراطية لا يرتبط « بطريقة تدبير القطاع العام » بكل ما هو ملازم لكل قطاع عام مهما كانت طريقة تسييره . ذلك أن وجود القطاع العام يفترض دائما وجود طبقة أو فئة بيروقراطية تسهر على تسيير هذا القطاع وتستفيد ، بدرجات متفاوتة حسب كل نظام اقتصادي ـ اجتماعي ، من مواقعها في التسيير للاثراء والاستحواذ على فائض الانتاج . واذا كان من الثابت تاريخيا ان البرجوازية البيروقراطية في مجتمعنا هي الوريث الشرعي للبيروقراطية الاستعمارية الفرنسية والاسبانية فمن الأكيد ان حجم هذه الطبقة قد ساير النمو الذي عرفه القطاع العام ببلادنا منذ فرض الحل الاستعماري الجديد . ولئن كان الأصل الاجتماعي المتباين للبرجوازية البيروقراطية عائقا لتجانسها في بداية تشكلها ، فان البرجوازية البيروقراطية سرعان ما تتجاوز هذا الوضع وفي اطار الصراع الطبقي الدائر تشكل ايديولوجية متميزة تمتزج فيها عناصر الايديولوجيا التقنوقرطية والتنموية بعناصر من الايديولوجيا المخزنية الاقطاعية . وان خصوصية التقنو ـ بيروقراطية لا تكمن في كون تناقضات المجتمع المغربي تخترقها ، وذلك ان الطبقات الاجتماعية ليست مفصولة فيما بينها بحائط الصين بل انها تؤثر وتتأثر من خلال صراعها الدائم ، في بعضها البعض . لذا فان تناقضات المجتمع المغربي تخترقها جميعها ، لكن بدرجات متفاوتة حسب مستوى تشكل وانسجام كل طبقة الخ ... ويستغرب المالكي لكون « التقنو بيروقراطية ... تستعمل الدولة لغايات بعيدة كليا عن الصالح العام » وينم ذلك عن ايمانه بخرافة حياد الدولة

« وخدمتها الصالح العام » في حين ان الدولة لم تظهر على مسرح تاريخ البشرية الا للقهر الطبقي ولخدمة المصالح الخاصة لطبقة او لتحالف طبقي معين .

وفي اطار نهجه الرامي الى تعميق المادية التاريخية ، بعيدا عن « تقديس الماركسية » يقول أستاذنا : « في حالة المغرب ، ليس هناك توافق حقيقي بين السلطة الاقتصادية والسلطة السياسية الايديولوجية ؛ وهذا ما يجعل تحليل الطبقات الاجتماعية أمرا جد معقد » . ماذا يعني هذا الاجتهاد ؟ هل الطبقة السائدة على الصعيد الاقتصادي ليست سائدة على الصعيدين السياسي والايديولوجي ؟ ان المادية التاريخية تؤكد على ان الطبقة السائدة اقتصاديا هي في نفس الوقت التي تتمتع بالسيادة على الصعيدين السياسي والايديولوجي . لكن لربما هناك طبقات سائدة تستمد قوة سيطرتها السياسية والايديولوجية من أسس غير مادية ـ دنيوية ؟ لكن ان كل شيء ممكن في عالم المثالية ، غير ان « تحليل الطبقات الاجتماعية » ليس فقط امرا جد معقد في هذا العالم : انه مستحيل التحقيق .

بعد هذه الملاحظات السريعة والجزئية حول بعض الطروحات التي تضمنها مقال الاستاذ المالكي ، لا بد من التاكيد أن التنظيرات ذات المظهر اليسروي التي يتحفنا بها المالكي لا يتمخض عنها على الصعيد العملي الا نهج وخلاصات سياسية اصلاحية . وان حنق المالكي على راسمالية الدولة في مجتمعنا وسوء تسيير القطاع العام الخ ... لا يعاد له في الحقيقة الا طموحه الى مجتمع تسود فيه رأسمالية دولة تتجاوز فيه وتخدم « الصالح العام » اي تحتفظ بايجابيات الرأسمالية وتلفظ سلبياتها . وانه حلم البرجوازية الصغيرة الذي يتبرم من بعض جوانب الرأسمالية . فهل تتحقق هذه الرغبة / الوهم ؟ ! .

الـهـــوامـــش :

❊ ان ورود هذه الاشارة في النص يعني ان التشديد من عندنا .

(1) بول باسكون . انظر مساهمته في ؟

بـعــنـــوان :

(2) لعبد الله العروي « فهم خاص » للماركسية . انظر : « الايديولوجيا العربية المعاصرة » و « ازمة المثقفين العرب » ، ويتضمن هذا الكتاب « قراءة » العروي للماركسية .

(3) انظر التقرير الايديولوجي للمؤتمر الاستثنائي للاتحاد الاشتراكي .

(4) يختزل المالكي المفهوم اللينيني للامبريالية في علاقة تجارية بين الدول المصنعة والدول التي تصدر المواد الاولية . والوقوف على عمق التشويه الذي تعرض له المفهوم اللينيني للامبريالية من جراء هذا الاختزال ، انظر : ليفين « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » .

(5) وتنشأ عن هذه القاعدة دولة ديكتاتورية البروليتاريا التي يطرح عليها المساهمة في التثوير المستمر للعلاقات الاجتماعية والدفع في اتجاه بناء المجتمع الشيوعي حيث « تنمحي » الطبقات الاجتماعية و « تنطفىء » الدولة اجهاز للقهر الطبقي .

(6) انظر شارل بتلهايم : الصراع الطبقي في الاتحاد السوفييتي ــ جزءان . نشر ماسبرو ــ سودي .

(7) بيير موسى : « الامم البروليتارية » المنشورات الجامعية الفرنسية .

(8) شارل بتلهايم : الصراع الطبقي في الاتحاد السوفييتي . الجزء 2 ص 498 . التشديدات من عند بتلهايم .

(9) بيد ان ذلك لا يعني ان البروليتاريا المنتصرة لا يطرح عليها هدم كل اجهزة الدولة البرجوازية وبناء دولتها الجديدة ، دولة ديكتاتورية البروليتاريا ، على انقاض الدولة البرجوازية

(10) سمير امين : « البنية الطبقية للنظام الامبريالي المعاصر » . مجلة الانسان والمجتمع عدد يوليوز ــ دجنبر 1977 باريس .

« فهرست الابحاث والاطروحات المخصصة للمغرب العربي »

جمع وتقديم : آلان سانت ماري

نشر : مركز الابيض المتوسط الحديث والمعاصر ـ نيس 1979 .

233 صفحة من الحجم الكبير

عرض وتقديم : محمد الشاوني

أصدرت جامعة نيس بفرنسا ، في السلسلة « كراسات الأبيض المتوسط » قائمة الابحاث والاطروحات المتعلقة بكل من المغرب والجزائر وتونس مع تخصيص صفحتين في آخر الكتاب للجماهيرية الليبية .

ويتعلق الامر بالابحاث والاطروحات المكتوبة باللغة الفرنسية والتي قدمها باحثون عرب أو اجانب في الجامعات الجزائرية والتونسية والفرنسية . ويشمل « الفهرست » ميادين الأداب والعلوم الانسانية والاقتصادية والقانونية والسياسية في العصر الحديث والمعاصر .

ويتضمن « الفهرست » بالاضافة الى تقديم آلان سانت ماري الذي يوضح فيه أن « الفهرست لا يدعي الشمولية » والذي يدلي فيه بالمصادر التي اعتمدها لوضع الفهرست ؛ عناوين الأبحاث والاطروحات مع أسماء الاساتذة المشرفين عليها وتاريخ ومكان تقديمها .

اما فصول الفهرست فهي :

1 ـ التاريخ والحياة السياسية :

1) المغرب العربي قبل الاستعمار ، الغزو .
2) الفكر السياسي : بيبلوغرافيا .
3) السياسة الاستعمارية الفرنسية .
4) المؤسسات والحياة السياسية للمغرب العربي في ظل السيطرة الفرنسية
5) المؤسسات والحياة السياسية للمغرب العربي بعد الاستقلال .
6) الحركة العمالية والنقابية .
7) القومية وحركات التحرير .
8) العلاقات الدولية .
9) الاعلام والراي العام .

2 ـ الادارة والعدل .

1) التنظيم الاداري .
2) الاتنظيم العدلي .
3) جوانب من حقوق الاشخاص والممتلكات .
4) الجنوحية ، اللصوصية والجرمية .

3 ـ الاقتصاد :

1) عموميات .
2) الفلاحة والحياة الريفية .
3) الصيد والبحر .
4) التصنيع والاصناعات .
5) السياحة .
6) النقل والتجارة .
7) المالية .

4 ـ مونوغرافيات محلية واقليمية :

1) الجزائر .
2) المغرب .
3) تونس .

5 ـ السكان ، اليد العاملة ، نزوح السكان .

1) السكان .
2) اليد العاملة .
3) نزوح السكان .

6 ـ المجتمعات ، الديانات ، الثقافات .

1) المجتمعات والديانات .
2) التقاليد الشعبية .
3) التربية ، التعليم والمدرسون .
4) الاداب ، الفن واللسانيات .

واذا كانت مبادرة نشر هذا الفهرست مفيدة اذ من شأن الفهرست أن يساعد الطلبة والباحثين وكل المهتمين بقضايا المغرب العربي في ابحاثهم على مستوى الببليوغرافيا ؛ فمن الضروري ما دمنا لسنا بصدد دراسة نقدية للفهرست ابداء ملاحظتين أساسيتين :

1 ـ ان حصة المغرب من الابحاث والاطروحات المخصصة للمغرب العربي مزيلة . في حين يستاثر القطر الجزائري بحصة الاسد . لكن ربما يرجع ذلك الى عدم تضمن الفهرست لقائمة الابحاث والاطروحات المقدمة في الجامعات المغربية ؟ .

2 ـ من الملفت للانتباه ان نصيب الجامعات الفرنسية من الابحاث والاطروحات المقدمة من طرف باحثين ينتمون لدول المغرب العربي ، اكبر بما لا يقاس من نصيب الجامعات الجزائرية والتونسية معا . وفي ذلك أكثر من دلالة .

ان هذه الظاهرة لا تعكس فقط شغف مثقفي المغرب العربي بتهييء

وتقديم أبحاثهم وأطروحاتهم في الجامعات الفرنسية لان ذلك يكسيها « خاتم » الثقافة والمعرفة « الحق » ... بل تعكس اساسا التبعية الثقافيـة لبلـدان المغرب العربي ، وبدرجات متفاوتة ، لفرنسا ، هذه التبعية التي ليست الا أحد أوجه تبعية هذه البلدان للامبريالية على كافة المستويات .

الاستعمار الاسباني الفرنسي بالمغرب

(1898 — 1927)

تأليف : **فيكتور موراليس لسكانو**

نشر : **دار القرن الواحد والعشرين باسبانيا ـ الطبعة الاولى مدريد 1976**

(202 صفحة من الحجم المتوسط)

عرض وتقديم : محمد الشاوني

بالاضافة الى المقدمة ، يتضمن هذا الكتاب ستة مقالات « تدور حول النشاط الاستعماري الجديد (1) الاسباني ـ الفرنسي بالمغرب » (ص. الدولى) . وذلك في الفترة ما بين 1898 و 1927 ؛ اي من تاريخ فقدان اسبانيا لآخر ممتلكاتها الاستعمارية في أمريكا : كوبا سنة 1898 الى نهاية حرب المقاومة في الريف سنة 1927 .

اما الفصول التي يتضمنها الكتاب فهي :

1) اسبانيا بالمغرب : عقد « التغلغل السلمي » (1900 ـ 1910) .
2) المشروع الاستعماري الجديد الاسباني في شمال المغرب (1906 ـ 1923) .
3) مناجم الريف والرأسمال المالي الاسباني (1906 ـ 1930) .
4) تطور التجارة الاسبانية المغربية (1900 ـ 1927) .
5) التصعيد العسكري في منطقة الحماية الاسبانية وانعكاساته على صعيد الميزانية .
6) الحماية الفرنسية بالمغرب : التهدئة والاستغلال .

ومؤلف الكتاب أستاذ في التاريخ المعاصر بجامعة مدريد « ولقد سبق له أن نشر عدة مقالات حول معللات السياسة الخارجية الاسبانية ابان مرحلة الاستعراش » . ويعد فيكتور موراليس من الجامعيين الاسبانيين المهتمين بدراسة السياسة الاسبانية في مستعمراتها عموما وفي المغرب بشكل خاص.

ان هذا الكتاب « يتطرق لأول مرة في الاسطوغرافيا الاسبانية ـ لدراسة القوى المحركة للاستعمار الاسباني ، بعد 1898 ، في المغرب . وعلاوة على ذلك يحاول تكميم حجم المصالح الاسبانية في شمال افريقيا (...) ويشير الكاتب كذلك الى الانشقاق الذي ادى اليه المشروع الاستعماري وسط الطبقة السياسية والرأي العام في اسبانيا الاستعراش » (2) .

ان أهمية كتاب « الاستعمار الاسباني ـ الفرنسي بالمغرب » تأتي من كونه **المؤلف الاول** الذي يتناول وبشكل تفصيلي الى حد ما ، الجانب الاقتصادي للاستعمار الاسباني لبلادنا . ويعمل الكاتب على تبيان حجم

واهمية المصالح الاقتصادية للاستعمار الاسباني في المغرب اعتمادا على احصائيات ودرسات اقتصادية الخ ... مبرزا بذلك وجه الاستغلال الاقتصادي الذي فرضته الاحتكارات والرأسمال المصرفي والمالي الاسباني على بلادنا .
وبديهي ان خلاصات عمل فيكتور لسانكو تفند بعض الادعاءات القائلة ان اسبانيا خلافا لفرنسا ، لم تستفد اقتصاديا من استعمار المغرب ، وان هذا الاحتلال الاستعماري لم تدفع اليه مصالح الاحتكارات والرأسمال الاسباني بقدر ما هو راجع الى اسباب ايديولوجية / دينية : نشر النصرانية أو تنفيذ وصية ملكة اسبانيا ازابيل الكاثوليكية ! ان فكتور لسانكو يبين بالبرهان والحجج الدامغة ، أن وراء الاستعمار الاسباني لبلادنا مصالح الرأسمالية الاسبانية الهزيلة والمتخلفة ...

ولئن كان الكاتب وبحكم موقعه ومنطلقا ، وبحكم موقعه ومنطلقاته السياسية يولي اهمية خاصة لانعكاسات استعمار المغرب على الاوضاع الاقتصادية والسياسية في اسبانيا مبرزا الدور المعادي للاستعمار الذي اضطلعت به القوى السياسية المعارضة في اسبانيا والاحزاب والنقابات العمالية بشكل خاص . فانه يمدنا كذلك بتحليل دقيق ومعلومات هامة حول مختلف القوى والاحتكارات وجماعات الضغط التي كانت تدفع في اتجاه استعمار المغرب والقوى التي كانت من داخل المؤسسات العسكرية والسياسية والاقتصادية للنظام الاسباني تعارض المشروع الاستعماري .

ويولي الكاتب أهمية خاصة لمناجم الريف والاهمية التي كانت تكتسيها بالنسبة للرأسمالية الاسبانية ودور هذه المناجم في اندفاع اسبانيا لاستعمار بلادنا . وتحظى التجارة الاسبانية ـ المغربية خلال مرحلة 1900 ـ 1927 باهتمام خاص يتناول الكاتب حجمها ومحاورها ...

ومما يزيد من اهمية كتاب « الاستعمار الاسباني ـ الفرنسي بالمغرب » كونه يتضمن جزءا هاما مخصصا لاحدى الجوانب الاساسية ، والذي لا يزال مطموسا ، في التاريخ المعاصر لبلادنا . ويتعلق الامر بالحرب التحررية التي خاضتها قبائل الريف بقيادة محمد بن عبد الكريم ضد الاستعمار الاسباني أولا وضد الحلف الاسباني ـ الفرنسي ثانيا . ويركز على تبيان حجم الخسائر الاسبانية وثمن الحرب على جميع المستويات مع الادلاء ببعض المعلومات حول التناقضات التي عاشتها المؤسسة العسكرية الاسبانية آنذاك

اما المقالة الاخيرة التي تتطرق للاستعمار الفرنسي بالمغرب فانها لا تتعدى كونها تكرارا لما كتبه بعض المؤرخين فضلا عن كونها مزيلة بالمقارنة مع المقالات الاخرى .

وتكتسي مقدمة الكتاب أهمية خاصة لان لسانكو لا يكتفي بتقديم مقالاته الست بل يكشف النقاب على المنهج الذي اتبعه لوضعها ويطرح

الأسس الابستمولوجية التي يعتمدها في كتابة التاريخ . ويقول الكاتب : « ان بعض المقالات تتطرق لمرحلة التغلغل السلمي ، والبعض الآخر للتصعيد العسكري ولاصلاحات التي ادخلها الاوروبيون ...

وفي كل هذه المقالات أخذنا بعين الاعتبار الاطار العام الذي يمكن انطلاقا منه استعادة مدلولها لاكثر عمومية (...) وفي هذه الحالة يتعلق الامر بالاطار العام للفهم ، وبمجموع القوى الحية التي كانت تحرض الامم لاوروبية على مصادرة السيادة السياسية والمقدرات الاقتصادية والمالية للامبراطورية الشريفة : أي امبريالية ذلك العهد » (ص 2) ...

... « ولقد أدخلنا في الفعل التاريخي الذي ندرسه ، في اطار الامبريالية التي تحددها القوى الدولية المتواجهة ، الدور الذي اضطلعت به الاحزاب السياسية المعادية للاستعمار في فرنسا واسبانيا والتي رفعت ، باستمرار ، تقريبا ، احتجاجها من صفوف المعارضة ضد اهداف وأساليب المشروع الاستعماري » . (ص. 2) .

« ان نشاط الاستعمار الجديد الاسباني في منطقة نفوذه أولا ، وحمايته فيما بعد ... قد اختلف عن نشاط الاستعمار الجديد الفرنسي في الاراضي الشاسعة المعينة لحكومة باريس لمباشرة وصايتها » (ص 2) .

« لقد ركزنا الجزء الاساسي لهذه المقالات ، باستثناء الاخيرة ، على دراسة مسار التدخل السلمي والتصعيد العسكري في شمال المغرب الى حدود حدود نهاية الحملات العسكرية في الريف سنة 1927 . واكتفينا بشمال الامبراطورية ، لأن هناك جرت أعمال الاستعمار الجديد الاسباني الاكثر دلالة ؛ اما الجنوب ، المنطقة الخليفية للجزر الخالدات الشهيرة (...) فلا تظهر الا بشكل مشتت لأنه خلال المرحلة الاولى لفرض الحماية كانت بعيدة عن أن تكون جسرا جيويا بالنسبة للاستراتيجية الاوروبية في افريقيا .

في الصفحات التالية اردنا الاجابة على مجموعة من التساؤلات : من هي جماعات الضغط المتبجحة في شبه الجزيرة ، والاحزاب والمنظمات المرتبطة بالاتجاه **المغرباوي** (3) الاسباني خلال سنوات 1898 ـ 1927 ؟ ماذا كان مستوى مساهمة الرأسمالية الباسكية والكطلانية في انشاء المصالح الضرورية التي كانت تتطلبها المدن الموصى عليها ومواقع السيادة القديمة (4) والمنطقة الخليفية التي كانت تحيط بها والتي كانت تصلح كجسر أو كحزام وقائي ؟ هل شكل المشروع الاستعماري فصلا مخربا بالنسبة لمالية مرحلة الاستعراش وبالنسبة للتوافق الغير ثابت لأحزاب النظام وبالنسبة لطبقة مجتمع شبه الجزيرة ؟ » (ص. 4) .

... « اننا فضلنا عدم تقديم سرد للأحداث ، وانما التشييد العقلاني للأجوبة التي يفرضها تماسل الابحاث والتي طرحها علينا المنطق تارة

والحدس تارة اخرى و « الحس المهني » في أغلب الحالات . اذن ، ان هذه المقالات ، هي النتيجة ، الجواب المشيد على قائمة اسئلتنا وعلى تراكم التساؤلات التي يولدها بشكل مستمر ، مجال كل دراسة أو بحث » . (ص 5)
ان الاسطوغرافيا الاسبانية كانت شحيحة فيما يتعلق بالمسألة المغربية . وان الاسباب التي تفسر ذلك واضحة فضلا عن كونها لا زالت تحدد الى الآن اللامبالاة ، أو هي نتيجة للاسهامات في قائمة مكتبة الافريقاوية الاسبانية (5)
وفي العديد من هذه المساهمات نلمس أنها لا زالت تجتر لهجة انتصارية ... (ص 5)

« لقد اردنا الاحتياط من النزعة الانتصارية كما قلنا ، لأن تقديم كل واقع مضى يتم عبر صياغة الماضي انطلاقا من الانقاض والاطلال الموجودة . ونعتبر ان النزعة الانتصارية غير نزيهة وغير مقبولة في الوقت الحاضر . وفضلا عن كل ذلك انها تكشف تطفلا ايديولوجيا مزعجا من الافضل تلافيه ...

واذا لم نكن بجانب النزعة الانتصارية التي ميزت الافريقاوية المغربية، فلا نريد غض الطرف عن الرجوع الضروري الى بعض المراجعات التي تكتسي ضرورة لا تناقش » (ص 6) .

وبصدد نقد ميكيل مرتين مؤلف كتاب « الاستعمار الاسباني بالمغرب » الذي يدعي ان الاحصائيات حول ما قامت به اسبانيا في منطقة استعمارها منعدمة يقول لسانكو :

... « ان الكثير أو القليل (الذي قامت به اسبانيا في المغرب) ، ان ثمن المشروع الاستعماري الجديد ببسيطة ذلك العهد ، وان ضحايا الحرب والشروخ السياسية والايديولوجية في صفوف الأمة خلال المرحلة المحددة هنا لا يمكن ان تقاس بسلم الحسابات الذي تقدمه لنا التحريفية باستعجال .

ان ما يحدث هو كون المواد الوثائقية مشتتة وأحيانا غير كاملة أو متناقضة ... تلك هي مقدمة بايجاز ، الخطوط العريضة للأسباب التي تشكل أساس هذه المقالات الست ... وان ما نطمح اليه بتقديم هذه الأعمال للقارىء هو الاسترجاع ، المكمم كلما أمكن ذلك ، للنشاط الاسباني في شمال المغرب ودمج عوامل ومتغيرات بأفق تفسير مرضي للجانب المطروق ، واقتراحات في النص وفي الهوامش لأعمال أخرى » (ص. 8) .

ولا يمكن ختم هذه المقدمة دون الاشارة الى عدم تكويننا بشكل كاف في الشؤون العربية . اننا نجهل اللغة العربية وان معرفتنا للعالم الاسلامي كتبية في الغالب ... وان وعينا بهذه الثغرات والانعكاسات التي يمكن أن تكون لها على المقالات الست التي تكون هذا الكتاب ، قد ادى بنا الى اختيار وجهة نظر أوروبية مركزية ، كرد فعل للدفاع الذاتي بدون شك ، لكتابة كل هذه

المقالات » (ص) .

ويبقى هذا الكتاب بالرغم من الثغرات والهفوات التي يحملها في طياته ، مرجعا أساسيا بالنسبة لكل المهتمين بالتاريخ الحديث والمعاصر لبلادنا .

وأخيرا وليس آخرا ، يتضمن الكتاب قائمة مجموعة من الابحاث والمؤلفات الهامة التي خصصها الكتاب الفرنسيون أو الانجليز (حول حرب الريف التحررية) أو الاسبانيين لتاريخ بلادنا او لدراسة أحد اوجه الاستعمار الاسباني والفرنسي ببلادنا .

الهــوامــش :

(1) يستعمل فيكتور موراليس مفهوم « الاستعمار الجديد » للدلالة على الشكل الكديم للسيطرة الاستعمارية أي الاستعمار المباشر . وهذا الاستعمال مخالف للمدلول المتداول لهذا المفهوم .

(2) من دعاية دار النشر للكتاب ، مثبتة في غلاف الكتاب .

(3) يتعلق الامر بما يسمى المروكيسمو وهو الاتجاه الذي كان يجمع كل الأطراف التي كانت تعمل وبأساليب شتى على استعمار المغرب .

(4) ان الكاتب يعني بهذا التعبير مدينتي سبتة ومليلية السليبتين .

(5) يتعلق الامر بما يدعى : الافريكانيسمو